في ظلال دلالات سورة الإسراء

بمنظور جديد معاصر

باب التفسير (٢)

سورة الإسراء

سليم الجابي

ماجستير علم الأديان المقارن

11

سلسلة مؤلفات

في ظلال دلالات سورة الإســـراء

وبمنظور جديد معاصر

في ظلال دلالات سورة الإســـراء
وبمنظورٍ جديدٍ معاصر

بقلم
سـليـم الجـابـي
ماجستير علم أديان مقارن

الطبعة الأولى ١٩٩٧- عدد النسخ المطبوعة ٢٠٠٠

عنوان المؤلف : دمشق - تلفون : ٧٧٧٤١١٣ - ص.ب : ٥٤٢٥
تصميم الغلاف والتنضيد والإخراج الفني :
نيو غرافيك - دمشق - تلفون : ٢٢٢٠٥٣٣ - ٢٢٤٨٠٨٢
الطباعة : مطبعة نضر لفنون الطباعة الحديثة - دمشق - تلفون : ٢٢١٢٣٦٣

صدر للمؤلف:

- حقيقة القراءة المعاصرة / مجرد تنجيم (جزء أول)
- حقيقة القراءة المعاصرة / مجرد تنجيم (جزء ثاني)
- حقيقة القراءة المعاصرة / مجرد تنجيم (جزء ثالث)
- نظرية جذور الأخلاق . (مترجم الى الفرنسية)
- النظرية القرآنية حول خلق العالم .
- القضاء والقدر حقيقة كونية ثابتة.
- الرأي في المرأة والحرية والتراث حول حوار د.البوطي و أ.فياض.
- فن الإختزال في القرآن الكريم .
- هل مات المسيح على الصليب ؟ (مترجم الى البولندية)
- في ظلال دلالات سورة الكهف وبمنظور جديد معاصر.
- في ظلال دلالات سورةالإسراء وبمنظور جديد معاصر.

تقديم لسورة الإسراء

إنَ الذي يُطالع ماكتبه المفسَرون القدماء رحمهم الله تعالى في تفسير سورة الإسراء، لايُلاحظ فيما قدَموه من شروحات ترابطاً موضوعياً بين مضامين آياتها. وفي وقتٍ كانت هذه السورة مُخصَصة للكلام عن تاريخ بني إسرائيل وعن مصيرهم المشؤوم المقدَر لهم آخر المطاف. خصوصاً وأنها سُميَت بسورة بني إسرائيل.

وأنا إذ أقدمت على تدبَر آيات سورة الإسراء هذه وتفسيرها. فمن مُنطلق كونها لكل زمانٍ ومكان. على اعتبار أنها جزءٌ من كتاب الله الموعود بحفظه إلى يوم الدَين. فها أنه قد مضى على نزولها أربعة عشر قرناً من الزَمان. وقد حدثت خلال المدَة المذكورة أحداثٌ وأحداث، وطرأت على العالم مختلف المتغيَرات، وأمسى بأيدينا معطيات لم تتوفر للذين سبقونا بالإيمان من علماء هذا الدين الإسلامي الحنيف. ومع ذلك كلَه فقد ظلت سورة الإسراء بحاجةٍ إلى من يغترف من علومها ومعارفها. ولذلك سميَت تفسيري هذا (في ظلال دلالات سورة الإسراء). فهي سورة كانت وماتزال تُظلَ بوارف ظلها المؤمنين في كلَ زمانٍ ومكان. ومن الخطأ الجسيم أن نتواكل على التفاسير القديمة، مُتعامين عن جميع ماستجدَ من أحداثٍ هامة ومتغيَرات ومُعطيات. كذلك أضفت إلى الإسم جُملة (وبمنظورٍ جديدٍ معاصر) لأوحي إلى القارئ الكريم بوجود مالم يوجد في التفاسير القديمة في هذا التفسير عِلماً بأني لا أعتمد في تفسيري على مالديَ من علم متواضع. بل استمدَ عون الله وعلمه اللدني عند كلَ آيةٍ من آيات كتابه العزيز. ومستفيضاً من علوم مجدَد هذا الزمان الأخير الذي أفاض الله تعالى عن طريقه نهراً عظيماً من العلوم والنكات المعرفية.

وأرجو من القارئ الكريم مطالعة كتابي (فنَ الإختزال في القرآن الكريم) الذي وضَحت فيه أن سورة الإسراء، ما هي إلاَ أحد فصول سورة الحجر، وقد خصَصها ربنا عزوجل لإلقاء الضَوء على التجربة الدينيَة الإسرائيلية ومآلها. هذه التَجربة التي انتهت ببعثة محمد بن عبد الله خاتم النبييَن (ص)، وبما أنزله الله ربَه عليه من وحي هذا القرآن العظيم.

من هذا ندرك اهميَة وضرورة إعادة النَظر فيما ورثناه من تفاسير لسورة الإسراء هذه. خصوصاً وأنَ اليهود عادوا إلى أرض كنعان .لفيفاً..

ألا إنَ الآية الأولى من هذه السورة، وهي آية الإسراء، أخطأ معظم سلفنا الصَالح في فهم مضمونها. وترتَب على خطئهم هذا نتائج وخيمة يحصد منها مجتمعُنا

الإسلامي. فعسى أن يستفيد محبّوا هذا الدين الحنيف ممّا فتحه الله تعالى عليّ في هذا التفسير.

هذا، وإنّي لعلى ثقةٍ من أنّ كلّ من سيطالع ماأوردته في هذا الكتاب من حقائق تضمنتها سورة الإسراء هذه، لابدّ أن تتملكّه الدهشة، وتتجلى له بالتالي مصداقيّة قول ربّه عزوجلّ في الآية (٢٥٥) من سورة البقرة ﴿ولايحيطون بشيءٍ من علمه إلاّ بما شاء..﴾.

وقوله جل شأنه في الآية (٣٩) من سورة يونس: ﴿بل كذّبوا بما لم يُحيطوا بعلمه، ولمّا يأتهم تأويله..﴾. فصدق الله العظيم، فهو المستعان على مايصفون، ومنه التوفيق.

سليم الجابي
ماجستير في علم الأديان المقارن

علاقة سورة الإسراء بسورة النّحل

كنت وضّحت في (فنّ الاختزال) التّبعيّة الموضوعية لسور النحل والإسراء والكهف، تبعيّتها لسورة الحجر المُستهلّة بأحرف المُقطّعات (الر) والمختزله من أنا الله أرى بمعنى أنّه لا يغيب عن ناظري ماضي البشر وحاضرهم ومستقبلهم. الأمر الذي يدفعني لبيان التّرابط الموضوعي بين سورتي النّحل والإسراء.

فالله عزوجل وقد شاء الكلام عن الذين انحرفوا عن دين إبراهيم الخليل عليه السّلام، قال في الآيات الأواخر من سورة النّحل: ﴿**إنّما جُعل السّبت على الذين اختلفوا فيه، وإنّ ربّك ليحكُم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.**﴾ النحل (١٢٤) إشارةً إلى اليهود والمسيحييّن.

وقد أمرنا الله تعالى بعد هذه الآية الكريمة بدعوة هؤلاء إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، وأوصانا بالصبّر على مايمكرونه ضدّ الإسلام، وقال: ﴿**ولئن صبرتم لهو خيرٌ للصابرين**﴾. وذلك بعد أن خاطب محمداً الرسول الأمين (ص) بقوله: ﴿**ثم أوحينا إليك أن اتّبع ملّة إبراهيم حنيفاً، وماكان من المشركين**﴾. ثم راح تعالى فأكّد على رسوله الكريم بالصبّر على ماسيواجهه المسلمون في المستقبل من مكرٍ واعتداء من قبل اليهود والنصارى، وأضاف قائلاً: ﴿**واصبر وماصُبرك إلا بالله، ولاتحزن عليهم، ولاتكُ في ضيقٍ ممّا يمكرون. إنّ الله مع الذّين اتّقوا، والذين هم محسنون**﴾. وهكذا أوصى جل شأنه المسلمين بتحسُّس رضى ربّهم عليهم على الدوام، بالمداومة على العمل الصالح والتوسّل بين يديه تعالى ليقيهم شرّ مايمكره هؤلاء اليهود والمسيحيّون ضدّهم في الخفاء.

وهذه المواعظ وهذا التّحذير يُخفي وراءه إنذاراً موجهاً إلى المسلمين أنفسهم، وهو أنّهم إن ابتعدوا فكرياً وعملياً عن العمل على أحكام دينهم الإسلامي، وغفلوا عن الاستعانة بقدرات ربّهم اللامتناهية وعلمه الغيبي الذي لايعرف الحدود. فسيؤول حالهم إلى ماآل إليه حال أعدائهم من هؤلاء، وينزل بهم بالتالي البلاء.

فلّما بدأ جلّ شأنه بإنزال سورة الإسراء يشرح فيها ماضي اليهود ومستقبلهم ومصيرهم المأساوي. لم يُغفل جلّ شأنه موضوع ضرورة الرّبط موضوعياً مابين سورتي النّحل والإسراء. فماذا فعل؟ إنّه تعالى استهل سورة الإسراء بآية الإسراء، فلم يأت فيها باسم الجلالة (الله)، بل

أتى عوضاً عنه باسم الموصول (الذي) وقال ﴿**سبحان الذي أسرى**..﴾. فعل هذا كيلا يتكرّر اسم الجلالة مع ماأنهى تعالى به سورة النحل حيث قال هناك : ﴿**إنّ الله مع الذّين اتّقوا، والذين هم محسنون.**﴾. فبعمليّة الحذف هذه ربط موضوعيّاً مابين سورتي النّحل والإسراء. وليشير من طرفٍ خفيٍ أيضاً إلى أنّ ربّك ياممد لن يدع هؤلاء المكذّبين يمكرون بدينك القويم. وهاأنّه يتخذّ بحقهم مُقرّرات تتعلّق بمصيرهم منذ الآن. وهذه المقرّرات السّماوية تضمّنتها آية الإسراء على حسب ماسنلاحظه عند تفسيرها.

خلاصة مضامين سورة الإسراء

الآيات التّسع الأولى تمهيديّة. أعلن الله جلّ شأنه في الأولى منها ماقضى به من مُقـرّرات بحقّ اليهود وميثاقهم الذي يتفاخرون به على المسلمين وعلى العرب خاصّة. الميثـاق المذكـور في سفر الخروج ٦/٥ من التوراة المعاصرة: (أقمت معهم عهـدي أن أعطيهـم أرض كنعـان، أرض غُربتهم التي تغرّبوا فيها). وقد أشار تعالى إلى أنّ الميثاق المذكور، ماكان بلا شروط، بـل كـان مُقيّداً بشروط العمل على أحكام الله ووصاياه. لذلـك راح جـلّ شـأنه فذكـر بـني إسـرائيل في الآيتين الثانية والثالثة بخلاصة مأوصى به نبيّه موسى من تعاليم. كذلـك ذكّرهـم جـل شـأنه في الآية الرابعة بإنذارين تضمنتها تعاليم التوراة. أمّا في الآية الخامسة فقـد ذكّرهـم بـالعذاب الأوّل الذي حلّ بهم مصداق الإنذار التوراتي الأول. وفي الآية السادسة ذكّرهم أنه عفى عنهـم بعـده وأحسن إليهم. فلّما لم يُقدّروا نعمة هذا العفو والإحسان، ذكر في الآية السّابعة أنـه جـلّ شـأنه أنزل بهم عذابه الثاني مصداق الإنذار التوراتي الثاني. أمّا في الآيتين الأخيرتين الثامنـة والتاسـعة التمهيديتين فقد نوّه تعالى بما ستأتي به الأيام والسّنون المقبلة. وأنهى بذلك مـامهّد بـه لموضـوع سورة الإسراء.

ومابعد الآية التاسعة وحتى الآية الأربعون عرض الله تعالى ماتميّز به القـرآن الكريـم مـن تعاليم في مقابل مأأتت به التوراة من تعاليم منسوخة. ليثبت بالتالي الضّرورة الزمنية المُلِحّة الـتي استدعت نسخ التوراة وإنزال القرآن المجيد.

ومابين الآيات (٤١ - ٤٨) توجّه بخطابه إلى اليهود موضّحاً الغاية من إنزاله هذا الكتاب العزيز،وقد أنذرهم جلّ شأنه إن لم يستجيبوا لتعاليمه بالعذاب، وذلك في الآيات (٤٩ - ٥٥).

ومن ثم توجه جل شـأنه يخاطب المسـلمين في الآيـات (٥٣ ــ ٥٩) ويتوعّدهـم إن هـم خالفوا التعاليم المنزلة في كتابه العزيز، منذراً إياهم أنّه سيحلّ بهم حينذاك ماحل بهـؤلاء اليهـود من عذاب.

ولفت جل شأنه أنظار المسلمين في الآيـات (٦٠ ــ ٦٤) إلى أنّ الإسـراء الـذي تضمنتـه الآية الأولى من هذه السّورة، إنّما تضمّنته رؤيا مبشّره أراها الله تعالى رسوله الكريم. وقد تقرّر فيها مصير شجرة نسل داوود تلك الشجرة الملعونـة في كتـاب الله العزيـز لسـلوك هـذا النسـل مسلك الشيطان الرّجيم الذّي حذر منه آدم عليه السلام. كما نبّه جل شـأنه المسلمين في الآيـة

الخامسة والسّتين بوعد ربّهم الذي اشتملت عليه التوراة والقرآن من أنّ الذي يتوكّل على ربه ويتخّذه وكيلاً، لايعود للشيطان عليه من سبيل. كما أوصاهم في الآيات (٦٦ ـ ٨٧) بالتّمسك بهذا التعليم المذكور.

وراح جلّ شأنه في الآيتين (٨٨ ـ ٨٩) فتحدّى الانس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن صياغة ومضموناً. وأتبع تحدّيه المذكور بردود ردّ بها على مطالبات أعداء الإسلام ومطاعنهم التي يوجّهونا إلى هذا القرآن. وذلك في الآيات (٩٠ ـ ١٠١).

وعاد جل شأنه قبل أن يُنهي سورة الإسراء، عاد ينذر اليهود بما ينتظرهم من مصير فأنبأ عن مصيرهم المشؤوم في الآيات مابين (١٠٢ ـ ١٠٩). وأنهى سورة الإسراء في الآيتين (١١٠ ـ ١١١) حاثّاً المؤمنين أن يكونوا من الموحّدين الكاملين في توحيدهم.

تفسير سورة الإسراء

نزلت سورة الإسراء في مكّة المكّرمة على حسب ماروواه ابن مسعود (رضـى) في تفسير القرآن للإمام البخاري في الجزء الثالث منه. نزلت آيّام اشتدت محاولات تحريض اليهـود زعماء قريشٍ ضدّ ابنهم البار محمد بن عبد الله الصادق الأمين. فأراح نزولها وماتضمنته من بشـارات، صدور الرّسول الكريم (ص) وصحابته، واستبشروا بما هو آتٍ عمّا قريب.

وقد استهلّ الله عزوجلّ هذه السّورة بقوله تعالى:

الآيـة الأولـى

﴿ سبحان الله أسرى بعبده ليلاً، من المسجد الحرام إلـى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله، لِنُريه من آياتنا، إنّه هو السّميع البصير ﴾

فكلمة (سبحان) على حسب ماذكره أصحاب المعاجم تفيـد تنزيه الله تعالى عن كلّ سوء. أي تُنزهه عن أن يرتكب مُنكراً، أو يفجر فجوراً أو أن يرتكب ذنباً أو أن يُضرّ بأحدٍ من خلقه. أمّا (الذي) فإسم موصول أتى به جل شأنه ليصف ماأرى رسوله الكريم ليلـة أسرى بـه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. كما أتى جلّ شأنه بفعل (أسرى) المتعدّي، ومـن سرى الرّجل: سار عامّة الليل. علماً بأن فعل سـرى وأسـرى مـاهو بحاجـةٍ إلى تـأكيده بكلمتـه ليـلاً، للدّلالة على السّير ليلاً. أمّا كلمتا الأمـس والبارحـة فهمـا بحاجـةٍ إلى تأكيدهمـا بهـذه الكلمـة. فأنت تقول: مشيت الأمس نهاراً. وسرت البارحة ليلاً. (محيط المحيط).

ثم إنّ المقصود بالمسجد الحرام في هذه الآية الكريمة، الكعبة المُشرّفه لحرمتها حيث يُسجد فيها لله عزوجلّ. ولنلاحظ أنّ الله تعالى لم يقل (أسرى برسوله) بل قال **﴿أسرى بعبده﴾** ذلك أنّ العبادة يُعبّر بها عن غاية التذلّل لله تعالى صاحب غايـة الإفضـال علـى عبـاده، خصوصـاً إذا كانت العبادة بالإختيار. (أقرب الموارد).

وعليه فما معنى: **﴿سبحان الذي أسرى بعبـده ليـلاً مـن المسـجد الحرام إلى المسـجد الأقصى﴾**؟ فإن نحن عُدنـا إلى أقـوال المفسّـرين القدمـاء، نلاحـظ أنّهـم ذهبـوا في تفسـير ذلـك

مذهبين: ففريقٌ منهم ذهب إلى أن هذه الآية الكريمة أخبرتنا عن إسراءٍ تمّ في عالم اليقظة، حيث أُسري برسول الله (ص) ليلاً بجسده العنصري. والفريق الآخر ذهب إلى أنّ ذلك حدث مناماً، وأنّ جَسَدَ رسول الله (ص) لم يفارق فراشه ليلة أسرى ربّه به.

وقبل أن أُدلي بوجهة نظري في الموضوع. أرى من الضروريّ تنبيه القارئ إلى أمرٍ هام. وهو أن الله عزوجلّ، وإثباتاً من جانبه أنّ كتابه مُعجز السّبك والبيان، قد هيّأ لقارئ كتابه العزيز جوّاً ذهنيّاً يؤهّله ويسهّل عليه التوجّه لإدراك حقيقة الإسراء. هيّأ له عناصر جوٍ خارجي تضمّن الأمور التالية:

أولاً ـ فأتى بكلمة (سبحان) ليدفع القارئ المحقّق يتساءل عن حكمة ذلك. فسبحان تعني: أبرّئ الله من السّوء، أي أبرّئه أن يرتكب منكراً أو فجوراً أو ذنباً أو ضرراً بأحد. فما الداعي لهذا التّمهيد؟ إلاّ أن يكون الله جل شأنه قد قضى قطع صلته باليهود واتخذ ضدهم مُقرّرات أيضاً؟

ثانياً ـ وقال (سبحان الذي) ولم يقل (سبحان الله الذي) ليدفع القارئ المحقق يتساءل عن حكمة ذلك. وقد سبق لي أن وضّحت هذا السّبب. وهو أنّ هذا الحذف حدث دفعاً للتكرار، وليربط الله جل شأنه الآية الأخيرة من سورة النحل بأوّل آية من سورة الإسراء. ولتصبح ﴿**إنّ الله مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون* سبحان الذي أسرى بعبده.**﴾.

ثالثاً ـ ولم يقل تعالى «أسرى برسوله» بل قال (أسرى بعبده) ليدفع القارئ المحقّق يتساءل عن حكمه ذلك. فالعبد هو من طاع لله وخضع وذلّ وخدمه والتزم شرائع دينه ووحّده (محيط المحيط). وهو جلّ شأنه بهذا الاختيار لهذا اللفظ، وبعد أنْ سفّه حال أهل الكتاب في آخر سورة النحل، لانحرافهم عن التوحيد الذي أتى به جدّهم إبراهيم عليه السّلام، فقد أعدّ الله بذلك للقارئ المحقّق جوّاً ذهنياً لتقبّل مايتضمنه الإسراء من أمورٍ قضى الله ربّهم بها ضدّهم كعقابٍ نهائي، يعاقبهم به. وأبرز مافي هذا العقاب هو فسخ الله تعالى ميثاقه المعقود مع نبيّه موسى بشأن أرض كنعان وعلى اعتبار أنّ ذاك الميثاق كان مشروطاً بشروط ولم يكن ميثاقاً غير مشروط على حسب مايزعم بنو إسرائيل. فمحمّد رسول الله هو عبد الله الحقيقي وبجميع معاني العبودية الدّال عليها لفظ عبد. فهو (ص) الإنسان الذي عاد يمثّل ملّة إبراهيم وليس هؤلاء المنحرفون الماكرون.

وقد أرفق جلّ شأنه هذا الجوّ الذهني الخارجي الذي أعده، أرفقه بجوّ ذهنيٍ من داخل نصّ آية الإسراء وتضمّن الأمور التالية:

أولاً - أتى جلّ شأنه بكلمة (ليلاً) أضافها على فعل (أسرى) الدّال على السير في الليل، ليدفع القارئ المحقق يتساءل عن حكمة ذلك. ففعل (أسرى بعبده) لاتحتاج دلالته إلى تأكيد حدوثها ليلاً. والذي وضّحه لنا صاحب (محيط المحيط) هو أنّ لفظي الأمس والبارحة هما بحاجة إلى التأكيد من دون سائر الألفاظ. فتقول مشيت الأمس نهاراً، ومشيت البارحة ليلاً. أما فعل (أسرى) المتعديّ، فلا يحتاج إلى التأكيد بلفظ (ليلاً) ليدلّ على الإسراء ليلاً، فكلمة ليلاً إذن جيء بها هنا لخلق جوٍ داخليٍ لتوجيه القارئ وجهة فهم الإسراء على أنّه قد تمّ في حالة نوم محمد رسول الله (ص) في فراشه في بيت أمّ هانئ على حسب الرواية، وليس شيئاً آخر.

ثانياً - وهو جلّ شأنه عندما استعمل صيغة (إلى المسجد الأقصى)، فليدفع القارئ المحقّق ليتساءل: وأين هذا المسجد الأقصى: ففلسطين كانت لاتزال في أيدي غير المسلمين، و لم يكن قد شُيّد في القُدس المسجد الأقصى المعروف في تلك الأيام. فهذه خطوةُ تهيئَةِ جوٌ ذهنّي لهذا القارئ المحقّق، ليتقبّل دلالة الإسراء على أنّ الله جل شأنه سيقدّر فتح فلسطين على أيدي المسلمين، ويُعيد بذلك أرض كنعان إلى أصحابها العرب المسلمون - كما سيوفّق هؤلاء الفاتحين إلى القيام بتشييد المسجد الأقصى، وبهذا الإسم المنصوص عليه في آية الإسراء.

ثالثاً - وهو جلّ شأنه وقد قال: ﴿**لنُريه من آياتنا**﴾ فليدفع القارئ المحقق يتساءل عن نوعيّة هذه الآيات المقصودة هنا: أهي آيات ماديّة ملموسة؟ أم أنها آيات من نوعٍ آخر؟

فرؤية عجوزٍ في الطريق، وسماع نداءٍ من جانب إبليس، وتلقي سلام أنبياءٍ كإبراهيم وموسى وعيسى وهم أموات، وشربُ كأس لبنٍ، والصّلاة في مسجدٍ لم يُشيّد بعد، والصلاة إماماً أمّ جميع الأنبياء الأموات. هذه الأمور التي وصلتنا عن طريق المأثور من روايات الإسراء.

فلاتشكّل هذه الأمور في حدّ ذاتها آيات بل هي مناظر، إن حدثت فتحدث في حالة النّوم، ويكون لها دلالاتها، فإن كانت هذه الرؤيا كلام الله تعالى إلى رسوله من وراء حجاب، فلابدّ أن تكون قد تضمّنت أموراً مُستقبلية قضى الله عزوجلّ بها، ولابدّ أن تتحقّق مع الأيام

ويثبت من ذلك بالتالي أنّ ماكان قد أرى الله تعالى رسوله الكريم في منامه من تمثلات تجليّات أسمائه الحسنى، فقد كان في هذا المضمون إراءة آياتٍ فيها كلّ الدّلالة على قدرة الله غير المحدودة، وعلى واسع علم الله الغيبيّ.

فهذا هو الجوّ الذهني الخارجيّ والدّاخليّ الذي هيأه الله جل شأنه لقارئ آية الإسراء إن كان هذا القارئ من نوع الباحث المحقّق المتدبّر لكلام الله المُعجز. وهل لاحظ أحد القُرّاء كاتباً لايمهّد في كتابه للموضوع الذي جلس يكتُبه؟ فما بال أحدنا إذا كان الكاتب هو ربّ العالمين الرحمن الرحيم ومالك يوم الدّين؟

أعود إلى الكلام عن حقيقة الإسراء وأقول: إن فريق المفسّرين الذين ذهب ذهنهم إلى أنّ الإسراء قد حدث بالجسد والروح معاً وليس في حالة النّوم. فمن الأدلّة التي قدّموها لإثبات صحّة ماذهبوا إليه. هو أن قوله تعالى :﴿ **أسرى بعبده** ﴾ والعبد كلمة تُطلق على الجسد والروح معاً وليس على الروح فقط. ورأيي أنّ هذا الدّليل، لايُعدّ في حدّ ذاته دليلاً. فهذا اللفظ يستعمل للإنسان في كلتا الحالتين: حالة اليقظة وحالة النوم.

وهل يرى النائم نفسه إلاّ من جسد وروح؟ وأمثلة ذلك من القرآن الكريم كثيرة. فيوسف عليه السّلام قال: ﴿**إذ قال يوسف لأبيه ياأبت إنّي رأيت أحد عشر كوكباً والشّمس والقمر رأيتهم لي ساجدين**﴾. يوسف ٤ ـ فلم يفرّق الله جلّ شأنه في قوله هذا بين جسدٍ وروح عند تعبيره وقس على ذلك بقية الأمثلة القرآنية ثم إنّ لفظ "عبد" يُطلق أصلاً على كيان الإنسان الرّوحي أي على نفسه أما الجسد فأداة ويتجدّد الجسد كل ثلاث سنوات على حسب ماثبت علميّاً. فالنفس تكون هي المقصودة دوماً من هذه الكلمة فهي المضاف وهي تختلف عن الجسد المضاف إليها. تقول : نفسي وحواسّ جسدي. فكلمة (عبد) يُراد بها هنا جوهر النفس التي تتحرك بوسيلة الجسد يقظة وبوسيلة جسد من ماهية أخرى مناماً. فلا يصلح هذا كدليل لأحد الفريقين من المفسّرين.

ومن الأدلة التي قدّمها هذا الفريق من المفسّرين أن كلمة ليلاً استعملت في الآية لتأكيد دلالة الإسراء على حدوثه ليلاً. على حين أنّي سبق أن قدّمت رأي صاحب معجم (محيط المحيط) وهو أنّ هذا اللّفظ لايحتاج إلى تأكيد دلالته على السّير ليلاً. بل الذي يحتاج إلى تأكيده كلمتان هما: الأمس والبارحة تقول مشيت بالأمس نهاراً ومشيت البارحة ليلاً. وبذلك

يتهافت دليل هذا الفريق من المفسّرين. أما ما استدلّوا به من الروايات المأثورة عن مـُجريات أحداث الإسراء نفسه، فلا يشكل أيضاً دليلاً يدعم ماذهبوا إليه.

فلا المسجد الأقصى كان مُشيّداً في القدس آنذاك، ولا كانت القدس يومها عائدةً إلى دولة المسلمين، ولا كان هيكل سليمان قائماً، ثم إنّ جبريل عليه السلام كان يؤوّل لرسول الله (ص) مايراه من مشاهد لذلك فلا يصحّ ماذهب إليه هذا الفريق من المفسرين. أمّا أن رآى (ص) قافلة تبحث عن ناقة شردت عنها، فهذا الجانب المادي الملموس يحدث في رؤى الأنبياء والصالحين من عباد الله تعالى، ليُثبت الله عزوجلّ لهؤلاء عظيم قدراته وعظيم تجلّياته. ولي في هذا المجال تجاربي الشخصية أيضاً ممّا لاحاجة لذكره في هذا المقام.

ويكفيني أن أقول هنا إنني لم أُلاحظ أحداً من هؤلاء المفسرين قد انتبه إلى الأمور التي ذكرتها فيما يتعلّق بالجوّ الخارجي والدّاخلي الذهني الذي أعدّه الله جلّ شأنه لتوجيه عقل القارئ المحقق الوجهة الصحيحة لفهم حقيقة الإسراء. فهل كان محمد (ص) بحاجةٍ إلى نزهة إلى مسجدٍ لاوجود له وإلى أرضٍ ليست تابعة له بعد، وإلى تأويل ماكان يسمعه ويراه؟

وآت إلى الدّليل الذي قدّمه فريق المفسّرين الذين ذهب ذهنهم إلى أنّ الإسراء قد حدث في منام محمد رسول الله (ص)، وأنّه لم يحدث بالجسد والرّوح.

فهؤلاء استدلوا بالرواية المنسوبة إلى أمّ هانئ رضي الله عنها ورواية عائشة رضي الله عنها. كما استدلوا بالآية الستين من سورة الإسراء نفسها، والتي يقول الله عزوجلّ فيها: ﴿**وماجعلنا الرؤيا التي أريناك إلاّ فتنةً للناس..**﴾ فهؤلاء فهموا من كلمة الرؤيا الواردة هنا أنّ المقصود بها هو رؤيا الإسراء المنصوص عليها في هذه الآية الأولى من سورة الإسراء.

وأنا أميل إلى الأخذ برأي هذا الفريق الثاني من المفسّرين.

وقبل توضيح ذلك، كان لابدّ لي بادئ ذي بدء، من الإجابة على سؤال يطرح نفسه في هذا المقام وهو: إنّ القرآن الكريم أورد في الآية السادسة من سورة فُصّلت قول ربّنا عزّ وجلّ: ﴿**قل إنّما أنا بشرٌ مثلكم يُوحي إليّ أنّما إلهكم إله واحد..**﴾. وأورد لنا كذلك قوله تعالى في الآية (٥١) من سورة الشورى: ﴿**وماكان لبشرٍ أن يكلّمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء إنّه عليّ خبير.**﴾. فالذي يُميـّز محمداً رسول الله (ص) عن غيره من البشر أنّه كان يتلقّى وحي ربّه، وفق دلالة الآية السادسة من سورة

فُصّلت المذكورة. أي أنّه (ص) كان يمتاز عن غيره من البشر من حيث أنّ الله عزوجلّ كان يكلّمه بالطّرق الثلاث المنصوص عليها في الآية (٥١) من سورة الشورى.

فالسؤال هو: هل كان الله عزوجلّ يُكلّم محمداً من وراء حجاب؟ وهل تضمّنت سيرته نماذج عن تلك الرؤى المبشّرة التي كانت تمثّل كلام الله معه؟ فإن صحّ ذلك، وأخذنا بوجهة نظر الفريق الثاني من المفسرين من أنّ آية الإسراء تضمّنت مارآه رسول الله (ص) في منامه.

كان لزاماً علينا أن نعود إلى الروايات المأثورة عن رؤيا الإسراء فنتدبّرها بقوانين التأويل وليس بموازين أخرى. لنُحدّد ماتضمنته رؤيا الإسراء من دلالات غيبيّة وقرارات إلهية شكّلت بمجموعها ماكان الله تعالى يريده من مكالمته رسوله الأمين من وراء حجاب. ومن ثم نقوم بربط هذه المعلومات بسباق آية الإسراء وسياقها، وننظر فيما إذا استوى بنتيجة ذلك التسلسل الموضوعي لهذه الآيات.

والذي يراجع كتب السّيرة يعثر على نماذج كثيرة عن رؤى مبشرة وصادقة كان يراها محمد رسول الله (ص)، وكانت تدخل في باب مكالمة الله إيّاه من وراء حجاب. فقد روت هذه السّير أنّ محمداً (ص) رآى وهو في مكّة أنّ في دار أبو جهل عريشة عنب عليها عنقودٌ ناضج. فتعجّب (ص) ممّا رآه، وقال لأصحابه متعجّباً: إنّ العنب من ثمار الجنّة وأبو جهل من أهل النار، فكيف رأيت عنقود عنبٍ في داره. وبعد أن تمّ لرسول الله (ص) فتح مكّة المُكرّمة وبايعه عِكرمة بن أبي جهل، عقّب رسول الله (ص) على بيعته وقال: هذا تأويل عنقود العنب الذي رأيته في عريشة أبا جهلٍ من قبل في منامي. أي أنّ رسول الله (ص) نبّه إلى أنّ الله تعالى أنبأه عن إيمان عكرمة بطريق الرؤيا ومن وراء حجاب، فلم يفهم مأنبأه الله تعالى به إلاّ بعد بيعة عكرمة على يديه. وبألفاظٍ أخرى بإمكاننا أن نستدلّ من ذلك أنّه ليس بشرطٍ أن نفهم جميع مايريد تفهيمنا الله عزوجلّ إيّاه في الرؤى الصّادقة المبشرة، إلاّ بعد أن يكشف ذلك علينا جلّ شأنه بنفسه فيكشفهعلى صاحب هذه الرؤيا المُبشّرة. فهذا هو سرّ زَيَغَان عقول بعض المفسّرين عن إدراك حقيقة دلالات رؤيا الإسراء. أما وقد كشف الله عزوجلّ هذه الحقيقة على مجدّد زماننا، لعلاقة دلالاتها بأحداث زماننا بالذات، فهذا هو الأمر الذي يُساعدني على شرح حقيقة الإسراء ودلالاته، وبشكلٍ موضوعي أيضاً.

وبناءً عليه فقد سبق لي وقلت آنفاً: إنني أميل إلى الأخذ برأي الفريق الآخر من المفسرين الذين ذهب ذهنهم إلى أنّ الإسراء قد حدث في منام محمد رسول الله (ص). ويساعدني على هذا التّوجه هذا الجوّ الذهني الداخلي والخارجيّ الذي هيّأه الله عزوجلّ من أجل متدبّري كلامه المقدس وليساعدهم على فهم حقيقة الإسراء.

ومادام الإسراء قد حدث ضمن كشف روحي وفي حالة نوم رسولٍ أعظم، فهذا الإسراء وهذه الرؤيا تدخل إذن في باب وحي الله تعالى إلى محمّد (ص) من وراء حجاب. هذا الأمر الذي يفرض علينا ضرورة استعراض أحداث الإسراء على حسب ماوصلتنا من رواياته كذلك ومحاولة فهم مضمون تلك الأحداث ودلالاتها، وبما يتفّق مع هذا السّباق وهو علاقة الإسراء بقوله جل شأنه أواخر سورة النحل مخاطباً رسوله الكريم يقويّ عزائمه: ﴿**واصبر وماصبرك إلاّ بالله، ولاتحزن عليهم، ولاتك في ضيقٍ مّما يمكرون.**﴾. أي توسّل بالصبر إن لم يؤمن لك الذين اختلفوا في السّبت من يهود ومسيحيين بهذا الدّين، فلا يغلب على فؤادك الحزن لهذا الخبر، ولايتملّكك ضيق ممّا يمكرونه ضدّك وضدّ هذا الدّين أيضاً. فهذا السّباق يساعد كثيراً على إدراك حقيقة مااحتواه الإسراء من قرارات ونبوءات متعلّقة بهؤلاء الماكرين.

هذا الأمر استدعى أن أنقل أشمل رواية رواها أنس بن مالك بطريق ابن جرير، وأوردها ابن كثير خلال تفسيره لآية الإسراء. قال: (لمّا جاء جبريل إلى رسول الله (ص) بالبُراق، فكأنّها حرّكت ذنبها. فقال لها جبريل: مه يابُراق فوالله ماركبك مثله. وسار رسول الله (ص)، فإذا هو بعجوزٍ على جانب الطّريق، فقال (ص): ماهذه ياجبريل؟ قال: سر يامحمد. قال فسار ماشاء الله أن يسير، فإذا شيء يدعوه متنحيّاً عن الطّريق، صاح هلّم يامحمد. فقال له جبريل: سِر يامحمد. فسار ماشاء الله أن يسير. قال: فلقيه خلقٌ من خلق الله تعالى، فقالوا: السّلام عليك ياأوّل، السّلام عليك ياآخر، السّلام عليك ياحاشر. فقال له جبريل: اردد السّلام يامحمد. فرّد السّلام. ثم لقّنه الثانية فقال له مثل مقالته الأولى ثم الثّالثة. كذلك حتى انتهى إلى بيت المقدس. فعرض عليه الخمر والماء واللّبن. فتناول رسول الله (ص) اللّبن. فقال له جبريل: أصبتَ الفطرة. فلو شربت الماء لغَرِقْتَ، وغَرِقَتْ أمّتك. ولو شربت الخمر لغَوَيت، ولغَوَت أُمتّك ـ ثم بُعِثَ له آدم فمن دونه من الأنبياء. فأمّهم رسول الله (ص) تلك اللّيلة. ثم قال له جبريل: أمّا العجوز التي رأيت على جانب الطريق، فلم يبق من الدنيا إلاّ كما بقي من عُمُر

تلك العجوز. وأمّا الذي أراد أن تميل إليه، فذاك عدّو الله إبليس، أراد أن تميل إليه. وأمّا الذين سلّموا عليك فإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السّلام.) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥.

إنّ إلقاء نظرةٍ عابرة على مضمون هذه الرواية، يوحي للقارئ أنّها تحكي كشفاً روحياً وليس حدثاً يحدث في يقظة الإنسان. فأحداث اليقظة لاتحتاج إلى التأويل بشكلٍ من الأشكال.

وفي هذه الرواية تأويلات أوّل بها جبريل المشاهِد التي شاهدها محمد رسول الله (ص) خلال إسرائه إلى بيت المقدس الذي لم يكن قد أصبح في أيدي المسلمين بعد، ولاشُيّد فيه المسجد الأقصى بعد أيضاً. هذا الكشف الروحي الذي تضمنته هذه الرؤيا الدّال عليها كلمة (ليلاً) الواردة في الآية الكريمة. فليلاً فيه تنكير، ولاتُخصّصُ به ليلة مُعيّنة، كما يفيد التّقليل من المُدّة التي استغرقها هذا الإسراء.

ثم إنّ جُملة (الذي باركنا حوله) فالمقصود باسم الموصول هنا هو المسجد الحرام، وليس المسجد الأقصى. ولنُدرك أنّ (ليلاً) أريد بها مارآه محمد (ص) في منامه وهو في بيت أمّ هانئ، هذا البيت الذي كان مشمولاً بالبركات المُنزلة على الكعبة المتمثّلة في هذا المسجد الحرام. وإلاّ فما هي ضرورة ذكر ذلك في هذا المقام؟ فبيت أم هانئ كان مهبط البركات في تلك الليلة بسبب هذه الرؤيا خاصة.

والسؤال الآن هو: ماهي القرارات الإلهية والنّبوءات المستقبلية المُستفادة من دلالات رواية الإسراء التي أوردناها، وماعلاقتها بسباق آية الإسراء وسباقها وبالتسلسل الموضوعي هذه الآيات؟

وأجيب على هذا السؤال بمشيئة الله وأقول: لننتبه أولاً إلى حرفي الجرّ (من وإلى) الواردين ضمن قوله تعالى: ﴿**من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى**﴾. فالله عزوجل إذ أتى بحرف الجرّ (إلى) هذا الحرف الذي يُستدلّ به على انتهاء الغاية. فقد أتى جل شأنه هنا لنفس هذه الدّلالة أي لبيان ما اتخذه جل شأنه من مقرّرات بحقّ اليهود والقدس بشكل خاص، وللإنباء عمّا سيؤول إليه حال القدس بعد رؤيا الإسراء. ذلك أنّ القدس يَرمُزُ وجودها إلى أمرين بارزين: الأول أنها كانت عاصمة دولة سليمان الحكيم في أول مجدها. والثاني أنّ القدس ترمز إلى الميثاق الذي كان معقوداً مابين الله عزوجلّ ومابين موسى عليه السلام.

لذلك وجب علينا قبل الخوض في دلالات رواية رؤيا الإسراء، استعراض ماورد بحق تاريخ هذا الميثاق المشار إليه في التوراة المعاصرة المُعتبرة حُجّةً على أصحابها. فقد أورد سفر الخروج ٦/٥ النصّ التّالي:

(عهدي ـ وهذا العهد تنسبه التوراة هنا لله تعالى ـ أن أُعطيهم أرض كنعان، أرض غُربتهم التي تغرّبوا بها.). وأوّل مايوحي به هذا النّصّ، أنّ هذا العهد قد تعهّد به قائله في أرض الغُربة أي في بداية أرض كنعان، بعد الخروج من مصر وليس قبل ذلك، ولم ترد في حيثيات هذا العهد أنّ الدّافع إليه، كون اليهود شعب الله المختار الذي يزعمون. فلو أنّ هذا الأمر هو الذي دفع إلى قطع هذا العهد بين الله وموسى، لكان ضرورياً بيان ذلك ضمن جُمُلاته. والدليل العكسي الذي يقطع بكذب ادّعاء اليهود المزعوم. هو هذه الجُمُلات التي أوردها كاتب سفر الخروج بعد النصّ المذكور. فقد جاء: (وأتّخذكم لي شعباً، وأكون لكم إلهاً، فتعلمون أنّي أنا الرّب إلهكم الذي يخرجكم من تحت أثقال المصريين.) الخروج ٦/٧-٨ وهذه الجُمُلات تفيد أنّ الله تعالى يستبدل هنا حال عبودية المصريين لبني إسرائيل بحال عبوديّتهم إيّاه تعالى طالباً منهم التقيّد بمتطّلباتها. لقوله (واتّخذكم لي شعباً، واكون لكم إلها). أي أنّ بني إسرائيل لم يكونوا عملياً كذلك قبل الخروج من مصر.

ويضيف كاتب سفر الخروج فيأتي بما يدلّ دلالة صريحة على أنّ هذا العهد، وهذه العبودية الجديدة المطلوبة من هؤلاء، كانت هبة ومنّة عطاء منه تعالى عليهم، فما كان يستحقّها قوم موسى أصلاً. فهو تعالى أورد في الجملة التاسعة خطاباً يخاطب به موسى قومه ويؤيّد ماذكرت من أنّ هذا العهد والعطاء كان منّة من الله على بني إسرائيل، وليس استحقاقاً. فلنُمعن نظرنا فيما يقوله موسى لقومه هنا: (فكلّم موسى هكذا بني إسرائيل، ولكن لم يسمعوا لموسى من صِغِر النّفس ومن العبوديّة القاسية) فلو كان بنو إسرائيل شعب الله المختار، فكيف تركهم ربّهم إلى حدّ أن تصغُر أنفسهم وتنحط من هذه العبودية القاسية في مصر؟

وإلى درجةٍ ماعادوا يقدّرون معها منّة الله عليهم بهذا العهد وهذا الاخراج من مصر، حتى ولاعادوا يسمعون كلام موسى كما ينبغي ولايُطيعونه؟ فإذا راجعنا آيات القرآن الكريم نُلاحظ تأكيد الله عزوجل في الآية الخامسة من سورة القصص، لِما ذكرته من أنّ الأمر كان مجرّد منّه عطاء منه تعالى على بني إسرائيل، وليس استحقاقاً. فهو تعالى يؤكّد ذلك ويقول:

﴿**ونُـريد أن نَمـُنّ على الذّين استُضعفوا في الأرض، ونجعلهم أئِمـّةً ونجعلهـم الوارثـين، ونمكّن لهم في الأرض، ونُـري فرعون وهامانَ وجُنُودَهما منهم ماكانوا يحذرون**﴾. فالعمليـة عملية منّة واصطفاء، ولم تكن استحقاقاً.

نعود إلى سفر الخروج لنُلاحظ من خلاله أنّ المنّة الإلهية المذكورة كانت مقيّدة بشروط ولم يأت هذا العهد محرّراً من تلك الشروط. فقد استهل كاتب سفر الخروج الاصحاح الثامن عشر يقول: (وكلّم الرّب موسى قائلاً: كلّم بني إسرائيل وقُل لهم: أنا الرّب إلهكُـم، مِثْلَ عمل ارض مصر التي سكنتم فيها لاتعملوا، ومثل عمل أرض كنعان التي أنا آتٍ بكم إليها لاتعملوا.. أحكامي تعملون، وفرائضي تحفظون.. فتحفظون فرائضي وأحكامي التي إذا فعلها الإنسان يحيا بها، أنا الرّب.). فقد استُبدل بنو إسرائيل وفق هذا النص عن عبودية فرعون لهم، بعبوديّة جديدة تُحيي نفوسهم الميته المُستعبدة.

وراح الرّب يُبرّر هذا العهد الذي قطعه مع موسى عليه السّلام، ليُوحي أنّه تعالى لايُريد ظُلم أهل أرض كنعان. فقد أورد كاتب سفر الخروج في نفس الاصحاح ١٨/٢٧ـ٢٩ قوله: (لأنّ جميع هذه الرّجسات قد عملها أهل الأرض الذين قبلكم ـ أي في أرض كنعان ـ فتنجّست الأرض. فلا تقذفكُم الأرض بتنجيكم إيّاها، كما قذفت الشعوب التي قبلكم، بل كلّ من عمل شيئاً من هذه العبوديّة تُقطع الأنفس التي تعملها من شعبها). فالعهد المقطوع لموسى إذن كان مشروطاً بشروط التقيّد بحال العبوديّة الجديدة.. ولم يرد ميثاق الله مع موسى مُحرّراً مطلقاً من هذه الشروط المنصوص عليها في هذه الجُملات التي تُعدّ حُجّة قاطعة على هؤلاء اليهود الذين طالما تغنّوا بهذا الميثاق ويتغنّون. فالعهد المذكور اشترط على بني إسرائيل العمل على فرائض الله وأحكامه المُنزلة على موسى عليه السّلام. هذه الفرائض والأحكام التي يحيا بها الإنسان حياة روحيّة تميّزه عمن سواه من نوع الإنسان.

وإن عُدنا إلى كتاب الله القرآن نلاحظه تعالى أنّه قد قال من جهة في الآية (١٠٥) من سورة الأنبياء: ﴿**ولقد كتبنا في الزّبور من بعد الذّكر، أنّ الأرض يرثُها عبادي الصالحون. إنّ في هذا لبلاغاً لقومٍ عابدين**﴾. أي أنّ وراثة الأرض تكون لمن يصلح لها. ونلاحظه جلّ شأنه قد اشترط نفس الشّرط على أمـّةٍ محمد (ص)، وهو الشرط الذي اشترطه على بني إسرائيل حيث قال في الآية (٣٩) من سورة التّوبة: ﴿**ياأيـّها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض، أرضيتم بالحياة الدّنيا من الآخرة، فما متاع الحياة**

الدّنيا في الآخرة إلاّ قليل. إلاّ تنفروا يُعذّبكم عذاباً أليماً، ويستبدل قوماً غيركم، ولاتضُروّه شيئاً، والله على كلّ شيء قدير.﴾. وها أنّ مُسلمي عصرنا يتغنّون أنّهم خير أمّة أُخرجت للناس، مُتناسين شرط العمل على فرائض الله وأحكامه، ومتناسين هذا الإنذار الإلهيّ الرّهيب.

أعود إلى آية الإسراء. لأقول: إنّ حرف الجار (إلى) الدّال على انتهاء الغاية يحصر مُقرّرات رؤيا الإسراء في هذا العهد المقطوع لموسى، والمشروط بالشروط المنصوص عليها في التوراة المعاصرة على حسب مانقلناه لدلالة إسراء محمد (ص) إلى بيت المقدس على مايرمز إليه إلى هذا الميثاق الموسوي خاصة.

هذا وإنّ هذه الرؤيا التي أسرى فيها محمد (ص) إلى بيت المقدس تؤوّل إذن بأنها بشارة وقرار إلهي تبشّر محمداً (ص) بفسح الله عزوجل عهده المشروط المقطوع لموسى من قبل، كما يُبشّره ربه فيها بفتح بيت المقدس على أيدي أصحابه، وبعودة أرض كنعان إلى أيدي أصحابها الأصليين الذين كانوا قد عُوقبوا على وثنيّتهم وتنجيسهم أرض آبائهم وأجدادهم العرب الأقحاح. فلماذا اتّخذ الله تعالى هذا القرار ضمن مُبشّرة رؤيا الإسراء؟ الجواب تضمنته الآية الأخيرة من سورة النحل: **﴿إنّ الله مع الذّين اتّقوا، والذين هم مُحسنون.﴾**، وهم محمد والذين معه الأشداء على الكُفّار الرحماء بينهم الركع السّجود. فالتعاليم المنزلة على محمد (ص) عادت هي التي تحيا بها نفس الإنسان حياة روحية خالدة، و لم تعد لتعاليم التوراة العشائرية من وزن في مقابل تعاليم الدّين الإسلامي.

فهذه هي أوّل دلالة لقوله تعالى **﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله..﴾**. هذه الدّلالة المُستقاة من دلاله حرف الجرّ (إلى)، ومن حقيقة دلالة إسراء محمد (ص) وبلوغه بيت المقدس حسب رواية أنس بن مالك رضي الله عنه. وهذه الدلالة على حسب مارأينا، تضّمنت أمرين اثنين: الأول فسخ العهد مع موسى، والثاني التبشير بفتح فلسطين.

ثم إنّ في قوله تعالى (إلى المسجد الأقصى) نُبوءةً مُستترةً غيبيّة، تنبئ عن توجُّه هؤلاء الفاتحين لتشييد مسجد هناك في القُدس بعد فتحها، ويُسمّونه «المسجد الأقصى» تيمُّنا بهذا الفتح، وتحقيقاً للنّبوءة المذكورة، وليشكّل كل هذا آياتٍ بيّنات على قدره الله غير المتناهية والتي لاتقف دونها حدود. فكيف تُتّخذ مثل هذه القرارات، وكيف يُنبأ عن هذه الأمور في مكّه

المُكرّمه يوم كان محمد وأصحابه في أشدّ أيـّام مِحنتهـم، ومـُستضعفين مـن قومهـم ولايـُدرى مصيرهم وهم على تلك الحال؟ فآية الإسراء آية مفعمةٌ بالنبوءات التي ذكرناها.

وأعود الآن أستقرئ رواية أنس بن مالك رضي الله عنه، نفسها لنستزيد منهـا علمـاً بما اتـّخذه الله جل شأنه في رؤيا الإسراء من قراراتٍ وأنباءٍ، من وراء حجاب.

فمالك ابن أنس رضي الله تعالى عنه، بعدما قال (حتى انتهى إلى بيت المقـدس) أضـاف يقول: (فعـُرض عليه الخمر والمـاء واللّبن، فتنـاول رسـول الله (ص) اللَّبـَن. فقـال لـه جـبريل: أصبتَ الفطرة). وهذا أمره يحدث في منام الإنسان. وليس في يقظته وقد أوّل جبريل لنا ماحدث وقال: أصبت الفطرة. ليرشدنا الله عزوجلّ من خلال ماأوّله جبريل لنا، أقـول ليرشـدنا إلى أنـّه جلّ شأنه يبرّر قراره الذي اتـّخذه، وقرار فتح فلسطين على أيدي العرب المسلمين وفسـخ عهـد الله مع موسى، وللعمل على التّعاليم التي أنزلها الله تعالى على قلب رسوله خاتم النبيّـن (ص)، التعاليم التي نزلت عالمية الصّبغة لاتفاقها والفطرة البشرية المفطور عليها الإنسان والتي لـن يطـرأ عليها أي تبديل مع توالي السّنون. لذلك عادت تعاليم الإسلام صالحة لكل زمان ومكان.

فالله عزوجلّ، ومـن خـلال مـُقرّرات رؤيـا الإسـراء الـتي اتـّخذها سبحانه يكـون قـد استبدل تعاليم التوراة القومية العشائرية بالتّعاليم الفطرية التي أتى بها دين محمد الصّادق الأمـين (ص). وهذا القرار عاد مبرّراً قـاطع الدّلالـة على ضـرورة اتخـاذ ماتضمنتـه رؤيـا الإسـراء مـن مقرّرات، وماحتوته من نبوءات تشـكّل آيـاتٍ سـاطعة أراهـا ربـّنا محمـداً (ص) ويـُؤملّه فيهـا بمستقبلٍ زاهر ينتظره وينتظر أصحابه وهم في أشدّ أيام محنتهم في مكة المكرمة.

ونـُتابع مع أنس بن مالك رضي الله عنه ماأضافه في روايته، فهو قال: (ثـُمّ بـُعث لـه آم فمن دونه مـن الأنبيـاء. فأمـّهم رسـول الله (ص) تلـك الليلـة.). وهـذا الأمـر يحـدث في منـام الإنسان، أيضاً وليس في يقظته وتأويله أنّ دين محمد (ص) سـيظهر أخـيراً علـى الأديـان كلّهـا، ويدخل أتباع تلك الأديان في دينه الإسلام ويعود محمد صلوات الله عليه في النهاية إماماً لجميـع أنبياء الله ورسله. فلا تعود لأيـّة دين بعد ذلك من هيمنة ولاسلطان في مواجهة دين الإسلام.

أمـّا متى سيحدث ذلـك؟ فسـيأتي بيـان ذلـك وجوابـه في الآيـات الأواخـر مـن سـورة الإسراء. وقد وردت الإشارة إلى ذلك في رؤيا العجوز على حسب ماسيأتي من بيان.

فإذا عـُدنا إلى كتاب الله العزيز نـُلاحظه جل شأنه يؤيـّد ماأولـّناه هنا من تأويلات هـذا الإسراء الليلي ويقول في سورة البقرة الآية (٢١) مخاطباً جميع النـاس ويقـول: ﴿**ياأيـّها النـّاس**

اعبدوا ربكّم الذي خلقكم والذّين من قبلكم لعلكّم تتقون﴾. فأتى بالألف واللام للاستغراق إشعاراً لنا أنّ المقصود من الناس هنا جميع الناس. وراح جل شأنه يقول في الآية التاسعة من سورة الصّف: **﴿هو الذي أرسل رسوله بالهُدى ودين الحقّ ليُظهره على الدّين كُلّه، ولو كره المشركون.﴾** فالمشركون هنا هم المسيحيون الذّين ستكون لهم في آخر الزّمان الهيمنة على المسلمين خاصّة. وينذرهم الله تعالى بقراره هذا المتّخذ في رؤيا الإسراء، كما يذكّر به أيضاً مسلمي عصر التخلّف والانحطاط.

فإلى هنا نكون قد تبيّنا معالم ثلاث قرارات إلهية: أوّلها قرار فسخ الميثاق مع موسى. وثانيها قرار فتح فلسطين واسترجاع أرض كنعان، وثالثها قرار إظهار الدّين الإسلامي على الدّين كلّه. الأمر الذي سيتحقّقُ أيام هيمنة المشركين على العالم من المسيحيين الذين اتخذوا لله ولداً. وهو الأمر الموسّع بيانه في سورة الكهف. كما أننا بيّنا حتى الآن نبوءةً متعلّقةً بتشييد المسجد الأقصى المعروف في القدس.

وأعود استعرض تأويلات جبريل عليه السّلام للأحداث التي حدثت خلال إسراء محمد (ص) إلى بيت المقدس. فقد روى لنا مالك بن أنسٍ رضي الله عنه وقال: ثم قال له جبريل: (أمّا العجوز التي رأيت على جانب الطّريق، فلم يبق من الدُّنيا إلاّ كما بقي من عمر تلك العجوز. وأمّا الذي أراد أن تميل إليه، فذاك عدوّ الله إبليس، أراد أن تميل إليه. وأمّا الذين سلّموا عليك، فإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السّلام).

فإن شئنا تأويل هذه الأحداث الثلاثة التي عرضت لرسول الله (ص) خلال مسيرته إلى بيت المقدس. علينا أن نتذكّر نقطة هامة من واقع أحدنا إذا يمّم السّفر إلى مكانٍ معيّن. فهو تتراءى له مشاهد ويتعرّض خلالها لأحداث بسيطة أو على شيء من الأهمية، ويرتبط ذلك كله موضوعياً بسفره المذكور.

فتمثّلات تجليات أسماء الله الحسنى ترد مشابهة وموازية للواقع المذكور. فهناك في رؤيا الإسراء مسيرة محمد (ص) وإلى منزل مقصود هو بيت القدس. ولابدّ أن لاحظ القارئ كيف كان الراوي يقول: (فسار ماشاء الله أن يسير). فهذه المشاهد والأحداث الثلاثة قد حدثت على طول مسيرة محمد (ص) وهو في طريقه إلى بيت المقدس. وهذه المشاهد والأحداث إن دلّت على شيء فإنّما تُؤوّل بالعقبات التي ستعترض مسيرة هذا الدين الحنيف. أي ستعترض تحقّق القرارات والنّبوءات التي تضمّنتها رؤيا الإسراء وتوصّلنا إليها قبل قليل.

فما هي معالم هذه العقبات التي ستعترض مسيرة الإسلام؟ وجواباً على ذلك أقول:

أوّلاً - يُلاحظ الباحث أنّه لايوجد مولود في عالمنا الدنيويّ، إنساناً كان أو حيواناً أو نباتٍ إلاّ ويمرّ من أطوار ثلاثه: طفولة وشباب وشيخوخة، فلايجوز لأحدنا أن يستثني أمّة محمد (ص) من هذا القانون الطبيعي. فهي مولود تولّد ببعثة هذا الرسول العظيم، فلابدّ أن يشبّ ويبلغ شبابه، ومن ثم يشيخ ويأتي عليه زمن تنزُّل، ويحتاج هذا المولود حينئذٍ إلى تجديد شبابه، وإلاّ يموت ويزول.

ومادام قد تقرّر أن يظهر الإسلام على الدّين كله، كان من اللاّزم أن تتدارك عناية الله هذه الأمة زمن شيخوختها، فتعيد إليها الحياة مرّة أخرى، على هذا الأساس نؤوّل رؤية محمد رسول الله (ص) هذه العجوز، وتأويل جبريل ذلك له من أنه بقي من الدنيا مابقي من عمر تلك العجوز، نؤولّه أنّ الأمّة الإسلامية ستشيخ في المستقبل، وذلك بعد سنوات لم تحددها رؤيا الإسراء. فلاينبغي لأحدٍ يوم تتنزل هذه الأمة وتشيخ يومئذٍ أن يظنّ أنّ الإسلام أقبل على نهايته، بل إنّ من واجب كلّ من يتعاطف مع الإسلام يومئذٍ أن يبحث عن معالم عناية الله، والأسلوب الذي سيعمد الله تعالى إليه لإعادة الحياة هذه الأمة المُقبلة على الموت. وهذه حقيقة تضمنتها سورة الضّحى التي قال تعالى فيها مقولته العظيمة على صيغة القسم: ﴿**والضّحى واللّيل إذا سجى. ماودّعك ربُّك وماقلى. وللآخرة خيرٌ لك من الأولى. ولسوف يُعطيك ربك فترضى**﴾. فالضّحى هنا شباب هذه الأمة وضحاها. واللّيل إذا سجى هنا هذا الليل المخيّم على هذه الأمّة زمن شيخوختها، وفي أيامنا هذه بالذات التي عاد كل عدوٍ للإسلام يظنّ حياها أنّ إله محمدٍ (ص) قد ودّعه وقلاه. وقوله تعالى: ﴿**وللآخرة خيرٌ لك من الأولى**﴾. فالمقصود بالآخرة هنا بعثة الإسلام الآخرة التي ستحدث إثر شيخوخة أتباع البعثه الأولى المتمثّلة في هؤلاء المسلمين المتخلّفين. وتكون هذه البعثة الآخرة مصداق القرار الإلهي الذي تقرّر في رؤيا الإسراء، من أنّ الدّين الإسلاميّ سيظهر على الدّين كلّه بدليل أنّ جميع الأنبياء اقتدوا بمحمّدٍ (ص) في الموضع الذي انتهت عنده مسيرته. وبدليل من سورة الضحى أيضاً التي قال تعالى فيها بعد وعده المذكور: ﴿**ولسوف يعطيك ربّك فترضى.**﴾.

فهذا هو تأويل رؤيا هذه العجوز في مسيرة رؤيا الإسراء.

ثانياً ـ ولابدّ لهذا الباحث الذي لاحظ الملاحظة التي ذكرناها، أن يتساءل عن سرّ شيخوخة كلّ مولود، وعن سرّ شيخوخة كلّ أمّةٍ من أمم الأرض. وإنّ هذا الباحث سيتوصّل إلى أنّ سرّ ذلك يكمن في مدى انحراف كلّ أمّةٍ ازدهرت عن المبادئ والتعاليم التي حققت لها ذاك النّمو والازدهار. وهذا الأمر يعني بألفاظٍ أخرى أنّ أفراد هذه الأمة الإسلامية ماإن تبلغ سنّ شبابها وتزدهر إلاّ وتبدأ الانحرافات النظرية والعملية تتسرّب إلى صفوف أبنائها، ويبدأ بذلك زمن انحطاطها وتنزلّها. ويصدق عليها قول إبليس ﴿**لأغوينّهم أجمعين**﴾. فهذا هو ماحدث لهذه الأمّة، وهو تأويل هذا الصّوت الذي دعا محمداً (ص) إليه من جانب الطريق، والذي أوّله له جبريل قائلاً: (وأمّا الذي أراد أن تميل إليه فذاك عدوّ الله إبليس، أراد أن تميل إليه). وهاأنّ الله عزوجلّ قد صان محمداً وأصحابه من هذا الإنحراف. لكنّ هذا الانحراف حدث بعد انتقاله (ص) إلى الرفيق الأعلى. حيث تجلّت تلك الانحرافات النّظرية والعملية من خلال أحداث الردّة زمن أبي بكر، وحادث مقتل عثمان ابن عفّان وماتبعه من تطورات وانقسامات وبُعدٍ عن العمل على تعاليم الإسلام. إلى أن صارت أمّة محمد إلى شيخوختها التي هي عليه في هذه الأيّام بالذات. فهذا هو تأويل هذا الحادث الثاني الذي تعرّض له محمد (ص) خلال إسرائه وهو في طريقه إلى بيت المقدس.

ثالثاً ـ ولاشكّ أنّ سباق آية الإسراء دلّ على أنّ أهل الكتاب الذين اختلفوا في السّبت سيمكرون ضدّ الإسلام بلا انقطاع. فالباحث لابدّ له أن يتساءل في حديث نفسه عن النتائج التي سيتمخّض عنها مكر أهل الكتاب بالإسلام وأهله.

ومادام الإسراء قد أنبأ ضمن مسيرة محمدٍ (ص) إلى بيت المقدس أنّه لقيه خلق سلّموا عليه. ونبّهه جبريل في نهاية المطاف إلى أن هؤلاء الذين سلّموا عليه هم إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السّلام. وسمح له جبريل في حينه أن يردّ عليهم السّلام. فهذا أمر يتعلق بهذا السؤال هنا المتعلق بما سيتمخّض عنه مكر أهل الكتاب من يهود ومسيحيين بالإسلام وأهله، فمن جانبٍ أشار سلام هؤلاء الأنبياء على محمد رسول الله (ص)، أنّ إبراهيم وموسى وعيسى مُتبرؤّون عند الله تعالى ممّا تمكر به أقوامهم ضدّ الإسلام وأهله. تلك الأمم التي خالفت تعاليم أنبيائها نظرياً وعملياً. ومن جانبٍ آخر وردت الإشارة من خلال هذه الحادثة إلى أنّ دمار اليهود والمسيحيين وزوالهم بات محتوماً به بقرارٍ إلهي.

فالأمر الأول أيّدته الآية (١٣٠) من سورة البقرة التي قال تعالى فيها: ﴿**ومن يرغب عن ملّة إبراهيم إلاّ من سفِه نفسه. ولقد اصطفيناه في الدّنيا، وإنّه في الآخرة لَمِنَ الصّالحين**﴾. فلفظ الآخرة قصد به تعالى ماأوردته سورة الضّحى: ﴿**وللآخرة خيرٌ لك من الأولى**﴾ إشارةً إلى البعثة الآخرة لهذا الدّين الحنيف. فلن يؤثّر مكر أهل الكتاب الذي يمكرونه ضدّ الإسلام وأهله على مكانه إبراهيم أبو الأنبياء في نظر الذين ستحقق على أيديهم هذه البعثة الآخرة للإسلام.

والجانب الآخر لدلالة هذه الحادثة الثالثة التي تعرّض لها محمد (ص) خلال مسيرته إلى بيت المقدس في إسرائه المذكور هذا الجانب المتعلّق بمصير أمم هؤلاء الأنبياء إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام. فقد خُصصّت الآيات الأواخر من سورة الإسراء، ومن بعدها سورة الكهف لتشرح هذا المصير.

وألخّص الآن دلالات قوله سبحانه وتعالى: ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله، لنريه من آياتنا..**﴾، إضافة إلى استعانتي بما تضمّنته رواية أنس بن مالك التي فصّلت لنا مُجريات أمور هذا الإسراء.

فأقول: إنّ الله عزوجلّ استهل سورة الإسراء بهذا الوحي من وراء حجاب المـُعبّر عنه في ألفاظ هذه الآية الأولى من سورة الإسراء. وقد تضمّنت هذه الآية الكريمة ورواية أنس بن مالك ثلاث قرارات إلهية وثلاثة تنبوءات، وذلك ردّاً على مايمكر به اليهود والمسيحيون من مكرٍ ضدّ الإسلام وأهله. وهو المكر المخالف في حقيقة أمره لمُعطيات نبوءات التوراة والانجيل من جهة، التي انتشرت ببعثة محمد (ص) والتي تثبت مخالفة اليهود والنصارى تعاليم هذه الكتب السماوية، المنزلة على رسلهم هذه المخالفة التي لايرضى عنها إبراهيم وموسى وعيسى أنبياء هؤلاء الماكرين.

فقد تقرّر أولاً فسخ الميثاق الذي طالما تباهى به بنو إسرائيل، وهو العهد المشروط أن يصبحوا عبيداً حقيقين لله سبحانه والذي عقده تعالى مع نبيّهم موسى عليه السّلام تقرّر فسخ الميثاق المذكور. لمخالفة اليهود لشروط هذا الميثاق. ممّا سيأتي بيانه في الآيات التالية.

وقد تقرّر ثانياً فتح بيت المقدس واستعادة أرض كنعان، وإعادتها إلى أصحابها الأصليين، هؤلاء الذين استجابوا للدّين الإسلامي وماجاء به من تعاليم.

وقد تقرّر ثالثاً أن يأتي يوم يظهر فيه دين الإسلام على الدين كلّه، وإن خالف ذلك هوى هؤلاء الماكرين من يهود ومسيحيّين.

أمّا هذه النّبوءات الثلاثة، فالأولى منها كان الإنباء مسبقاً عن أنّ الفاتحين المسلمين، سيشيّدون «المسجد الأقصى» في القدس تيمّناً بدلالات هذا الإسراء المحمدّي. وأمّا النبوءة الثانية فقد تضمّنت تحذيراً موجّهاً إلى المسلمين، تحذّرهم فيه من تلبية صوت إبليس ومن الميل إلى زخرف الحياة الدّنيا، والانحراف عن العمل على فرائض الله وأحكامه، فإنّ هذا الميل سيؤدّي بهذه الأمّة إلى أن تشيخ وتصبح عجوزاً. ويحتاج الإسلام حينئذ إلى عناية الله تعالى من جديد لبعث الحياة في هذا الدين وتجديده. وأما النبوءة الثالثة فقد تضمّنت الإنباء بصورة إجمالية عن المصير المشؤوم الذي سيصير إليه حال هؤلاء الماكرين من يهود ومسيحيين. هؤلاء الذين سيدأبون على الكيد ضدّ الإسلام والمسلمين عبر الزّمان. فهم قوم إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السّلام.

هذه القرارات والنّبوءات الإلهية المذكورة قد نصّ عليها وحي الله تعالى المُعبّر عنه في هذه الآية الأولى من سورة الإسراء، وهو وحيٌ الله إليه من وراء حجاب.

وقد أنهى الله عزوجلّ آية الإسراء هذه بقوله تعالى: ﴿**إنّه هو السّميع البصير**﴾. فهو جلّ شأنه أتى بحرف إنّ للتوكيد. وأضاف ضمير الشأن (هو) بعد ذلك تضخيماً لمنزلة هذا الإله السميع البصير.

فما هي دلالة (السّميع البصير)؟ السّميع مُعرّفاً بالألف واللام يفيد ذات الإله الذي يسمع جهر قول هؤلاء الماكرين ويسمع سرّهم وأخفى من ذلك. هذه الدلالة التي أفادتنا بها الآية (٨٠) من سورة الزخرف، حيث يقول الله تعالى فيها: ﴿**أم يحسبون أنّا لانسمع سرّهم ونجواهم، بلى، ورسُلُنا لديهم يكتبون**﴾.

ثم إن صفة البصير مُعرّفاً بالألف واللاّم، دلالته على الإله الذي يُشاهد ويرى في ظلمات البرّ والبحر وماتحت الثّرى، فهو الرّقيب على كلّ شيء، وهو المشاهد كلّ شيء. وأفادتنا بهذه الدّلالة قول الله عزوجل في الآية (١٠٣) من سورة الأنعام: ﴿**لاتُدركه الأبصار، وهو يُدرك الأبصار، وهو اللّطيف الخبير**﴾.

وعليه فقد أنهى الله جل شأنه آية الإسراء بقوله ﴿**إنه هو السميع البصير**﴾ تنبيهاً لأذهان اليهود والمسيحيين الذين يمكرون ضدّ الإسلام وأهله، من أنّه جل شأنه اتّخذ هذه

القرارات الثلاث وتنبّأ بهذه النبوءات الثلاثة، التي سبق أن توصلنا إليها، من مُنطلق أنّه جلّ شأنه يسمع جهر هؤلاء الماكرين وسرّ مايمكرون به ضدّ الإسلام وأهله. هذا المكر الذي يتضمّن مقرّرات تُشينهم، ومؤامراتٍ تدينهم في مملكه الله السّماوية لو كانوا يعلمون.

فلمّا انتهى الله جل شأنه من بيان ما احتوى عليه الإسراء المحمديّ من قراراتٍ ونبوءات. ردّاً على عُدوان ومكر الذين اختلفوا في السّبت، توجّه جل شأنه للحديث عن تاريخ بني إسرائيل البشع المُشين. فلخّص ماأتت به تعاليم موسى عليه السّلام في التوراة وقال:

الآيـــة الثـــانيـــة
﴿ وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدىً لبني إسرائيل ألاّ تتخذوا من دوني وكيلاً ﴾

فأتى جل شأنه بالواو ليعطف هذا الأمر الخاص على موضوع مقرراته التي تضمنتها آية الإسراء وقال: ﴿**وآتينا موسى الكتاب**﴾ أي أعطينا موسى ماكتبناه عليه وعلى قومه من فرائض وأحكام. فالكتاب استعمل هنا بمعنى مكتوب. وبدليل الألف واللاّم المعرفة بها هذه الكلمة. ثم عاد تعالى فأتى بواو العطف ليعطف ماشاء بيانه على سابقه وقال: ﴿**وجعلناه هدى لبني إسرائيل**﴾. فهُدىً اشتق اللفظ من هداه الطريق: أرشده إليه وبيّنه له وعرّفه عليه. (محيط المحيط). أي جعلنا تلك الفرائض والأحكام التي آتيناها موسى إرشاداً من جانباً وتبياناً وتعريفاً لموسى ولقومه على الصراط المستقيم ليلتزموا بها في حياتهم اليومية.

ثم أتى جل شأنه بحرف (أن) التفسيرية، مُقترناً بلا الناهية وقال: ﴿**ألاّ تتخذوا من دوني وكيلا.**﴾، ففسّر بذلك جُملة ﴿**هدىً لبني إسرائيل**﴾ موضّحاً أنّ جميع ماآتيناهم من فرائض وأحكام، إنّما كانت تدور جميعها حول محور: ﴿**ألاّ تتخذوا من دوني وكيلاً.**﴾. أي طلبت من بني إسرائيل أن يعبدوني وأن أكون أنا إلههم الذي يستسلمون إليه ويعتمدون عليه ويثقون به ويتيقّنون بعلمه وبقدراته وعطاءاته.

ذلك أنّ (وكيلاً) اشتقت من اتكّل على الله أي استسلم إليه واعتمد عليه ووثق به وتيقّن بعلمه الواسع وقدراته وعطاءاته (محيط المحيط). ثم إنّ (وكيلاً) بهذه المعاني وردت بصيغة مفعول. أما إذا كانت بصيغة فاعل فدلالتها على الله الحفيظ لكلّ شيء.

فلما فرغ جل شأنه من تلخيص ماأنزل على موسى من تعاليم، وكان في ذلك إشارة إلى مانقلناه من سفر الخروج ٧/٦ سابقاً، راح جلّ شأنه يلمّح إلى أنّ بني إسرائيل هؤلاء لم يلتزموا

بتعاليم موسى ووصاياه، و لم يشكروا ربّهم على منتــه عليهـم أن أنقذهـم مـن عبودية فرعـون ومن الغرق في البحر الأحمر، مُتناسين بذلك أصلهـم وجدّهـم نوحـاً عليـه السّلام الـذي امتثـل لأوامر ربه وكان عبداً شكوراً ولذلك قال تعالى مضيفاً:

الآيــة الثــالثــة

﴿ ذريّة من حَمَلنا مع نوحٍ، إنّه كان عبداً شكوراً ﴾

وكلمة (ذريّـه) أخصّ دلالة من كلمة (نسل)، وتعني المولود من فـلان. فلمـاذا نبـّه الله جلّ شأنه أذهاننا إلى حقيقة أن بني إسرائيل هم من ذريّة من نجّاهم مـن الطوفـان وحملهـم مـع نوح عليه السلام؟ وماهو سرّ تسمية هؤلاء اليهود باسم «بنو إسرائيل»؟

الجواب نستقيه من سفر التكوين مـن التـوراة المعـاصرة. حيـث يتبيـّن أنّ يعقـوب عليـه السلام ولَدَ له اثنا عشر مولوداً، وكان يوسف صـاحب القصـة المشـهورة أحـد أولئـك الأبنـاء. فيوسف عليه السلام أتى بأخوته ووالديه إلى مصر، وأسـكنهم في الأرض الـتي وهبهـا لـه ملـك مصر لقاء خدمته إيّاه. فتكاثر هؤلاء هناك وشكّلوا فيما بعد خطـراً علـى حـاكم مصـر نفسـه، ففرّقهم ليقوموا هنا وهناك بأعمال السُّخرة واستعبدهم إلى أن بعث الله تعالى موسـى وحرّرهـم من عبودية فرعون.

والذي ذكره سفر التكوين هو أنّ الله تعالى منح يعقوب اسم «إسرائيل» مكافأة من الله إيّاه على تقواه. على حسب يقصّه علينا هذا السّفر من أن والد يعقوب هو اسحاق مـن سـارة زوجة إبراهيم عليه السلام، وهذا الأخير ابن ناحور بن سَروج بن رَعُـو بـن فـالج بـن عـابر بـن شالخ بن ركفشاد بن سام بن نوحٍ عليه السّلام.

فإن نحن سلّمنا بهذا النسب، فقد تبيّن لنا بالتّالي أنّ بني إسرائيل هم ذريه يعقوب الـذي كان من ذرية سام بن نوح. وهو الإبن الّذي حمله نوح معه في سـفينته الـتي صنعهـا بـأمر ربـّه عزوجلّ. وهذا كلّه يؤيّد هذا الطّرح الذي طرحه تعالى في هذه الآية الكريمة بقوله **﴿ذرّية من حملنا من نوح﴾**.

والملاحـظ أنّ الله عزوجـلّ أضـاف يقـول بحـقّ نـوحٍ عليـه السـلام: **﴿إنـّه كـان عبـداً شكوراً﴾**. فلماذا أتى تعالى هنا بحرف إنّ الذي يؤتى بـه للتوكيـد؟ الجـواب في نظـري هـو أنـه

تعالى في مجال ذمّ بني إسرائيل ـ فإن شاء امرؤ ذمّ إنسانٍ مانراه يقول له إنّ أصلك طيّب، فلِم أراك سيئاً. فالله تعالى هنا ينحو هذا المنحى ليؤكّد أنّ انحراف هؤلاء اليهود عن تعاليم موسى لادخل له في نسبهم المذكور.

وهو جل شأنه وكأنه يقول هنا: تأمّلوا في هذا البون الواسع مابين هؤلاء ومابين جدّهم نوح الذي كان عبداً موّحداً ربّه عاملاً على فرائضه وأحكامه ومُتخّذه وكيلاً له. وشكوراً لربّه الذي نجّاه من ويل الطّوفان وكارثته، ومُتحدّثاً بنعمائه، تأملوا هذا البون الواسع مابين نوح ومابين بنو إسرائيل هؤلاء الذين يكذّبون محمداً المبعوث مصداق مافي كتاب موسى من نبوءات بحقّه، والذين لايكتفون بتكذيبه، بل ويمكرون به وبدينه أيضاً. ولايشكرون ربّهم ولايوحّدونه ولايعملون على فرائضه وأحكامه ووصاياه، وهو الله الذي انقذهم من عبودية فرعون ومن الغرق في مياه البحر الأحمر. فهذا هو حال ذريّة يعقوب المُسمّى إسرائيل. فهذه هي حكمة قوله عزوجل هنا: ﴿**ذريّة من حملنا مع نوحٍ إنّه كان عبداً شكوراً**﴾.

فالله جلّ شأنه وبهذا الأسلوب من التفاخر بنوح عليه السلام يكون قد برّر مااتّخذه جل شأنه من مقررات في الإسراء المحمدي ضدّ هذه الذّريه الفاسدة العاقّه ربّها ونبيّه موسى أيضاً. ويكون في الوقت نفسه قد وعظ أمّة محمد (ص) وحذّرها من مغبة السّير على آثار هؤلاء اليهود. كذلك جاء تعالى يحثُّهم في الوقت نفسه على العمل على فرائض الله وأحكامه وأن يكونوا من الشاكرين.

فلّما فرغ الله جل شأنه من هذا الكلام البليغ المُفعَمِ بالحِكَم والدّلالات والمواعظ والتّبريرات لقراراته المُتخّذة بحقّ بني إسرائيل، توجّه جل شأنه يزيدنا معلومات تاريخيّة ممّا تضمّنته توراة موسى من انذارات بحقّ هؤلاء اليهود وقال:

الآيـة الـرابعـة

﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتُفسدُن في الأرض مرّتين، ولَتَعلُنَ علُواً كبيراً﴾

فأتى جلّ شأنه بالواو العاطفة من جديد ليعطف هذا الأمر الخالص على العامّ السّابق ذكره، وقال: ﴿**وقضينا**﴾ من قضى إليه الشيء: أعلمه وبيّنه، وعلى شاكلة قوله تعالى في سورة طه: ﴿**من قَبل أن يُقضى إليك وحيه**﴾ أي من قبل أن نعلمك به ونبيّنُه (محيط المحيط).

ثم إنّ ﴿لتُفسدُنّ﴾ من فسد الشيء ضدّ صَلُح، وقد أورد صاحب الكليات: الفاسد مأخوذٌ من فسد اللّحم إذا أنتن بحيث لايمكن الانتفاع به، وأورد صاحب الكليات: الفساد زوال الصّورة عن المادّة. وإنّ الفساد يعني الإبتداع واللّهو واللعب وأخذ المال ظُلماً. (محيط المحيط).

أمّا قوله تعالى ﴿لَتَعلُنّ﴾ فمن علا فلانٌ في الأرض إذا تكبّر وتجبّر. (محيط المحيط).

وعلى أساسٍ من هذه الدّلالات، ينبّه الله جل شأنه أذهاننا إلى أنّه علاّم الغيوب. وقد كان في سابق علمه أنّ قوم موسى سيحيدون وينحرفون عن تعاليمه التي أنزلها على نبيهم موسى في المستقبل وسيفسدون في أرض غربتهم التي تغرّبوا بها، فينزل ربّهم بهم عذابه الذي أنذرهم به على لسان نبيّهم موسى إن هم فعلوا ذلك، ومن ثم يعفو عنهم ويرحمهم لعلّهم يعودون إلى رشدهم. لكنهم لن يستفيدوا من عفو الله ورحمته، وسيعودون إلى الانحراف والفساد في الأرض فيبتدعون في دينهم ماليس منه ويميلون إلى اللهو واللّعب وأكل مال الحرام والظلم والبهتان، ويستكبرون ويتجبّرون في الأرض. فهذه هي دلالة قوله تعالى: ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتُفسدن في الأرض مرتين، ولتعلُنّ عُلُوّاً كبيراً**﴾.

وهذا المعنى يقتضي منّا توضيح أمرين اثنين: الأول أن نُراجع إلى التوراة المعاصرة التي تُعتَبرُ حُجّة على أصحابها، فنستقي منها ماأوردته من بيان على لسان موسى عليه السلام يَثْبُتُ منه صحّة هذا الطّرح القرآني. والأمر الآخر أن نعمد إلى تحديد زمني هذين الفسادين المشار إليهما هنا، ومن ضمن مُعطيات القرآن والتوراة معاً.

فإن نحن عُدنا إلى سفر التثنية ٢٦/٢٧ نُطالع ماأنذر به النبي موسى قومه بني إسرائيل في أيّامه الأخيرة، فقد ورد هناك: (وأوصى موسى الشعب في ذلك اليوم ٢٦/٢٧ ملعون من لايُقيم كلمات هذا النّاموس ليعمل عليها. ويردّد جميع الشّعب وراءه: آمين). ويضيف قائلاً: (وإن سمعت لصوت الرّب إلهك لتحرص أن تعمل بجميع وصاياه التي أنا أوصيك بها اليوم يجعلك الرّب إلهك مُستعلياً على جميع قبائل الأرض. وتأتي عليك جميع هذه البركات وتدركُك إذا سمعت لصوت الرّب إلهُك. مباركٌ تكون في المدينة، ومبارك تكون في الحقل، ومباركة تكون ثمرة بطنك). ٢٨/١ـ٤. فبهذه الألفاظ المبشّرة خاطب موسى بني إسرائيل قبل موته بمدة قصيرة. ومن مُنطلق أنّ الله عزوجلّ يبعث مرسليه. ﴿**مبشّرين ومُنذرين**﴾. ولننظر بماذا أنذر النبي موسى قومه بعد تلك البشارة. نلاحظه يستدرك ويقول: (ولكن إن لم تسمع لصوت الرّب

إلهُك لتحرصَ أن تعمل بجميع وصاياه وفرائضه التي أنا موصيك بها اليوم، تأتي عليك جميع هذه اللّعنات، وتدركُك: ملعوناً تكون في المدينة، وملعوناً تكون في الحقل ١٥ــ١٨ يجعلك الرّب مُنهزماً أمام أعدائك ٢٥ـ٢٦ يذهب بك الرّب ومُلكِك الذي تُقيمه عليك إلى أمّةٍ لم تعرفها أنت ولا آباؤك.. وتكون دُهْشاً وهُزأة في جميع الشّعوب الذين يسوقك الرّب إليهم ٣٧ــ٣٨ وتأتي عليك جميع هذه اللّعنات وتتبعك وتدركُك حتى تهلَكَ، لأنك لم تسمع لصوت الرّب إلهُك لتحفظ وصاياه وفرائضه التي أوصاك بها. فتكون فيك آية وأعجوبة وفي نسلك إلى الأبد ٤٥ـ٤٨).

فبهذه الألفاظ المُنذرة الصّارخه المؤثّرة أشار النبي موسى إلى الفساد الأول المنبأ عنه في قوله تعالى: ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل لتفسدُن في الأرض مرتين.**﴾. وسنرى فيما بعد أنّ هذا الإنذار الرّهيب تحقق من خلال اجتياح ملك بابل بختنصّر أرض فلسطين وتدميره جميع مافيها وسبي أهلها إلى بابل أيضاً.

ولنأت إلى القسم الثاني الذي أنذر النبي موسى به قومه في نفس سفر التثنية فهو أضاف يقول: (يجلب الرّب عليك أمةً من بعيدٍ من أقصاء الأرض، كما يطير النّسر، أمةً لاتفهم لسانها ـ فهو أشار بذلك إلى جيوش روما التي اجتاحت أرض فلسطين واستعمرتها، وهو الأمر الذي سنتطرق إليه فيما بعد ـ أمّةٍ جافية الوجه لاتهاب الشيخ ولاتحنّ إلى الولد ــ إشارةً إلى كون الرومان وثنيين ـ ٤٩ـ٥٠.. وتحاصرك في جميع أبوابك، في كلّ ارضك التي يُعطيك الرّب إلهك.. فتبقون نفراً قليلاً عوض ماكنتم كنجوم السّماء في الكثرة، لأنّك لم تسمع لصوت الرّب إلهُك. وكما فرح الرّب لكم ليُحسن إليكم ويُكثّركم، كذلك يفرح الرّب لكم ليُفنيكُم ويُهلككم فَتُستأصلون من الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها.

ويبدّدك الرّب في جميع الشّعوب من أقصاء الأرض إلى أقصائها ٢٨/٦٣ـ٦٤. هذه هي كلمات العهد الذي أمر الرّب موسى أن يقطعه مع بني إسرائيل في أرض مُؤابْ، فضلاً عن العهد الذي قطعه معهم في حوريب ٢٩/١).

وهكذا نكون قد وضّحنا الأمر الأول الذي اقتضى توضيحه قول ربّنا عزّوجل: ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل لتفسدُنّ في الأرض مرتين ولتعلُن علوّاً كبيراً**﴾.

أمّا الأمر الثاني الذي اقتضاه هذا الكلام المقدّس فهو ضرورة تحديد زمني هذين الفسادين من خلال مُعطيات القرآن والتوراة.

فإذا عُدنا إلى كتاب الله العزيز، هذا الكتاب الذي يفسّر بعضه بعضاً، لاحظنا قوله عزوجلّ في الآية (٧٩) من سورة المائدة: ﴿**لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عَصَوا وكانوا يعتدون**﴾. أي استحق عُصاة بني إسرائيل، ومعتدوهم لعنة النبي موسى التي لعنهم بها فيما نقلناه من سفر التثنية، مرّتان: مرّة بعد داوود عليه السّلام ومرّة بعد عيسى ابن مريم. لذلك ينبغي علينا تقصّي هاتين اللعنتين والكارثتين اللتين حلّتا ببني إسرائيل من ضمن مُعطيات التوراة الحاضرة، وعلى ضوء هذا البيان القرآني.

فإن نحن عُدنا إلى هذه التوراة المعاصرة، واستنطقناها بأسلوب الباحث المدقّق. نلاحظ أنّها تُخبرنا أنّ ذروة مجد دولة إسرائيل تجلت زمن الملك داوود. ومن ثم يبدأ الانحلال والانحراف عن تعاليم موسى يأخذ طريقه إلى قلب هذه الدولة خصوصاً في السّنوات الأخيرة من حكم ابنه سليمان. والذي خلفه ابنه وانقسمت الدّولة في زمنه إلى قسمين. لذلك نلاحظ أنّ يهود زماننا إن تغنّوا بشيء إنما يتغنّون بمملكة داوود وسليمان. والحق أنّ القرآن الكريم مدح داوود وسليمان في الآية (٣٠) من سورة (ص) بقوله تعالى: ﴿**ووهبنا لداوود سليمان، نعم العبد إنّه أوّاب**﴾. كما قال في الآية (٢٦) من نفس سورة (ص): ﴿**ياداوود إنّا جعلناك خليفةً في الأرض فاحكم بين الناس بالحق**﴾.

أمّا لماذا تعرّض القرآن الكريم في الآية (٧٩) من سورة المائدة إلى تحديد فترتي الكارثتين اللتين حلّتا ببني إسرائيل، فلتفسير الآية التي نحن بصددها قوله تعالى: ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدُنّ في الأرض مرّتين..**﴾. هذا من جهة. ولوعظ أمّة محمّد (ص) لتأخذ حِذرها ممّا أنذرها به محمد رسول الله (ص) ممّا نقله البخاري رحمه الله في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، عن لسانه (ص) أنّه قال: ﴿**لتّتبعُن سُنن من كان قبلكم شبراً شبراً، وذراعاً بذراعٍ، حتى لو دخلوا جحر ضبٍ لتبعتموه.**﴾. فقال السامعون من صحابته (ص): يارسول الله: اليهود والنّصارى: فأجاب: فمن؟.

وبعد أن أتى تعالى على بيان جميع هذه الأمور التاريخية والتي عطف الواحدة على الأخرى لارتباطها موضوعياً بخلاصه تعاليم النبي موسى ووصاياه، وبتبشيره قومه وبإنذاراته الموجّهة إليهم، نلاحظه أنّه جل شأنه أتى بعد ذلك بفاء الاستئناف وأردف يقول:

الآيـــة الخـامســـة

﴿ فإذا جاء وعد أولاهما بعثنـا عليكم عبـاداً لنـا أولي بـأسٍ شـديدٍ فجاسـوا خـلال الدّيـار، وكان وعداً مفعولاً ﴾

فالظرف إذا هنا يشير إلىماضي بني إسرائيل، وبالتّحديد إلى زمان الكارثة الأولى التي حلّت بهم بعد حكم داوود، أمّا كلمة (وعد) فقد استعملت في هذه الآية بمعنى الوعيد الأول الذي جرى على لسان موسى عليه السلام والذي نقلناه من سفر التثنية آنفاً. فهذا هو ماأشار الله تعالى إليه من خلال قوله ﴿**بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأسٍ شديدٍ فجاسوا خلال الدّيار**﴾. أي أنّ الكارثة المذكورة حدثت بإرادة الله ومشيئته لمخالفتكم يابني إسرائيل فرائضه وأحكامه ووصاياه.

ثم إنّ كلمة (فجاسوا) من جاس الشيءَ: طلبه بالاستقصاء (محيط المحيط) أتى الله تعالى بهذه الكلمة للإشارة إلى ذلك الحادث المفجع بلاستقصاء ومقصوداً. وعليه فمعنى قوله تعالى: ﴿**فجاسوا خلال الدّيار**﴾ أي طافوا بينها يعبثون ويدمّرون. ولهذا أضاف جلّ شأنه بعد ذلك يقول: ﴿**وكان وعداً مفعولاً**﴾ بمعنى تحقّق من خلال ذلك وعيد الله تعالى الذي توعّد به بني إسرائيل على لسان النبي موسى عليه السّلام.

فمتى جاس هؤلاء العباد أولى البأس الشديد خلال ديار بني إسرائيل؟

للإجابة على هذا السؤال، أعود فاستعرض من خلال سفر الملوك الأوّل ماحدث بعد وفاة الملك سليمان، إذ يتبيّن أن مملكة سليمان انقسمت بعد موته إلى قسمين، بسبب سوء أخلاق ابنه من جهة، وبسبب طمع الطّامعين بملكه من جهة أخرى، فظواهر الانحراف والتفسّخ الخلقي دبّ في أوصال مملكة بني إسرائيل نتيجة لعدم التزامهم بفرائض وأحكام تعاليم نبيّهم موسى عليه السّلام.

الأمر الذي استمطر لعنة الله عليهم هذه اللعنة التي أنذرهم بها على لسان النبي موسى من قبل. حتّى وعادت الدّول من حولهم تستضعفهم وتطمع فيما تركه سليمان من كنوز. وقد تجلّى ذلك من خلال زحف ملك مصر بجيشه على فلسطين، وذلك في السنة الخامسة لتولّي

(رَحُبعام) بن سليمان ملكه، ونهب ماترك سليمان من ثروات. ثم توالى انقسام هاتين الدّولتين إلى دويلات، فكانت تجري بينهم حروب مستديمه.

ولم يسمع أحد من زعمائهم نصائح صلحاء أمتّهم ووعظهم إيّاهم بضرورة الاتّحاد والعمل على فرائض الله وأحكامه ووصاياه. إلى أن جاء عام (٦٠٨) قبل الميلاد، حيث زحف فيه ملك مصر يومئذٍ والذي ذكرته التوراة بإسم (نَخْوَ)، زحف على فلسطين وأسر ملكهم ونصّب بدلاً عنه عميلاً لهم اسمه (يهوياقيم) على حسب ماورد في سفر الملوك الثاني آخر الاصحاح الثالث والعشرون. ويقول كاتب هذا السّفر في مستهلّ الإصحاح الرابع والعشرون: (في أيّام ــ يهوياقيم ـ صعد نبوخذ نصّر ملك بابل، فمكان له يهوياقيم عبداً ثلاث سنين. ثم عاد فتمرّد عليه. فأرسل الرّب عليه غُزاة الكلدانيين. وغُزاة الأراميّين وغزاة الموآبيين وغزاة بني عمّون. وأرسلهم الرّب، على يهوذا ليبيدها حسب كلام الرّب الذي تكلّم به عن يد عبيده الأنبياء ــ ثم مات يهوياقيم، وورثه في المُلك ابنه يهوياكين)..

(وعمل الشرّ في عيني الربّ حسب كل ماعمل أبوه، في ذلك الزمان صعد عبيد نبوخذ نصّر ملك بابل إلى اورشليم، فدخلت المدينة تحت الحصار. فاستسلم هذا له. وسبى ملك بابل نبوخذ نصّر كلّ أورشليم إلى بابل، واستولى على خزائنها، وولّى مكان يهوياكين عمّه صدقيا. فدام ملك هذا إحدى عشرة سنة، فلم يتّعِظ بسابقيه وعمل الشرّ في عيني ربّه. فعاد إليه نبوخذ نصّر على رأس جيشه وحاصر أورشليم، وطال الحصار، فاشتد جوع أهلها ونفذت غلاهم المخزونة، ممّا حدا بصدقيا وجنوده إلى الهرب منها من خلفها. فتبعتهم عساكر نبوخذ نصّر. وتفرّق جند صدقيا من حوله، وهكذا وقع في أسر البابلين، وسُبي إلى بابل، بعد أن قتل نبوخذ نصّر جميع أفراد عائلة هذا الأسير تجاه عينيه، كما أقدم على فقوء عيني صدقيا. وأتبع ذلك بتدمير منشآت القدس وإحراق جميع مافيها). وعلى هذه الصورة حلّت هذه الكارثة الكبرى الأولى ببني إسرائيل وفق مادلت عليه الآية الكريمة: ﴿**فإذا جاء وعد أولادهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأسٍ شديدٍ، فجاسوا خلال الدّيار، وكان وعداً مفعولاً.**﴾. وعليه يكون نبوخذ نصّر وجنوده هم المقصودون في الآية الكريمة المذكورة. فعلى أيدي بنوخذ نصّر تحقق الإنذار الموسوي الأول الذي أنذر عليه السلام فيه قومه، وهو الإنذار الذي سبق لنا أن أوردناه، من نصوص سفر التثنية من هذه التوراة التي يتلوها في هذه الأيام هؤلاء اليهود ولايتعّظون.

وأضاف الله جلّ شأنه بعد ذلك يقول:

الآيــة الســادســة
﴿ ثمّ رددنا لكم الكرّة عليهم، وأمددناكم بأموالٍ وبنين، وجعلناكم أكثر نفيراً ﴾

فهو تعالى أتى بحرف (ثمّ) ليفيد ترتيب مايستعرضه من أحداثٍ تاريخية. وقال ﴿**ثم رددنا لكم**﴾ من ردّه إلى منزله: أرجعه. واللاّم في (لكم) تفيد التمليك. ثم أتى بلفظ (الكرّة) ليفيد معنى الحملة في القتال ولو لمرّة واحدة، جمعها كرّات. ثم أضاف ﴿**وأمددناكم**﴾ فالواو عاطفه. وأمددناكم من مدّ القوم وأمدّهم بمعنى أغاثهم بنفسه، والامداد يكون عموماً في الخير. ثم أتى بباء الإنصاق وقال ﴿**بأموالٍ**﴾ والمال يُطلق أصلاً على كلّ شيء تملكه جمعه أموال. ثم أتى بواو العطف وقال (وبنين). والبنين جمع إبن وهو الولد الذّكر. وأتى بواو العطف ثانية وقال ﴿**وجعلناك أكثر نفيراً**﴾ أي جعلناكم أكثر استعداداً لمقاتلة عدوّكم ومُغالبته. (محيط المحيط)

فلنلاحظ كيف أنّ هذه الآية الكريمة التي لم يتجاوز عدد ألفاظها عشر كلمات، قد أفادت واسع الدلالات:

أولاً ـ أفادت معنى إعادة المسبيّين من بني إسرائيل إلى وطنهم كحقّ يملكونه.

ثانياً ـ وأفادت أنّ هذه العودة ارتبطت بكرّة قتالية واحدة حادثة ضدّ البابليين.

ثالثاً ـ كما أفادت أنّ جميع ماتحقّق، قد تحقّق بإغاثة من الله عزوجل ونوجّه من قبله بالرحمة نحو هؤلاء المسبيّين.

رابعاً ـ وأفادت كذلك معنى أنّ الله تعالى فتح لهؤلاء أيضاً باب الخير من جديد فأمّدهم بكلّ شيء يحتاجونه من أموال للعودة وإعادة تشييد هيكل سليمان.

خامساً ـ كما أفادت أنّ الله تعالى أكثر من عطاء ذريّة الأولاد الذكّور لبيوت اسرائيل مساعدةً منه تعالى على إعادة البناء.

سادساً ـ وأفادت هذه الآية القليلة الألفاظ أخيراً أن الله تعالى هيّأ لهؤلاء العائدين جميع أسباب القوّة لمواجهة الأخطار المحدقة بهم ولمغالبة عدوّهم.

وقد كان القصد من جميع ما أورَدَتْه هذه الآية الكريمة من أمور وماتضمنته من دلالات:

أوّلاً ـ تذكير بني إسرائيل الذين يمكرون ضدّ الإسلام تذكيرهم بعظيم رحمته وعظيم منّته التي أسبغها عليهم بعد الكارثة الأولى التي حلّت بهم ليعودوا عن فسادهم في الأرض. هذا وإنّ هٰذا الأمر أصل في التوراة المعاصرة أيضاً. فالله جل شأنه وإن يكن قد أنذر بني إسرائيل أنهم سيفسدون في الأرض مرّتين. إلاّ أنّه تعالى كان قد أطلع نبيّه موسى في وقته أنّه سيرحم قومه بعد الكارثة ويعيدهم إلى وطنهم أيضاً، ليفسح لهم مجال التّوبة والإحسان. فهذا الأمر تضمّنه سفر التثنية الاصحاح الثلاثون الذي ورد فيه خطابا من الله عزوجل موجهاً إلى نبيّه موسى عليه السلام يقول فيه: (ومتى أتت عليك ــ والمراد أمّته ـ كل هذه الأمور: البركة واللّعنة ــ أي مابشّر به قومه ومـاأنذرهم به من لعنة ستحلّ بهم ـ اللّتان جعلتهما قُدّامك ـ أي قضيت أن يحدثا في المستقبل ــ فإن ردّدت في قلبك ـ أي تبتُم ـ ورجعت إلى الرّب إلهك وسمعت لصوته ـ بمعنى أن يعود قوم موسى بعد الكارثة عن مساوئهم ويعملون على فرائض ربهم وأحكامه ووصاياه ـ حسب كلّ ما أوصيك به اليوم أنت وبنوك.. يردّ الرّب إلهك سبيك ويرحمك، ويعود فيجمعك من جميع الشّعوب الذين بدّدك إليهم الرّب إلهك.. ويكثّرك أكثر من آبائك). فهذا النّص التوراتي هو المشار إليه في الأمر الأول المذكور.

ثانياً ـ والتّذكير بتآمر المسبيين مع كورش ملك فارس ومساعدته على اجتياح دولة بابل. فالمعلوم تاريخيّاً أنّ قورش الملك الفارسي كان اجتاح أرض بابل عام (٥٣٩) قبل الميلاد، واحتلّ مدينة بابل بدون مقاومة. حدث هذا الأمر من جرّاء تآمر اليهود المسبيين معه، وكان الاتفاق بينهم أن يساعدهم على العودة إلى فلسطين لاعادة تشييد هيكل سليمان.

والحقيقة هي أنّ قورش هذا، لم يكن قد مضى على فتحه بابل عام إلاّ وفكّر في الوفاء بعهده الذي اقتطعه على نفسه تجاه هؤلاء المسبيّن الذين كانوا تآمروا معه على الشرط المذكور، لذلك يُعلم تاريخياً أيضاً أنّ قورش أعلن عام (٥٣٨) قبل الميلاد قراره المذكور علنياً وكتابياً. وبإمكان القارئ مراجعة هذه التطّورات في التوراة المعاصرة، في سفر أخبار الأيام الثاني، وفي الفقرات الأخيرة من الاصحاح السادس والثلاثون منه. حيث ورد هناك: (وفي السّنه الأولى لكورش ملك فارس، لأجل تكميل كلام الرّب. بفم إرميا.. أطلق نداءً في كلّ مملكته، وكذا بالكتابة، قائلاً: إنّ الرّب إله السّماء.. أوصاني

أن أبني له بيتاً في أورشليم التي في يهوذا..). فهل كان الله تعالى يكلّم قورش الفارسي. فهذا أمرٌ علمه عند ربيّ.

كذلك بإمكان القارئ مراجعة الإصحاح الأول من سفر عزرا التوراتي ليتراءى له كيف أنّ قورش سلّم الحاخام شَيشَبصّر ماعثر عليه من كنوز كان نبوخذ نصّر سطا عليها من هيكل سليمان. وقد عاد هذا بهذه المسروقات إلى وطنه فلسطين. حتّى أنّ الاصحاح الثاني من سفر عزرا التوراتي يعدّد أسماء العائلات اليهودية التي عادت برفقة شَيشَبصّر المذكور. كما يذكر لنا أنّ هؤلاء العائدون شرعوا بعد عام من عودتهم يُعيدون تشييد هيكل سليمان.

ثالثاً ـ كذلك فإن ألفاظ هذه الآية الكريمة صيغت بهذه الألفاظ لتذكير بني إسرائيل أنّ ماكان حدث من أحداث وتطّورات أدّت بهم إلى العودة إلى وطنهم، إنّما حدث كل ذلك من قبل الله تعالى الذي تاب عليهم حسب وعده لموسى كما لاحظناه آنفاً، حيث هيّأ الله تعالى جميع الأسباب لإغاثتهم من وراء ستار. فهو جلّ شأنه مُسبّب الأسباب وعلاّم الغيوب، أفلم يتذكروا قول قورش ملك فارس وإعلانه الذي قال: (أوصاني إله السّماء أن أبني له بيتاً في أورشليم التي في يهوذا. فيبنى بيت الرّب إله إسرائيل هو الإله الذي في أورشليم، وكلّ من بقي في أحد الأماكن حيث هو مُتغرّب، فليُنجده أهل مكانه بفضةٍ وبذهبٍ وبأمتعةٍ وببهائم، مع التبرّع لبيت الرّب الذي في أورشليم.) سفر عزرا الاصحاح الأول. فهذه الكلمات الصادرة عن إعلان قورش إن دلّت على شيء، فإنما تدلّ على أن ما أقدم عليه الملك قورش كان على الأقل بتحريكٍ إلهي من وراء ستار.

رابعاً ـ ثم إنّ الأمر الرابع الذي تضمنته هذه الآية الكريمة، كان القصد منه تذكير بني إسرائيل أنّه جلّ شأنه قد أعاد من جرّاء قراره العفو عن اليهود وإغاثتهم، أعاد لهم كنوز هيكل سليمان التي كان سطا عليها بختنصّر قبل مدّة مديده، إلى جانب هذه التبرّعات التي حثّ كورش على تقديمها لهم، ليثبت بذلك أنّه تعالى لم يعفو عنهم وحسب، بل وفتح عليهم باب الرزق وأمدّهم حين عودتهم من أرض بابل إلى وطنهم بكلّ شيءٍ كانوا يحتاجونه.

خامساً ـ كما ذكّرهم ربّهم أنّه جلّ شأنه هو الذي يصوركّم في الأرحام كيف يشاء، فهو جل شأنه بارك بكم يومئذٍ وبأولادكم الذكور التي تقوم على سواعدهم حماية الدّولة من ويلات الغزاة. فهذا الأمر أشار تعالى إليه بكلمة (وبنين).

سادساً ـ وهو جلّ شأنه حين أنهى هذه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿**وجعلناكم أكثر نفيراً**﴾. فقد كان القصد منه تذكير بني إسرائيل بما منّ عليهم بعد ذلك حيث أعاد لهم كيانهم السّابق ومكانتهم بين الشعوب المحيطة بهم فضلاً منه وتكريماً.

ألا إنّ جميع هذه الدلالات تضمنتها عشر كلمات، وهي قوله تعالى: ﴿**ثم رَددنا لكم الكرّة عليهم وأمددناكم بأموالٍ وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً.**﴾. أتى جلّ شأنه بهذا التّذكير لبني إسرائيل هنا، تذكيراً لهم أيضاً أنّ مايمكرونه ضدّ الإسلام يعلمه الله تعالى، ولايخفى عليه شيء منه، فهل تناسوا أنّ ربّهم هو علاّم الغيوب ومسبّب الأسباب والفعال لِما يريد؟ فهذه أسفار توراتهم بين أيديهم تشهد بكلّ قوّة على اتّصاف ربّ العالمين الذي بَعث محمداً بهذا الدّين، بهذه الصفات المذكورة.

وما أن أكمل جلّ شأنه تذكير بني إسرائيل بهذه الأمور، إلاّ وتوجّه إليهم يقول:

الآيــة الســابعــة

﴿ إن أحسنتم، أحسنتم لأنفسكم، وإن أسأتم فلها، فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وُجوهكم، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أوّل مرّة، وليتبرّوا ماعَلَوا تتبراً ﴾

وهذه الآية الكريمة قد صيغت أيضاً بأسلوبٍ أفاد دلالاتٍ واسعة يعسر على الكاتب صياغتها بهذه الألفاظ القليلة. فالله عزوجلّ أتى بحرف (إنْ) الجازم لفعلين الشّرط وجوابه وليدل على وقوع الأمر الثاني من أجل وقوع الأمر الأول، وقال: ﴿**إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم**﴾ وأحسن معناه أتى بالحسن، وضد أساء. أي إن أنتم يابني إسرائيل أتيتم بعد عفونا عنكم واغاثتنا إيّاكم بالأعمال الحسنة، لاتكونون بذلك قد أحسنتم إلى ربكّم الذي عفا عنكم، بل تكونون بذلك قد أحسنتم لأنفسكم.

ثم عاد جل شأنه فأتى بحرف إنْ الجازمه بعد حرف العطف وقال: ﴿**وإن أسأتم فلها**﴾. أي إمّا إذا عدتم إلى الافساد في الأرض والإساءة لأنفسكم بابعادها عن كسب رضى ربّها

ومحبّته، مُتناسين ماحل بكم في الماضي من كوارث من جرّاء ذلك، (فلها). أي أنّه جل شأنه أتى بحرف الاستئناف الفاء، ليشرع يتكلم تفصيليّاً عمّا سيترتّب على العودة إلى الإفساد. وأتى بلام الاستحقاق قائلاً (فلها) أي ستستحقّون عندئذ أن يُنزل الله تعالى بكم العذاب الثاني الذي أنذركم به على لسان نبيّكم موسى عليه السّلام.

ويتساءل القارئ بعد ذلك عمّا سيترتّب على مخالفة اليهود هذا الانذار من عذاب. لذلك نلاحظه جلّ شأنه وقد أتى بفاء الاستئناف وقال: ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة**﴾ فاستعمل لفظين بليغي الدلالة: وعد والآخرة. فبكلمة وعد أعاد ذهن القارئ إلى ماتوعد الله تعالى به بني إسرائيل بهذا العذاب. وبكلمة الآخرة نبّه ذهن القارئ إلى أن هذا العذاب الثاني سيكون العذاب الأخير الذي يدمّر مملكة بني إسرائيل نهائياً، فلا تعود تقوم لهم بعدها قائمة حقيقية، وأضاف يقول ﴿**ليسوؤوا وجوهكم**﴾. فأتى جلّ شأنه بلام الاستحقاق للمرّة الثانية وأتى بفعل (يسوؤوا) من ساءه يسوءه: فعل به مايكرهه ويُحزنه (محيط المحيط). بمعنى أنكم يابني إسرائيل تستحقّون حينئذٍ أن يَفعل بكم أعداؤكم ماتكرهونه وتحزنون من أجله. وهو تعالى إذ قال ﴿**ليسوؤوا وجوهكم**﴾ الوجوه هنا جمع وجه وبمعنى سيّد القوم. تقول أتى وجوه القوم أي سادتهم وأعيانهم (محيط المحيط). أي أنّ أعداءكم هذه المرّة لن يكتفوا بعملية سبيهم إيّاكم، بل إنّهم سيعمدون إلى قتل سادتكم وأعيانكم.

ثم أتى جل شأنه بلام الاستحقاق للمرة الثالثة بعد الواو العاطفة وقال: ﴿**وليدخلوا المسجد كما دخلوه أوّل مرّة**﴾. حاذفاً حرف على وهو صلة فعل دخل عليه. فللتنبيه إلى أنّ دخول أعداء بني إسرائيل سيكون هذه المرّة عُنوةً وبالقوّة. فهذا ماأفاد به صاحب الكليّات.

ثم إنّ كلمة (مسجد) يُقصد بها هنا هيكل سليمان الذي شيّده سليمان لُيصلى فيه وليسجد فيه لله عزوجلّ إنّما أتى جل شأنه بكلمه (مسجد) معرفاً بالألف واللام العهديتين ليفيد دلالته على هيكل سليمان خاصة.

وأضاف جل شأنه يقول: ﴿**كما دخلوه أوّل مرّة**﴾ أي سيدخلون دياركم بنفس الأسلوب والطريقة التي احدثت الكارثة الأولى التي سبق أن حلّت ببني إسرائيل. تلك الكارثة التي تأتّت عن اجتياح بختنصّر القدس من قبل.

ثم أتى جل شأنه بلام الاستحقاق بعد الواو العاطفة للمرّة الرابعة وأضاف قائلاً: ﴿وليتبرّوا ماعَلَوا تبتيراً﴾. وفعل (ليتبرّوا) جيء به للدّلالة على أنّ هذا العذاب الآخر سيكون من الشدّة بحيث لاتقوم لليهود بعده قائمة حقيقية.

ألا إنّ هذه الدلالات التي أفادتنا بها هذه الآية الكريمة تضمّنت الأمور التالية:

أولاً ـ اشترط تعالى لايقاع عذابه ببني إسرائيل أن يعودوا للافساد تارة أخرى.

ثانياً ـ وأنّ هذا العذاب الثاني الذي سينزل بهم سيقضي على وجوههم وأعيانهم.

ثالثاً ـ وسيُلحق هذا العذاب الثاني بالقدس وبهيكل سليمان دماراً رهيباً لاتقوم لهم بعده قائمة.

والآن إن عدنا راجعنا التوراة المعاصرة المُعتبرة حُجَّةً على أصحابها. يتبيّن لنا أن اليهود الذين أغاثهم الله ربّهم وأعادهم إلى فلسطين، وفسح لهم مجال التّوبة وللعمل من جديد وبإخلاص على تعاليم موسى عليه السّلام. لم تمض عليهم مدّة طويلة من الزّمان إلا وعادوا إلى إفسادهم ومعصية ربّهم، بل عادوا إلى أسوأ ماكان عليه أجدادهم قبيل غزو بختنصّر لبلادهم. هذا بالرّغم من أنّ الله عزوجلّ قد راح يعظهم مرة تلو أخرى على لسان أشهر صلحاء أمتهم في تلك الفترة من الزّمان.

وللقارئ أن يتدبّر هذه المواعظ والانذارات التي اقتبستُها له ممّا أوردته هذه التوراة المعاصرة على لسان من اشتهر بين يهود تلك الفترة الزمنية التي أعقبت العودة من بابل من أنبياء يهود وصلحاء قاموا بوعظ أفراد أمّتهم وتحذيرهم من مغبّة انعماسهم في المعاصي والعواقب المترتبّة على ذلك:

فإن نحن راجعنا سفر إرميا الإصحاح ١١/٩-١٤، نلاحظه وقد نقل كاتبه على لسان إرميا قوله: (وقال الرّب لي، توجد فتنة بين رجال يهوذا وسكان أورشليم. قد رجعوا إلى آثام آبائهم الأوّلين الذين أبوا أن يسمعوا كلامي، وقد ذهبوا وراء آلهةٍ أخرى ليعبدوها. قد نقض بيت إسرائيل وبيت يهوذا عهدي الذي قطعته مع آبائهم، لذلك هكذا قال الرب: ها أنذا جالبٌ عليهم شرّاً لايستطيعون أن يخرجوا منه، ويصرخون فلا أسمع لهم.. لأنّه بعدد مُدُنك صارت آلهتك يايهوذا. وبعدد شوارع أورشليم وضعتم مذابح للخزي، مذابح للتبخير للبعل. وأنت ـ يا إرميا ـ فلا تُصلّ لأجل هذا الشعب، ولاترفع لأجلهم دُعاء ولاصلّوة..). من هذا الاقتباس ندرك مدى المعاصي التي عاد بنو إسرائيل إلى ارتكابها بعد العودة من سبي بابل.

وإن نحن راجعنا سفر هوشع الاصحاح ٩/٧. نلاحظه وقد نقل كاتبه على لسان هوشع نفسه قوله: (جاءت أيّام العقاب.. جاءت أيّام الجزاء) ٩/٩.. (من أجل سوء أفعالهم أطردهم من بيتي، لا أعود أُحبّهم. جميع رؤسائهم متمرّدون ١٥.) _ أي أنّ وجهاء القوم أمسوا متمردين على تعاليم موسى عليه السّلام. وهذا أمر يفسّر لنا قول ربّنا في سورة الإسراء ﴿ليسوءوا وجوهكم﴾ فهو تعالى يقصد القضاء على هؤلاء الوجهاء المتردين في الفساد الذين أشار إليهم هوشع في هذا النّص من كلامه المذكور..

وإن نحن راجعنا سفر يوئيل الإصحاح الأول منه. فكاتبه يفتتحه بمايلي: (قول الرّب الذي صار إلى يوئيل بن فثوئيل: اسمعوا هذا أيتّها الشّيوخ.. أصحوا أيتّها السّكارى وابكوا وولولوا ١٥ آه على اليوم، لأن يوم الرّب قريب. يأتي كخرابٍ من القادر على كلّ شيء ١/١٥) ـ فالملاحظ من هذه الجُمُلات أنّها موجّهة إلى وجوه بني إسرائيل المتمردين والعصاة والبعيدين عن اطاعة فرائض الله وأحكامه.

فإن كان هذا هو حال شيوخ اليهود فكم هوسيٌّ حال أتباع هؤلاء الفاسدين؟

وإن نحن راجعنا سفر عاموس الإصحاح ٣/٢١. فقد نقل كاتب هذا السّفر على لسان عاموس قوله: (اسمعوا هذا القول الذي تكلّم به الرّب عليكم يابني إسرائيل.. التي أصعدتها من أرض مصر قائلاً: إيّاكم فقط عَرَفت من جميع قبائل الأرض، لذلك أُعاقبكم على جميع ذنوبكم..). ـ وهذه الكلمات تشير إلى أنّ غضب الله تعالى على بني إسرائيل قد بلغ مداه، فلم تعد هناك فرصة يتوب الله تعالى فيها على بني إسرائيل

لذلك بعث الله عزوجلّ بعد ذلك يُوحنا أي زكريا، فقتلوه. ومن ثم بعث تعالى من بينهم عيسى ابن مريم فمكذبوه وحاولوا قتله على الصّليب، ولنُصغِ إلى ماأوصى به المسيح تلاميذه فذلك يكشف عن حال قومه وحال شيوخهم ووجهاءهم. فكاتب انجيل متّى نقل في الإصحاح العاشر الجمله السادسة عشرة قول المسيح يوصي تلاميذه: (ها أنا أرسلكم كغنمٍ في وسط ذئاب، فكونوا حكماء كالحيّات، وبسطاء كالحمام، ولكن احذروا من الناس، لأنهم سيسلّمونكم إلى مجالس، وفي مجامعهم يجلدونكم..) ويشير بذلك إلى وجهاء وحكّماء قومه بني إسرائيل أنهم كالذّئاب. وينقل كاتب انجيل متّى في الاصحاح ١٢/٣٥ قول المسيح وهو يخاطب شيوخ بني إسرائيل ويقول لهم: (يا أولاد الأفاعي كيف تقدرون أن تتكلّموا بالصالحات

وأنتم أشرار؟ فإنّه من فضلةِ القلب يتكلّم الفم). فالمسيح خاطب هنا شيوخ بني إسرائيل بخطاب أولاد الأفاعي والأشرار.

وكاتب انجيل متّى ينقل أيضاً في نفس الاصحاح ٣٨/١٢: (أجاب قوم من الكتبة والفرّنسيّين قائلين: يامعلّم نُريد أن نرى منك آية. فأجاب وقال لهم: جيلٌ شريرٌ وفاسق يطلب آية، ولاتُعطى له آية إلاّ آية يونان النبي). ونقل متى في الإصحاح ٧/١٥ قول المسيح يخاطب شيوخ ووجهاء بني إسرائيل ويقول: (يامُراؤون حسناً تنبأ عنكم إشعيا قائلاً: يقترب إليّ هذا الشعب بفمه ويكرّمني بشفتيه، وأمّا قلبه فمبتعدٌ عنّي بعيداً..). فالمسيح وصف هؤلاء بالمرائين.

وبما أنّ بعثة المسيح ابن مريم كانت تمثّل آخر صيحةٍ سماويةٍ موجهة إلى هؤلاء اليهود الذين لم يتّعظوا بكارثة السبي إلى بابل، ولم يتوبوا ولم يصلحوا. وأمسوا ميؤوس من صلاحهم. لذلك نلاحظ أن المسيح ابن مريم راح ينذرهم بإنذارٍ رهيب ويقول في الإصحاح ٤٣/٢١: (لذلك أقول لكم إنّ ملكوت الله يُنزع منكم ويُعطى لأمّةٍ تعملُ أثماره. ومن سقط على هذا الحجر يترضّض، ومن سقط هو عليه يسحقه. ولمّا سمع رؤساء الكهنة والفرنسيون أمثاله، عَرَفوا أنّه تكلّم عليهم.). فها أنّ المسيح عليه السّلام قد أنذر بني إسرائيل أنّ ملكوت الله يُنزع منهم ويُعطى لأمّة غير بني إسرائيل تعمل أثماره. وهو عليه السّلام قد أشار من خلال قوله هذا إلى قُرب تحقُّق نبوءة سفر التثنية ١٨/١٨ المتعلقة ببعثة مثيل موسى، وهو محمد (ص) صاحب الشريعة الكاملة التي هي بمثابة الصّخرة التي ستسحق هؤلاء الماكرين.

ولذلك نُلاحظ أنّ المسيح توجّه بعد ذلك إلى تلاميذه ليقول لهم في انجيل يوحنا ١٢/١٦: (إنّ لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لاتستطيعون أن تحتملوا الآن. وأمّا متى جاء ذاك روح الحقّ فهو يرشدكم إلى جميع الحقّ، لأنّه لايتكلّم من نفسه، بل كلّ مايسمعُ يتكلّم به ويخبركم بأمورٍ آتية).

فأعلن المسيح بذلك نهاية بني إسرائيل، وأنبأ عن بعثة محمد (ص) الذي سمّاه (روح الحقّ) أي يمثّل لُباب الصدق والعدل والكلام الثابت، وأنّ روح الحق هذا لايتكلم من نفسه أي لاينطق عن الهوى. بل جميع مايتكلّم به من تعاليم وحيٌ يُوحى إليه. فأعظم بهذه الأقوال التي وصلتنا بطريق هذه الأناجيل الحاضرة والتي تُعدّ حُجّة على أصحابها أيضاً.

والحقّ أنّ الذي حدث بعد بعثة المسيح ابن مريم أن الجيوش الرومانية اجتاحت فلسطين عام السّبعين بعد هجرة المسيح من فلسطين وإثر حادثة الصّلب المشهورة. فإن صحّ الحديث

النبويّ القائل إنّ عيسى عاش مائة وعشرين عاماً. فذلك يعني أنّ هذه الكارثة والدّمار التي حمت ببني إسرائيل في التاريخ المذكور، كانت قد حدثت والمسيح كان لايزال حيّاً يبشّر الأسباط الإسرائيلية في نواحي كشمير.

نعود إلى الآية التي نحن بصددها، فالذي يُستفاد من قوله تعالى: ﴿**وليتبرّوا ماعَلَوا تبتيراً**﴾. أنّ هذه الكارثة الثانية التي ستحل ببني إسرائيل بعد فسادهم الثاني، ستكون من الشدّة بحيث لاتقوم لهم من بعدها قائمة.

وقد شاء ربّنا عزوجلّ، ومن مُنطلق أنه علاّم الغيوب أن ينبّه أذهاننا وأذهانهم إلى ماستأتي به الأيّام. لذلك أتى جلّ شأنه بفعل (عسى) بعد ذلك إشارة إلى أنّ قضيّة قوم موسى لن تنته عند حدّ هذه الكارثة الثانية.

وقبل أن أتوجّه لتفسير الآية، أُعيد إلى ذاكرة القارئ ماتضمنته الآية (١١٢) من سورة آل عمران التي يقول الله تعالى فيها: ﴿**ضُربت عليهم الذّلة أينما ثقفوا، إلاّ بحبلٍ من الله وحبلٍ من النّاس، وباؤوا بغضبٍ من الله، وضربت عليهم المسكنة، ذلك بأنّهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حقّ، ذلك بما عَصَوا وكانوا يعتدون**﴾. فهذه الآية من سورة آل عمران تفسّر فعل (عسى) الذي استهل تعالى به وقال: ﴿**وليتبرّوا ماعَلَوا تبتيراً**﴾.

فقوله تعالى ﴿**إلاّ بحبلٍ من الله وحبلٍ من النّاس**﴾ يشير إلى أنّ حكماء اليهود سيعملون بعد الكارثة الثانية التي فرّقتهم تحت كلّ كوكب أرضي، سيعملون دائبين للعودة إلى فلسطين، وعلى خطّين متوازيين: الخطّ الأول يظلّون فيه يمكرون بالإسلام وأهله من وراء ستار.

والخط الثاني أن يشكّل حكماء صهيون مؤسساتٍ سرّية الغاية منها إيجاد نفوذٍ لهم في المجتمعات التي يستظلّون بلوائها لعلّهم يصلون في وقت من الأوقات إلى دفع قيادات تلك البلدان ليساعدونهم على العودة إلى فلسطين. مُتناسين في ذلك جميع ما أنبأت به توراتهم من أنباء لاتتوافق مع مايسعون إليه.

أفهم هذه الدلالات من خلال مُعطيات الآية من آل عمران. ذلك أنّ قوله تعالى ﴿**إلاّ بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناس**﴾ الحبل من حَبَله يحبله إذا شدّه بالحبل لينقذه من الغرق. والحبل يستعمل كذلك بمعنى الذمّة والأمان والتّقل. ويكون المعنى أنّه إلاّ أن تمتدّ إليكم بالمساعدة يدٌ سماوية أو يدٌ أرضية.

فإن عُدنا إلى الآية (١٠٤) من سورة الإسراء سنلاحظ من خلالها دلالة ﴿**إلاّ بحبلٍ من الله**﴾ فقد أوردت: ﴿**وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض، فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً**﴾. وسآتي على توضيح دلالتها في موضعها من سورة الإسراء.

أمّا مايتعلّق بما يُخطّطه حكماء صهيون سرّاً على الخط الثاني الموازي والذي عبّر تعالى عنه بألفاظ: ﴿**وحبلٍ من النّاس**﴾. فكلمة النّاس وردت هنا مُعرّفة بالألف واللام العهديتين إشارة إلى المسيحيّين زمن نهضتهم الأخيرة، والتي تكلمت عنها سورة الكهف. فهؤلاء هم النّاس الذين سيمدّون بحبلهم إلى هؤلاء المتشرّدين المتآمرين ويحاولون انقاذهم من الغرق. وتحمل هذه الألفاظ ﴿**وحبلٍ من النّاس**﴾ بالتّالي الإشارة إلى وعد بلفور الذي أعطاه المسيحيون الانكليز لليهود. هذا الوعد الظالم الذي انتهى إلى قيام هذه الدّولة المعتمدة على مساعدات الآخرين. هذه الدّولة المسخ التي هي في أيّامها الحاضرة في طريق الزّوال، وعلى حسب ماسنآتي به من بيان.

فالمهمّ هو أنّه كان في علم الله الغيبي جميع الحقائق التي ذكرناها، وأنّها في طريقها إلى التّحقق في المستقبل. فأشار جل شأنه إلى هذه الحقائق من طرف خفي، عندما استهل الآية التالية بفعل التّرجي عسى الذي يُترجّى به للاشفاق في المكروه وأضاف يقول:

الآيـة الثـامنـة

﴿ **عسى ربكّم أن يرحمكم، وإن عُدتم عُدنا، وجعلنا جهنّم للكافرين حصيراً** ﴾

فحصيراً من حصره بمعنى حبسه وضيّق عليه (مفردات الرّاغب). ويرحمكم من رحمه أي رقّ له وغفر وتعطّف.

لنضع في حُسباننا عند محاولتنا فهم دلالات هذه الآية الكريمة، أنّه لاينبغي لنا أن نأخذ بالمعاني التي تتضادّ مع دلالاتٍ سابقة. فالله عزوجلّ الذي بعث محمداً بالحقّ، والذي أنبأ في كتابه القرآن أنّ بني إسرائيل لَيُفسِدُنَّ في الأرض مرّتين وليعلُنّ علّواً كبيراً، ولن ينفكّوا عن الكيد ضد الإسلام وأهله.

هؤلاء الذين اتّخذت الله تعالى بحقّهم ضدهم قرارات تضمنتها آية الإسراء. فهذه الأمور جميعها تشكّل قرائن تمنع من أن نأخذ لكلمة (يرحمكم) في هذه الآية الكريمة دلالتها على إمكانية العفو عن بني إسرائيل.

فالميثاق مع موسى أمسى ملغياً، وقرار فتح القدس وُضع موضع التنفيذ، والفاتحون شيّدوا المسجد الأقصى تحقيقاً من جانبهم لنبوءة آية الإسراء. فبالتّالي لايحقّ لنا أن نفهم من قوله تعالى هنا ﴿**عسى ربكّم أن يرحمكم**﴾ إلاّ معنى أنّ قضية بني إسرائيل سيكون لها ذيول و لم تنته بدمار هيكل سليمان وإحراق القدس واستعمار فلسطين على أيدين الرّومان. وكأنّه تعالى قد فتح هؤلاء أيضاً باب اعتناق الإسلام ديناً إنْ أحبّوا أن يرحمهم الله ربّهم بعد كلّ مافعله أجدادهم ويفعلونه.

وقد أضاف جل شأنه يقول: ﴿**وإن عُدتم عُدنا**﴾ فأتى بعد واو العاطفة بأن الشرطيّة التي توقع الشرط الثاني (عُدنا) من أجل وقوع الأول (عُدتم) بعد أن تجزم فعلين. فأنذر جل شأنه من خلال هذه الألفاظ بني إسرائيل الذي تشتّتوا تحت كل كوكب يخاطبهم ويقول:يامَنْ فتحنا لكم باب رحمتنا بعد كلّ الذي فعلتموه إن أنتم اعتنقتم الإسلام ديناً وعُدتم عن مكركم بهذا الدّين تسلمون حينئذٍ من عذاب جهنّم الذي ينتظركم. أمّا إن عسُدتم إلى سيرتكم الأولى وثابرتم على مكركم بالإسلام وأهله. فإنّ ربكّم يعود لينزل بكم عذابه من جديد حيثما كنتم. وأضاف: ﴿**وجعلنا جهنّم للكافرين حصيراً**﴾. أي ونحصركم بشكل لاتعودون تجدون من دونه مخرجاً لكم، وتكون جهنّم بما تحمله من عذاب لكم حصيراً.

وهنا يرد سؤال يفرض نفسه وهو: ما الدّاعي لهذا الدين الجديد، وهذه التعاليم الجديدة التي اشتمل عليها القرآن. في حال وجود كتاب موسى وتعاليمه؟ ويجيب الله عزوجلّ على هذا السؤال ويقول:

الآيــة التــاســعة

﴿ إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنّ لهم أجراً حسناً ﴾

بمعنى أنّ الذي استدعى نزول هذا القرآن وبهذه التعاليم، كون هذه التعاليم (أقوم) من تعاليم موسى التي لم تعد تصلح موضوعياً ولا مرحلياً. علماً بأن كلمة (أقوم) صيغة تفضيل من قيّم. والقيّم على الأمر متوليّه.

أي أنّ تعاليم الإسلام باتت هي الأصلح للبشرية زمن نزول هـذا القـرآن. لمعالجـة مـاطرأ على العالم من مُتغيّرات لتتولّى تطوير البشر جميعهم من الوجهتين المادّية والرّوحيـّة، وهـو الأمر الذي لاتصلح تعاليم موسى لتوليّه وتحقيقه.

ثم إنّ تعاليم الإسلام الاقوم التي اشتمل عليها هذا الكتاب العزيز تبشّر كلّ من يؤمن بها ويعمل الصّالحات بمستقبل زاهر وأجرٍ كبير، يفوق ماتبشر به التعاليم الموسوية التي جاءت تعـالج أحوال قبيلةٍ بعينها، علماً بأنّ قوله تعالى (للتي أقوم) نعتٌ لموصوف محذوف. والتقدير أن هـذا القرآن يهدي للطريقة التي تُعتبر أقوم الطُّرق الموصلة إلى معرفة الله تعالى وكسب محبته والفـوز بقربه ورضاه.

وليلاحظ القارئ هذا الأسلوب القرآني المتميّز في طرحه للأمور. أفلم نُطالع قوله تعالى في موضع آخر ﴿**إدفع بالتّي هي أحسن السّيئة**﴾. وأمثالها من التّعابير القرآنية؟

ثم إنّه لاينبغي لنا أن نكتفي بهذه الدّلالة التي ذكرناها وهي أفضليـة مـا اشـتمل القـرآن عليه من تعاليم على تعاليم النبي موسى. بل وقد يُراد أيضاً من ذلك أفضلية هذه التعاليم القرآنية من جهة مانزلت لتحقيقة من أهدافٍ سامية تؤدي إلى إسـعاد البشـر جميعهـم وليـس إلى إسـعاد قوم مخصوص.

كذلك هي أفضل من تعاليم موسى من حيث بركاتها التي سيثمره عن العمل عليها على الصعيدين المادي والروحي أيضاً وهذه الدّلالة تحثّ المؤمنين على البذل والعطاء والجهـد العظيـم من جهة. كما تحذّرهم في الوقت نفسه من سلبيّات ومحاذير التّراخي والاستهانة على المسـتوى العملي.

فالمهمّ هو أنّ الله عزوجل قد أجاب في هـذه الآيـة الكريمـة علـى السـؤال المتبـادر آنفـاً. وكأنه تعالى وقد خاطب بني إسرائيل يقول: لايحقّ لكـم أن تطرحـوا مثـل هـذا السـؤال، وأنتـم تُطالعون في كتاب ينبئكم موسى نبوءات تبشّر ببعثه هذا الرسـول والـذي يحمـل هـذا الوحـي القرآني. أنسيتم نبوءة سفر التثنية الاصحاح ١٨/١٨ القائلة: ﴿**أقيم لهم نبيّاً من وسط إخوتهم مثلُك، فأجعل كلامي في فمه، فيكلّمهم بكلّ ما أوصيه به**﴾؟ فهذه النبوءة تصرّح ببعثة محمـد بشرعٍ جديد وأنّه لاينطق عن الهوى. إن هو إلاّ وحي يوحى.

أفلا تدل هذه النبوءة دلالة واضحة على أنّ البشر سيحتاجون يوماً ما، بعد التـُوراة، إلى تشريعٍ جديد شامل، ويصلح لكل زمان ومكان؟

فلـما انتهى جل شأنه من بيان ذلك، أتى بـواو العطـف ليعطـف ماسيُدلي بـه مـن بيـان جديد على ﴿يهدي للتي هي أقوم﴾ ومؤكّداً ذلك (بأنّ) وقال:

الآيــة العــاشــرة
﴿ وأنّ الذين لايؤمنون بالآخرة ، أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾

إنّ اليهود يؤمنون أصلاً بالحياة الآخرة ولاينكرون وجودها كما هو معلوم، وهذه قرينـة دالّـة على أنّ لفظ الآخرة ما استعمل في هذه الآية الكريمة دلالةً علـى الحيـاة الآخـرة. خصوصـاً وأنّ الواو العاطفة هنا تعطف المضمون على ذكر الميزات التي امتازت بهـا تعـاليم الإسـلام علـى تعاليم النبي موسى التي تضمنتهـا التـوراة. وهاتـان القرينتـان توجّهاننـا إلى أنّ المـراد مـن الإيمان بالآخرة هنا، المقصود به هو الإيمان بالنتائج الآخرة التي تترتّـب على الكفر بالإسلام، فلن ينجـو هؤلاء الكافرون ممّا أنذرهم به هذا القرآن من إنذارات تتعلّق بهذا العـذاب المـترتب علـى ذلـك الانكار. وكأنّ الله عزوجلّ ينبّه من خلال ذلك إلى أنّ تعـاليم الإسـلام قـد اشـترطت ضـرورة القيام بالعمل الصّالح، ولم تركّز على العقيدة وحدها كشرط أساسيّ للنّجاة من العذاب.

فالله عزوجل يعظ المسلمين في هذه الآيـة الكريمـة بأسلوب غـير مباشـر ويحذّرهـم منـذ الابتداء إلى أنّ تقاعسهم وقعودهم عن العمل بفرائض الله وأحكامه التي اشـتملت عليهـا تعـاليم هذا القرآن الأقوم من تعاليم التوراة، أقول: إن تقاعسهم هذا سيكون نذير شؤمٍ لهم بما سيجـرّه عليهم من كوارث وعذاب.

وبألفاظٍ أخرى فإنّ لفظ الآخرة الوارد هنا يشير صراحة إلى النهاية المترتّبة على ترك أيّة أمة محمّد العمل على فرائض الله وأحكامه ووصاياه. فالأصل في الدّين هو العمل الصالح وليس المعتقد. أفلم نطالع قول ربّنا بلسان اليهود: ﴿لـن تمسّـنا النّـار إلا أيـّاماً معـدودة.﴾؟ البقـرة (٨٠)

وها أنّ صاحب كتاب (كبرى اليقينيات الكونيه) ينهج نهـج هـؤلاء ويزعـم أنّ العقيـدة هي الأساس في الدّين الإسلامي وليس العمل الصّالح وكأنّه يحتذي بخطى هؤلاء اليهود ويقـول بألفاظ أخرى لن تمسّنا النّار إلاّ أياماً معدودات تأديبـاً لنـا مـن جـانب ربنـا عزوجـلّ: (كـبرى اليقينيّات ص٧٠) فصاحب هذا الكتاب كتب يقول بالحرف الواحد: (من أجل ذلك صحّ أن يُطلق الدّين على العقيدة وحدها، إذ هي أساس الأمر كلّه فيقال: فلانٌ يدين بالإسلام أو اعتنق

الإسلام، إذا رأيته قد صدّق واعترف بعقيدته كاملة من غير تبديلٍ أو نقص، واستسلم يقينه لجميع أركانه. ولايُشترط لصحة هذه التسمية أن يكون ذلك مصحوباً بسلوكٍ عمليٍ في شؤون العبادة أو سائر الأحكام الشرعية الأخرى، وإن كان التّقصير في شيءٍ منها موجباً للفسق ومُعرّضاً بناء العقيدة نفسها للتزلزل).

والمهم أنّ لفظ الآخرة هنا يشير إلى النتائج المترتّبة على معصية الله وعدم الالتزام بفرائض تعاليم كتابه وأحكامه ووصاياه. وعلى اعتبار أنّ عدم الالتزام المذكور له نتائجه الآخرة المتمثّلة في هذا العذاب الأليم الذي توعّد به الله عزوجلّ هؤلاء المقصّرين والمُتراخين. فهذا المعنى للفظ الآخرة في هذا الموضع اقتضاه علاوة على القرينتين اللّتين ذكرناهما، اقتضاه التّسلسل الموضوعي خصوصاً وأنّ كلمة (أعتدنا) الواردة اشتُقت من أعتده بمعنى هيأه وأعدّه إشارة إلى أنّ تعاليم هذا القرآن الكريم لاتخلو من إنذارات موجهة إلى المعتقدين به هؤلاء الذين سُمّوا (مسلمون).

ولم يكتف جلّ شأنه بما ذكره، بل راح تعالى يقدّم لقارئ القرآن حيثيّات ذلك الإنذار ومُبرّراته وقال:

الآيـــة الحـاديـــة عشـــرة

﴿ ويدعُ الإنسان بالشرّ دُعاءه بالخير ، وكان الإنسان عجولاً ﴾

فالواو هنا جيء بها لتعطف مضمون هذه الآية الكريمة على الموضوع العام وهو ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم.**﴾ وليزيد هذا الموضوع وضوحاً. فقد جاء تعالى يبرّر الإنذارات التي يتضمّنها القرآن الكريم والموجّهة أصلاً إلى المسلمين المهملين فروض دينهم وواجباته المترتّبة على كواهلهم. فهو تعالى قال (ويدْع) من دعا الله يدعوه: ابتهل إليه بالسؤال ورغب ماعنده من الخير. وقد حذف مفعول فعل (يدع)، فلم يوضح تعالى هنا الجهة المسؤولة. وحكمة ذلك أن يلفت جل شأنه أذهاننا إلى قانون طبيعي مُهيمن على كل إنسان.

فمن طبيعة كل إنسانٍ أن يدعو بمعنى يسعى للحصول على مايناسبه ويليق به، مالاً كان أو متاعاً آخر سواه بغض النّظر عن الجهة التي يدعوها أي يسعى للحصول منها على مُبتغاه. فهذه هي دلالة (يدع.. بالخير..). إن كان يطلب مايطلبه من الخير من عند الله تعالى بوسيلة اطاعة ربه والقيام بفرائض دينه وأحكامه ووصاياه.

أمّا كيف يدع هذا الإنسان بالشرّ؟ يحدث هذا من خلال إهمال هذا الإنسان العمل على فروض وأحكام دينه، ففي حالة التقاعس والإهمال هذه كأنه يدعو بلسان حاله تلك بالشرّ وليس بالخير. وإلاّ فما معنى أن يُهمل الفروض والواجبات التي يطالبه بها ربّه ليعمل عليها إن كان يدعو بالخير لنفسه؟

وقد راح جلّ شأنه يعلّل عدم انتباه هذا الإنسان الكسول إلى ضرورة قيامه بواجباته الدّينية إن كان يرغب دفع الشرّ عن نفسه وقال: ﴿**وكان الإنسان عجولاً**﴾. أي بسبب أنّ هذا المقصّر في واجباته الدّينيه يتعجّل فلا يفكّر في العواقب المترتبة على كسله وتقصيره. فلو أنّه فكّر ملّياً بعواقب كسله لوجد نفسه تلومه على ذلك وتدفعه لاطاعة خالقه طلباً لما عنده من الخير. فأعظم بهذه الموعظة الفلسفية، وبصياغتها البليغة الـمُعجزة أيضاً.

ألا إن الله عزوجلّ صوّر للقارئ من خلال مضمون هذه الآية الكريمة المأساة التي يُعاني البشر من ويلاتها كثيراً من الشرور والنكبات. فما أن يزدهر حال أمّة من الأمم إلاّ ويتملّك الغرور أبناءها فيتقاعسون بالتالي عن شكر ربّهم الذي أحسن إليهم ومنّ عليهم بهذه الحال المزدهرة. ويعود لسان حال هؤلاء يدعو بالشرّ دعاءه بالخير. وبالتالي يحصدون التنزّل والتخلّف والانحطاط.

وبعد أن فرغ جلّ شأنه من تبريره المذكورة المنطقيّ والنّابع عن قانونٍ طبيعيٍ مسنون. هذا التّبرير المتعلّق باحتواء هذا القرآن الكريم على إنذارات وتوعّدات بحقّ المسلمين، أتى بالواو العاطفة من جديد ليعطف التّبرير نفسه إنّما بأسلوب عرضٍ مغاير، وقال:

الآيـة الثـانيـة عشـرة

﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين، فمحونا آية اللّيل، وجعلنا آية النّهار مُبصرة، لتبتغوا فضلاً من ربكم، ولتعلموا عدد السّنين والحساب، وكلّ شيءٍ فصّلناه تفصيلاً ﴾

فجعلنا من جعله أي صنعه، و (آيتين) مفردها آية وهي هنا بمعنى العبرة والأماره. أي أنّك أيها القارئ إذا أمعنت نظرك في صنعة الله تعالى المتجلّية من خلال توالي اللّيل والنهار. لابدّ أن تتعّظ بها وتعبّر وتوقن بضرورة احتواء هذا القرآن على هذه الإنذارات المذكورة. فكل شيء في هذا الكون لايبقى على حاله. حتى الأمم تكبر وتشيخ. ويكون مَثَلُ حالها مثل

توالي اللّيل بعد كلّ نهار. هذا بالرّغم من أنّ لليّل فوائده كما أن للنهار فوائده. إذ لايخلو شيء في هذا الكون من فوائد ومضار.

فهذه حقيقة وجّه الله تعالى ذهن القارئ إليها، ومن ثمّ أتى بالفاء التفسيرية وقال: ﴿فمحونا آية اللّيل، وجعلنا آية النّهار مُبصرة﴾. من محا الشيء أزاله وأذهب أثره. ومعنى آية مُبصرة أي علامة واضحة ومضيئة (محيط المحيط). أي عمدنا إلى اللّيل فأزلناه وأذهبنا أثره، وكشفنا مساوئه من خلال مايحمله النّهار من محاسن.

ثم أتى جلّ شأنه بلام التمليك ليضيف ويقول: ﴿لتبتغوا فضلاً من ربّكم﴾ والفضل هنا بمعنى الإحسان. أي أنّ الله تعالى ينبّه إلى أنّ صنعته الكونية المذكورة القصد منها أن تستفيدوا من إحسان ربكّم. فلولا هذه الصنعة الكونيّة لحرم البشر من هذا الإحسان الإلهي. فعلى هذه الشاكلة تضمّن القرآن انذارات موجهة إلى المسلمين أنه سيهلكهم إن هم أعرضوا عن القيام بواجبات دينهم. ذلك لأن هذا التّقصير يؤدّي بهذه الأمة إلى التنزّل والانتقال إلى دورٍ ظلاميّ يحرمها من إحسانات ربّها. تلك الإحسانات التي تُخبّأ لصالحهم في حال محو وجودهم، والايتاء بدور جديدٍ يحيونه فيّاضةٍ بالبركات والإحسانات على هؤلاء.

ثم أتى جل شأنه بواو العطف ليعطف إحساناً يُريد توضيح معالمه ومن نوع مغايرٍ، وأضاف يقول: ﴿ولتعلموا عدد السّنين والحساب﴾ أي أننا بصنعتنا التي ذكرناها نُحسن على البشر بإحسانٍ آخر وهو أن نُملكّه بذلك ناصية علم الحساب.

وقد أنهى الله جل شأنه هذه الآية الكريمة وقال: ﴿وكلّ شيءٍ فصّلناه تفصيلاً.﴾. بمعنى أنّ تعاليم هذا القرآن هي أقوم من تعاليم النبي موسى. من جهة أنّ هذا الكتاب أنزلناه مُبوّباً موضوعياً بفصولٍ متمايزة بعضها عن بعضها الآخر. وقد احتوت تلك الفصول جميعها على علومٍ ماسبق لتعاليم النبي موسى أن أتت بها أو دنت منها من قريبٍ ولا من بعيد.

وهنا لابدّ للقارئ أن يستفسر عن الوسيلة الإحصائية التي أعدّها الله عزوجلّ لإحصاء أعمال الإنسان ومخالفاته الأمر الذي يمكّنه من محاسبته مُحاسبة لايعتبريها ظلم ولانقص.

ويجيب الله تعالى بين معترضتين هنا على هذا السؤال الجوهري المطروح ويقول:

الآية الثالثة عشر

﴿ وكلّ إنسانٍ ألزمناه طائره في عُنُقه ، ونُخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾

إن نحن راجعنا تفسير ابن كثير لهذه الآية الكريمة، نلاحظه وقد نقل لنا عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما قوله: (وطائره هو ماطار عنه من عمله من خيرٍ وشرّ، ويُلزم به ويُجازى عليه). وقد استدلّ ابن كثير على مافهمه من روايه ابن عباس استدلّ بالآية الكريمة من سورة الانفطار، التي قال تعالى فيها: ﴿**وإنّ عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ماتفعلون**﴾. وآياتٍ أخرى ممّا لاعلاقة لمضامينها بقول ابن عباس رضي الله عنه. هذا الذي استعمل كلمة «عمله» فيما رُوي عنه، على حين استعمل في الآية المذكورة من سورة الانفطار كلمة ﴿**يعلمون ماتفعلونه**﴾. واللّغويون فرّقوا بين هاتين الكلمتين في الدّلالة.

فقد ورد في الكليّات: العمل يعمُّ أفعال القلوب والجوارح، وإنما كان مع امتداد زمان. نحو: يعملون له مايشاء. وفَعَلَ بخلافه. فالعمل لايُقال إلاّ فيما كان عن فكرٍ ورويّة، ولهذا قُرن العمل بالعلم. حتى قال بعض الأدباء: قُلب لفظ العمل عن العلم، تنبيهاً على أنّه من مُقتضاه. وقال الصفّاني: الفعل أعمّ من العمل لدلالته على أحداث شيءٍ من العمل وغيره (محيط المحيط).

فالفعل في عُرف اللّغويين يدل على حَدَث. ويكنّى به عن حركة الإنسان أو عن كل عملٍ مُتعدٍ. وفي التعريفات: الفعل هو الهيئة العارضة للمؤثّر في غيره، بسبب التأثير أولاً، كالهيئة الحاصلة للقاطع بسبب كونه قاطعاً (محيط المحيط).

فالفعل إذن يدل على الحَدَث. في حين أنّ العمل يعمُّ أفعال القلوب والجوارح، فإن نوى امرؤ شيئاً في نفسه، فلا يُقال أنه فعل نيّة بل عملها. وهكذا ندرك أن لاعلاقة للآية من سورة الانفطار التي استدلّ بها ابن كثير بما أُسند إلى قول ابن عباس، وبالتالي فلا علاقة لها أيضاً بالآية التي نحن بصدد تفسيرها، وسآتي على مايوضّح ماكان يقصده ابن عباس في روايته في الوقت المناسب.

وسبق أن قلت إنّ الله عزوجلّ أجاب في هذه الآية: ﴿**وكلّ إنسان ألزمناه طائره في عُنُقه، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً**﴾. على الاستفسار المُعترض قبلها بشأن الوسيلة التي اتخذّها الخالق سبحان لإحصاء أعمال الإنسان دون حدوث ظُلمٍ ولا إجحاف. فهل نفهم من مضمون هذه الآية الكريمة دلالتها على وجود جهاز إحصائي مهمته إحصاء أعمال الإنسان وأنّ موقع هذا الجهاز في عُنق الإنسان نفسه؟ فلندقّق في معاني ألفاظ هذه الآية الكريمة بتدبُّرٍ وعناية، فكلام الله تعالى مُصاغٌ بغاية الاعجاز لُغةً ومضموناً.

نُلاحظ أنّه تعالى أتى بالواو العاطفة ليعطف جوابه على الاستفسار المذكور، وقال ﴿**وكُلّ إنسانٍ**﴾. فنتوقّف متأملين ومتسائلين أن لماذا لم يقل ﴿**وكلّ مخلوقٍ**﴾؟ وتتجلّى حكمة ذلك في أن المخلوق الذي يُحاسبه ربه هو الإنسان وحده مَن أوتي عقلاً وإرادة. فلا يحاسب من دونه من المخلوقات.

وقد قال: ﴿**وكلّ إنسانٍ ألزمناه طائره**﴾ من ألزم الشيء أثبته وأدامه. أي أثبتنا طائره في عُنُقه. وهذا التثبيت سيدوم إلى يوم القيامة. ونتساءل من جديد: ماهو هذا الشيء الذي ألزمه تعالى في عُنُق الإنسان وسمّاه (طائره)؟ فلندقّق في كلمة طائرة.

قال صاحب معجم (محيط المحيط): الطّائر كلّ ذي جناحٍ من الحيوان. وقد يعني الدّماغ. وماتيمّنت به أو تشاءمت لقوله تعالى في الآية (١٣١) من سورة الأعراف ﴿**ألا إنّما طائرهم عند الله ولكنّ أكثرهم لايعلمون**﴾. ومن معاني الطائر أيضاً: الحظّ، ورزق الإنسان، وعمله الذي قلّده أي الذي يوضع في عنُقه موضع القلاده ويُحاسب عليه من خيرٍ أو شرّ.

ندرك ممّا نقلناه أنّ الطّائر يكنّى به عن عمل الإنسان خيراً كان أو شرّاً. وعليه فمعنى ﴿**وكلَّ إنسانٍ ألزمناه طائره في عنُقه**﴾ أنّ الله عزوجل يلزم كلّ إنسانٍ بما عَمِلَه كالقلادة في عنُقه ويحاسبه على ماعمل من خيرٍ وشرّ.

وهو جلّ شأنه قال ﴿**طائره في عنقه**﴾ فهل أنّ (في) هي بمعنى ظرف أم حرف أم للتوكيد وزائدة. فالغالب أنّها استعملت زائدة ولمجرّد التوكيد ولغير عوض. والقرينة على ذلك كلمة (طائره)، فالطائر مهما كان شأنه لايُلزم في عُنق الإنسان مادّياً، ولايثبّت فيه. ومثال ذلك قوله جل شأنه في مقام آخر من كتابه العزيز: ﴿**اركبوا فيها**﴾ أي اركبوها بلا إبطاء. وهذه الدلالة أجازها النحويّ المشهور أبو علي الفارسي. وبالتّالي يتضّح لنا أنّ قوله تعالى: ﴿**وكل إنسانٍ ألزمناه طائره في عنقه**﴾ فلا يعني هذا وجود جهازٍ في رقبة الإنسان يحصي عليه أعماله. بل يعني أنّ كلّ عملٍ يعمله الإنسان يطير منه أثرٌ وخواصّ تؤثّر في كيانه النّفسي.

وأنّ مجموع ماتتركه أعمال الإنسان من آثار ملزمٌ بها كالقلادة في عنقه خيراً كان أو شراً وستكون هذه الآثار والخواص محور محاسبته على أعماله التي طارت منها هذه الآثار والخواص. وبألفاظٍ أخرى فإنّ الفطرة البشرية تتأثّر قواها بما يطير من عمل الإنسان من أثر وخواص، فتتزكّى أو تتدسّى على حسب نوعيّة الأعمال. مصداق قوله تعالى: ﴿**ونفسٍ وماسوّاها فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكّاها، وقد خاب من دسّاها**﴾.

والله جلّ شأنه، ومن خلال دلالة ألفاظ هذه الصياغة البليغة المعجزة قوله: ﴿**وكل إنسان ألزمناه طائره في عنُقه..**﴾ قد لفت ذهن القارئ إلى وجود قانون طبيعي يعمل على الصّعيدين المادّي والرّوحي. وهو أنّ كلّ عملٍ يترك أثراً لامحالة. فالقطرات من الماء المتساقطة على حجرٍ، تثقبه مع توالي الأيام. والسائق الذي يتعلم السّياقة بجهد ومشقة في بادئ أمره. يعتاد ذلك مع توالي الأيام، فلا يعود يبذل من جهد على قدر مابذله أول أمره. وتكرار الوعظ يفيد في تثبيت المعلومة التي يعظ بها الواعظ، وهلّم جرّاً على الصعيد المادي.

أمّا على الصعيد الرّوحي، فالإنسان الذي يعوّد نفسه على القول الشديد، تتقوّى ملكة الصّدق في نفسه. والذي يعوّد نفسه على الرأفة بالمساكين، تتقوى ملكه رأفته النفسيّة. والذي يُصلي خاشعاً، تخشع نفسه الباطنه مع الأيام وهلّم جرّاً على الصعيد الروحي.

والله عزوجلّ إذ لفت ذهن القارئ إلى هذا القانون الطبيعي، فكأنه قد قال لهذا القارئ بألفاظٍ أخرى: ما الحاجة إلى تثبيت جهازٍ في عُنق كل إنسان ليحصي عليه أعماله، في حال وجود هذا القانون الطبيعيّ، وهو أن كلّ عمل يعمله الإنسان يطير منه أثرٌ وخواص؟ وهذه الآثار والخواص تشهد يوم القيامة على صاحبها الكتاب يلقاه منشوراً؟

أمّا: لماذا أطلق الله عزوجلّ على ماتتركه الأعمال من آثار وخواص كلمة طائره في هذه الآية الكريمة. فانطلاقاً من أنّ العرب كانوا يتطيّرون في جاهليتهم بالأعمال: هل يسوقهم هذا العمل إلى خير أو إلى شرّ؟ وهذا الأمر أتى من خلال تأمّلهم أحوال الطيّور وللإعتبار بها.

فلمّا درج ذلك على ألسنتهم سُمّي الخير والشرّ في لسانهم العربي ابلين (طائراً). فقالوا هذا طائر ميمون وهذا طائر مشؤوم كناية عن عمل العامل منهم. وذلك من خلال تسمية الشيء باسم لازمه ونظيره. وقد نزلت آيات هذا القرآن الكريم متحديّة العرب بنفس محاوراتهم واصطلاحاتهم.

أفلم نقرأ قوله تعالى في الآية (١٨) من سورة يس: ﴿**قالوا إنّا تطيّرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكّم. قالوا طائركم معكم أإن ذُكّرتُم، بل أنتم قوم مسرفون**﴾. وأولم نطالع قوله تعالى في الآية (٤٧) من سورة النّمل: ﴿**قالوا اطيّرنا بك وبمن معك**﴾.وقوله تعالى في الآية (١٣١) من سورة الأعراف: ﴿**وإن تُصبهم سيّئةٌ يطيّروا بموسى ومن معه. ألا إنّ طائرهم عند الله ولكن أكثر الناس لايعلمون.**﴾؟ فجميع هذه الآيات الكريمة تفسّر ﴿**ألزمناه طائره في عنُقه**﴾ بالدلالة التي سبق أن بيّناها. ذلك أنّ القرآن الكريم يفسّر بعضه بعضاً.

وبكلمة مختصرة فإنّ الله عزوجلّ نبّه إلى أنّ لكل عمل اثره الذي يتركه في نفس عاملة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ. وتكون آثار أعمال الإنسان بمثابة غذاءٍ روحيّ للنّفس البشرية. تُزكيّها أو تدسيها. وقد منح الله جل شأنه باب التّوبة والاستغفار، لتساعد هذه التوبة وهذا الاستغفار التّوابين والمستغفرين على مَحْو ماتتركه أعمالهم التي لاترضي ربّهم من آثار سيئة في تكوينهم النفسي الباطن. على شاكله مايفعله الطفل يكتب خطأ ويمحو ماكتبه، مادام حديث السّن خطّاء. أمّا الإنسان الأديب الرّاشد فقلّما يخطئ وقلّما يحتاج في جانبه إلى مِمحاة. ولذلك نلاحظ ربّنا وقد حثّنا على التوبة والاستغفار وقال إنّ الله يحب التوابين ويحبّ المستغفرين في الأسحار. وقال من جهة أخرى: ﴿**قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً**﴾. ومن منطلق أنه تعالى الرحمن الرحيم.

ومادام جلّ شأنه قد عبّر بكلمة طائرهم كنايةً عن الآثار والخواص التي تتركها الأعمال وفق هذا القانون الطبيعي الذي ذكرناه. فقد استوجب ذلك أن يأتي بألفاظ الشطر الثاني من الآية بأسلوب الكناية والاستعارة، لذلك أضاف تعالى يقول: ﴿**ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً**﴾.

فقوله (نخرج له) من أخرج أي أبرز وضدّ أدخل. واللام في (له) للتمليك أي لتصبح آثار أعماله التي بُنرزها يوم القيامة ﴿**كتاباً يلقاه منشوراً**﴾. فالكتاب مصدر سُمِيّ به لجمعه أبوابه وفصوله ومسائله. ومن معاني الكتاب: الفرض، والحكُم، والقدر، والمكتوب (محيط المحيط).

و (يلقاه) من لقيه بمعنى رآه وصادفه واستقبله، أمّا (منشوراً)، فمن نشر الله الموى، إذا أحياهم فكأنهم خرجوا ونُشروا بعدما كانوا مطويين فهذه كلمة كُنّي بها عن هذا المعنى. كذلك نشره معناه بسطه وخلاف طواه. ونشر الأمر أذاعه، فمنشوراً اسم مفعول. وانتشر أي انتصب (محيط المحيط).

ويكون معنى: ﴿**ونُخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً**﴾. نبرز من أجله الآثار المتراكمة عن أعماله الخيّرة منها والشريرة. تلك الآثار التي كانت شبه مطوية في دنياه وخافيةً عن أعينه، نُبرزها وكأنها كتاب يراه مُنتصباً أمام عينيه.

وبإمكاننا الآن تلخيص هذه الإجابة التي تضمّنتها هذه الآية الكريمة، والمتعلّقة بالاستفهام عن الوسيلة الإحصائية المـُقدّرة لإحصاء أعمال الإنسان إحصاءً لايتطّرق إلى عدالته شك.

فأقول: وضّح لنا الله عزوجلّ أنّ لكلّ عملٍ يعمله الإنسان في هذه العاجلة أثر يتركه في نفس صاحبه سلباً أو إيجاباً. لذلك تظل نفس هذا الإنسان عُرضةً لهذه المؤثّرات. فإذا مامات، عادت هذه الآثار مجتمعةً سمته كالعقد في عنُقه لاتفارقه في حياته البرزخية. إلى أن يأت يوم القيامة. فيبرز الله عزوجلّ لكل إنسانٍ هذه الآثار مجتمعةً، نيرانيّةً كانت أو نورانيّة، وكأنّها كتاب قد أحصى عليه جميع ماعمله، في دنياه. فهذا ما أراد ابن عباس رضي الله عنه توضيحه من خلال ما رُوي عنه قوله في تفسير ابن كثير: (وطائره هو ماطار عنه عن عمله خير وشرّ، ويُلزم به ويُجازى عليه). وهو القول الذي لم يستوعب ابن كثير رحمه الله دلالته العلمية المرتبطة بالقانون الطبيعي الذي ذكرناه. مُفسِحاً المجال لأعداء الإسلام مجال الطعن في تعاليم هذا القرآن الأقوم. حتى وراح بعضهم يسأل: كم سيكون حجم هذا الكتاب المنشور فيما لو عاش امرؤ مائة عام؟ وبأيّة لغةٍ سيكون مكتوباً؟ وهل بإمكان إنسان آخر يقف على بعد عشرات الأمتار أن يقرأه؟ وأمثالها من الاعتراضات الواردة على هذا المعنى الظاهريّ الذي أخذ به ابن كثير وغيره من المفسّرين، رحمهم الله تعالى.

ولنلاحظ أنّه جلّ شأنه ما إن انتهى من إجابته لعلميّة البلاغيّة المعجزة تلك، إلا وأضاف مخاطباً هذا الإنسان الذي سيحصد آثار ما أقدم عليه من أعمالٍ في حياته الدنيوية وقال:

الآيــة الرابعــة عشــر
﴿ إقرأ كتابك ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾

فقوله: إقرأ من قرأ الكتاب: تلاه، أي هذه آثار أعمالك أيها الإنسان التي عملتها في دُنياك، ماثلةُ أمام عينيك، وتراها رؤيا العين فتأملها وتفحّصها، فهي الوسيلة لإحصاء ماسبق أن عملت. وهذه الآثار قد تأثّر بها كيانك النّفسي، وأضاف قائلاً: (كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً). وحسيباً من حَسِبه إذا عدّه. أي هاك عُدّ ما ألحقت بنفسك من آثارٍ خيّرةٍ وآثارٍ ضارّةٍ بها. فهل تُلاحظ في هذه الوسيلة الإحصائية المكلّفه بإحصاء أعمالك أيّ خللٍ أو ظلم؟ فهذه نفسك تكفيك شاهداً على جميع أعمالك بما لحقها من تلك الآثار. (راجع نظرية جذور الأخلاق. ومبحث العرفان الإلهي من كتاب «الله»).

وبعد هذا الخطاب، عاود الله جلّ شأنه كلامه عن أصل موضوع سورة الإسراء، فعاد يخاطب بني إسرائيل الذين كذّبوا رسوله محمداً (ص) وراحوا يمكرون به وبدينه، وقال يغمز جانبهم:

الآيـة الخـامسـة عشـر

﴿ من اهتدى، فإنّما يهتدي لنفسه، ومن ضلَّ، فإنّما يضلُّ عليها، ولاتزر وازرةٌ وِزْرَ أخرى، وما كُنّا مُعذّبين حتّى نبعث رسولاً ﴾

أي عاد الله جل شأنه يذكّر بني إسرائيل من أنّه فتح لهم باب الرّجاء حين قال: ﴿وعسى ربّكم أن يرحمكم وإنْ عدتم عُدنا وجعلنا جهنّم للكافرين حصيرا﴾. وهذا الباب أن يهتدوا من جديد، من خلال إيمانهم بمحمد رسول الله وبتعاليم هذا القرآن التي هي الأقوم من تعاليم التوراة. وذلك الرّجاء فتحناه لكم كباب إن دخلتموه، كُتبت لكم النّجاة من عذاب جهنّم التي توعّدناكم بها، وهو تعالى أضاف قائلاً: ﴿من اهتدى﴾ أي من آمن بهذا الرسول وكتابه ورشد، ﴿فإنما يهتدي لنفسه﴾ أي يقطف هو بنفسه ثمار رشده.

﴿ومن ضلّ﴾ أي أن الذي انحرف عن هذا الطّريق، ﴿فإنّما يضلّ عليها﴾ أي يضلّ وتحصد نفسه آثار ضلالته. ووضّح جل شأنه قانونه السّماوي العادل في هذا المجال وقال: ﴿ولاتزرُ وازرةٌ وِزْر أخرى﴾ أي أنّ كُلّ نفسٍ بما كسبت رهينة.

ولابدّ لكلّ إسرائيلي يبلغ هذه النقطة من بيان هذه الآية الكريمة أن يتساءل في حديث نفسه: أيّ عذابٍ قادمٍ سيحلُّ بنا أن رفضنا قبول الإسلام؟ ويجيبه ربّه من فوره: لن نُنزل بني إسرائيل هذا العذاب الجهنّمي المنذر به ﴿حتى نبعث رسولاً﴾. ذلك ماتُفيده (حتّى) التي اشتمل عليها هذا الجواب. فحتّى تفيد انتهاء الغاية، فهي تشابه حرف (ثمّ) في التّرتيب. إنّما تكون المُهلة الزّمنية الدّالة عليها مرتبطةً بما في ذهن المتكلم من علم (محيط المحيط).

ولنضع في حُسباننا أنّ في ثنايا قوله عزوجلّ ﴿حتى نبعث رسولاً﴾ الإشارة إلى مثيل المسيح الذي يبعثه الله تعالى يوم ظهور الدّجال الذي يساعد اليهود من خلال وعد بلفور للعودة إلى فلسطين. هذه الأمور التي توسّعتْ في شرحها الآيات الأواخر من هذه السورة، والآيات الأواخر من سورة الكهف.

ولم يكتف الله جل شأنه بذكر بالإشارة التي أتى على ذكرها، بل وشاء أن يُعطي فكرة ولو مُجملةً عمّا سيحدث يوم يبعث رسولاً في المستقبل. لذلك أتى بالواو العاطفة، وأدخلها على (إذا) الشرطيّه وقال:

الآيـة الســادســة عشــر

﴿وإذا أردنا أن نُهلك قريةً، أمرنا مترفيها، ففسقوا فيها، فحقَ عليها القول، فدَمرناها تدميراً﴾

فالقرية تعني كلّ مكانٍ مأهول بالسّكان اتّصلت أبنيته. وفسقوا من فسق أي تمرّد على أمر ربّه. ودمّرناها أي أهلكناها، فهو جلّ شأنه يقول أنه حالما نبعث رسولاً في المستقبل وهو المُنبأ عن بعثته في سورة الجمعة وسورة الكهف وغيرها من سور هذا القرآن الأقوم، نفعل حينذاك على حسب ماكُنّا نفعله في غابر الزّمان كلّما بعثنا رسولاً. وهو أنّ المقصد من بعث الرّسل أن يكونوا مبشّرين ومنذرين الناس الذين غفلوا عن وجود ربّهم، ومالوا إلى نعيم الدنيا وترفها، وكأنّ الترف عاد في نظرهم هو المقصد من وجودهم في هذه الدنيا. فنبعث رسولاً يبشّر أهل هذه القرية المترف أهلها والتي تمادت في ترفها إلى حدٍ استحقت معه الإهلاك والتّدمير. **﴿فأمرنا مترفيها﴾** أي أمرناهم بما ينقله إليهم رسولنا من أوامر.

وأتى تعالى هنا بفاء الاستئناف وقال **﴿ففسقوا فيها﴾** أي أنّهم تمادوا في غيّهم وعِصيانهم عِوضاً عن أن يستجيبوا لأمرنا. وأتى بفاء الاستئناف ثانية وقال **﴿فحقّ عليها القول﴾**. وقد أتى جل شأنه بلفظ القول هنا مُعرّفاً بالألف واللاّم أي حقّ على أهل هذه القرية المترفين ـ ويقصد هنا المجتمعات المسيحية المعاصرة التي أعادت اليهود إلى فلسطين ـ حقّ على أهلها قولنا المعهود آنفاً وهو **﴿وماكُنّا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾** المشار فيه إلى نفس هؤلاء. المنذرين من اليهود خاصة ثم أتى جلّ شأنه بفاء الاستئناف للمرّة الثالثة وقال: **﴿فدّمرناها تدميراً﴾** أي أهلكناها فجأة إهلاكاً لارجعة لهم فيها بعده. وهذه الألفاظ ترد في سورة الكهف فمن قوله تعالى: **﴿وإنّا لجاعلون ماعليها صعيداً جُرُزاً﴾**. وفي سورة طه ضمن قوله تعالى: **﴿ويسألونك عن الجبال، فقُل ينسفها ربي نسفاً، فيذرُها قاعاً صفصفاً. لاترى فيها عِوجَاً ولا أمتاً. يومئذٍ يتبّعون الدّاعيَ لاعِوَجَ له، وخشعت الأصوات للرحمن، ولاتسمع إلاّ همساً﴾**. طه (١٠٦ ـ ١٠٩).

فما أعظم هذا الترابط الموضوعي القرآني، وما أبلغ دلالات آياته، وهل باستطاعه إنسٍ أو جنٍ أن يأتوا بأكثر إعجازاً ممّا أتت به هذه الآيات من دلالات؟

والعظيم أيضاً أنّ الله عزوجلّ لم يكتف بما أجاب به على الاستفهام المذكور قبله. بل وشاء تذكير بني إسرائيل بهذا القانون المتعلق بإرسال المرسلين. لذلك لفت أنظارهم إلى الأحداث التي حدثت مابين زمن نجاة نوح من الطوفان، وهو جدّهم الأعلى، ومابين بعثة موسى وهو نبيّهم المعروف. فكان الله تعالى قد بعث خلال تلك الفترة الزمنيّة عدّة رسلٍ شابه حال زمن كلّ واحدٍ منهم حال أمم المسيح الدّجال ترفاً وفسقاً وفجوراً.

خصوصاً وأنّ أمر تاريخ أولئك الرّسل وأممهم معروف لدى بني إسرائيل. لذلك أتى جل شأنه بالواو العاطفة ليعطف ماسيذكّرهم به على ما أجاب عليه، مُدْخِلاً هذه الواو على حرف (كم) الاستفهامية التي لايحتمل خبرها إلاّ التّصديق وبمعنى كم عدد على حسب ماورد في (محيط المحيط) وقال:

الآيــة الســابعــة عشــر

﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوحٍ ، وكفى بربّك بذنوب عباده خبيراً بصيراً﴾

فقوله ﴿**من القرون**﴾ أي من الأمم التي هلكت فلم يبق منها أحد. وللقرن دلالته أيضاً على مائة عام (محيط المحيط) أي مالكم يابني إسرائيل لاتعتبرون بهذه الأمم التي شابه حالها، حالكم، وكُنا أهلكناها بحيث لم يبق أحدٌ من أفرادها المكذبين حتى هذه الأيّام. أفما طالعتم في كُتبكم أسماء تلك الأمم وأحوالها وماحلّ بها من دمار؟

ثم أتى جل شأنه بالواو العاطفة وقال ﴿**وكفى بربّك بذنوب عباده خبيراً بصيراً**﴾. وهذا الخطاب المعطوف موجّه هنا إلى محمّد وأمتّه بدليل قوله ﴿**بربّك**﴾ والمعنى أنّ ربّك يامحمّد يكفيك أي يُغنيك عن هؤلاء ويحميك من مكرهم وشرورهم. من كفى الشيء يكفي كفاية أي يُغني.

وقدّم جل شأنه الدّليل على كفايته لمحمد وأمته من خلال ما أنهى به هذه الآية وهو قوله: ﴿**بذنوب عباده خبيراً بصيراً.**﴾. أي أن دليلنا الذي نقدّمه لك يامحمّد، هو أن ربّك

بذنوب عباده (خبيراً) أي عالم بخبرها. و (بصيراً) أي ذو بصيرة فربك يُبصر مايمكره هؤلاء اليهود ويحيكونه من مؤامرات ضدّ هذا الدّين ورسوله وربك والحال هذه يكفيك ويغنيك. فلا تدعهم يحقّقون ما يصبون إليه.

وهكذا يكون الله جل شأنه قد أجاب من خلال هذه الآيات الثلاث على الاستفسار الذي يخطر ببال كلّ يهودي. ويتعلق بوعيد عذاب جهنّم المستقبلي الذي سيواجهه بنو إسرائيل إن هم لم يستفيدوا من باب الرّجاء المفتوح لهم ببعثة محمد (ص) هذا الرجاء الذي تضمّنته كلمة (عسى)، وإن هم لم يؤمنوا بهذا الدين الإسلاميّ.

وهنا راح جل شأنه يلفت أذهان هؤلاء اليهود إلى قانون قدريّ مسنون يحدّد علاقة إرادة الله تعالى بإرادة أيّ إنسان أو أيّة أمّة من الأمم. منبّهاً جل شأنه إيّاهم إلى أن علاقته بكلّ أمّة خلت. لم تتجاوز حدود هذا القانون. لذلك لابدّ أن تظهر نفس أعراضه يوم تظهر أمّة المسيح الدّجال، وتمدّ يدها لليهود، وتريد ترف زينة هذه العاجلة. لذلك أضاف تعالى يقول:

الآيــة الثــامنــة عشــر

﴿ من كان يُريد العاجلة ، عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ﴾

أي أنّه كما يمنح كلّ إنسانٍ عقلاً وإرادة ويسعى لما يشاء فعله. كذلك لله خالق هذا الإنسان إرادته ومشيئته. وهو الذي وهب الإنسان عقله وإرادته، وتركه حُرّاً يفعل مايشاء فعله ابتلاءً من جانب ربّه وامتحاناً. لذلك فنحن سننّا قانوناً لنحدّد علاقتنا بهذا الإنسان المخلوق لننظر: ﴿**من كان يُريد العاجلة، عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد**﴾ أي يسّرنا له وسائل التّرف والمجون التي أرادها في هذه الدّنيا. إنّما نيسّر له ذلك بما لايتصادم مع مانشاؤه وبما لايتصادم مع مانريده أيضاً ذلك أن الأمر كله بأيدينا. والعطاء كله من عندنا.

وأتى بعد ذلك بحرف (ثمّ) الذي يفيد الترتيب، وقال: ﴿**ثم جعلنا له جهنّم يصلاها مذموماً مدحوراً**﴾. أي أنّ مشيئتنا وإرادتنا تقتضي دوما أن ندع هذا الذي يحبّ العاجلة. ندعه

يُكثِر من ارتكاب الذنوب والآثام إلى أن يعود مستحقّاً عليها عذاب جهنّم. فهذا ما أشار إليه تعالى من خلال قوله ﴿**ثم جعلنا له جهنّم**﴾. وأضاف يقول: ﴿**يصلاها**﴾ أي تكون مثواه الأخير ﴿**مذموماً**﴾ أي مُلاماً على ميله إلى هذه العاجلة ونُسيانه المقصد من حياته، ومُداناً أي ملقاة حُجّة الله تعالى عليه. و ﴿**مدحوراً**﴾ أي مطروداً مُبعداً عن رضا ربّه ورضوانه.

ثم أتى جل شأنه بالواو العاطفة ليعطف ماسيُكْمِل به بيانه فيما يتعلّق بهذا القانون القدريّ المسنون وقال:

الآيـة التـاسـعة عشـر

﴿ **ومن أراد الآخرة، وسعى لها سيعُها وهو مؤمنٌ، فأولئك كان سعيُهم مشكوراً** ﴾

أي وأنّ الشّطر الآخر من هذا القانون الذي استنتّاه لتحديد علاقتنا بأعمال كل إنسان، وهو أن نشكر سعي من أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن. فكلمة مشكوراً من شَكَرَهُ أي أثنى عليه. والشّكر من الله على العبد يعني مجازاته على عمله الصّالح. أي يُثني عليه بقبول إحسانه الذي هو طاعته (محيط المحيط).

وقد لخّص جلّ شأنه الجانب المادّي من مضمون هذا القانون المذكور وقال:

الآيـة العشـرون

﴿ **كـُلاً نُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربّك ، وماكان عَطاءُ ربّك محظوراً** ﴾

فهو تعالى نوّن (كلاً) ليستعيض بالتنوين عن المضاف إليه. وقال (نُمدّ) بمعنى نُغيث. فالمدّ يستعمل في الخير والشرّ، على حين أن الإمداد لايستعمل إلاّ في الخير. فعلى حين ورد قوله تعالى في الآية (٧٩) من سورة مريم: ﴿**كلاّ سنكبت مايقول، ونُمدّ له من العذاب مدّاً**﴾. فقد قال في سورة الطور: ﴿**وأمددناهم بفاكهةٍ ولحمٍ ممّا يشهون**﴾. ثم إنّ (العطاء) هو مايعطيه الله تعالى الإنسان من أسباب زينة الحياة الدنيا وزخرفها. أمّا (محظوراً) فمن حظره عليه أي حال بينه وبين شيء محظور عليه.

والمعنى أن لاتظنّوا أنّ الله تعالى، قد حظر ومنع على الصعيد المادي إغاثة أحدٍ من النّاس والتّوسيع عليه من أسباب زينة الدنيا وزخرفها لمجرّد كونه لم يؤمن بالله وبهذا الرّسول محمد (ص). فلا ينصّ قانوننا القدري المسنون على ذلك لكون الله الخالق هو ربّ الناس جميعاً، وليس هو ربّ المؤمنين وحدهم من دون النّاس. فنحن نمدّ أي نُغيث كلا الفريقين المؤمن منهم والكافر على شاكلة مايغيثك ربّك يامحمد ويعطيك. وماكان في هذا القانون الذي استنّناه مادّة تمنع هذا العطاء الإلهي عن أحدٍ من النّاس. فهذا ملخّص مانصّ عليه القانون المذكور على الصعيد المادي.

أمّا على الصعيد الروحي فالأمر مختلفٌ تماماً. فنحن عندما قلنا: ﴿**ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيُها، وهو مؤمن، فأولئك كان سعيُهم مشكوراً**﴾. فلا يظننّ بنو اسرائيل أنّ (مشكوراً) لاتعني إلاّ مجرّد كلمة شكرٍ نوجّهها إلى الذي يؤمن بي وبرسولي بل هيّا.

الآيــة الــواحـــدة و العشـــــرون
﴿ أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض، وللآخرة أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلاً ﴾

فقوله (أنظر) من نظره أي أبصره وتأمّله بعينيه. أمّا (كيف) فهو حرف استفهام حقيقي في محل مفعول مُطلق. هذا على شاكلة مايقول تعالى في سورة الفيل: ﴿**ألم تَرَ كيف فعل ربّك بأصحاب الفيل**﴾. و (فضّلنا) من فضّله على غيره، إذا جعل له مزيّةً عليه، وحكم له بالفضل وصيّره أفضل من سواه، وحرف (على) هنا للاستعلاء أمّا كلمة (بعض) أي طائفة من كلّ شيء، وقيل جزءٌ منه أعظم من بقيّته كالثمانية من العشرة مثلاً، والبعض لايتجزّأ، وهو اسم لجزء تركّب الكلُّ منه.

وعليه فمعنى الآية هذه أنّ الله تعالى يُخاطب فيها هؤلاء اليهود خاصّة يشرح لهم علاقة إرادته تعالى ومشيئته، بإرادة ومشيئة الإنسان على الصعيد الرّوحي قائلاً: مالك أيّها الاسرائيلي تَعْمى عمّا يجري حولك من أمور، فهيّا انظر أي أبصر وتأمّل بعينيك هاتين تصرّف ربّك الذي يتصرّفه مع فريق المؤمنين الذين آمنوا بي وبرسولي وبهذا القرآن الأقوم. انظر كيف فضّلهم على الذين كفروا بي وبرسولي وبهذا القرآن الأقوم، وميّزهم في المعاملة عليهم، فهو

يؤيّدهم بعنايته وينصرهم عليهم ويخصُّهم بوحيه وكلامه وببشاراته، وعليكم أيضاً يابني اسرائيل أنتم الذين كنتم تتفاخرون على هؤلاء العرب أنكّم أصحاب كتاب سماويّ. فها أنتّا ميّزنا هؤلاء العرب المؤمنين عليكم، فعادوا يتفاخرون عليكم بهذا القرآن الأقوم تعليماً من تعاليم كتابكم. فهذه هي ظواهر شكري لسعي من أراد الآخرة وسعى لها سعيُها وهو مؤمن وهو معنى ﴿**فضّلنا بعضهم على بعض**﴾. ولنلاحظ أن الله عزوجلّ وقد أتى هنا بكلمة (بعض) فليكون في منتهى الدّقة في تعبيره. فليس كلّ المؤمنين سواء في نظر ربّهم، ذلك أنّ منهم المنافق ومنهم ضعيف الإيمان، ومنهم قويّه الذي لايخشى في الله لومة لائم.

ثم أضاف جل شأنه يقول: ﴿**وللآخرة أكبرُ درجاتٍ وأكبرُ تفضيلاً**﴾. أي لاتظنّوا أنّ شكرنا المُعدّ هذا المؤمن مقتصرٌ على الفروق التي لفتنا النّظر إليها، والتي تحدث في هذه الحياة الدنيا، بل وفي الآخرة ستبدو فروق بين المؤمن والكافر أكبر من هذه الفروق. وتبدو فروق التفضيل بينهما أعظم منها بكثير وأكبر تفضيلاً. والسّر في ذلك اختلاف ماهية الحياة الآخرة عن ماهية الحياة الدنيا المادّية. وعلى هذه الصّورة يكون الله جل شأنه قد حثّ المؤمن من خلال قوله هذا على مضاعفة جهده وبذله سعياً وراء الحصول على هذا التفضيل الأكبر، في الحياة الآخرة أيضاً.

وقد تعرضت كتب الحديث للكلام عن هذه الفروق، فأوردت أحاديث بهذا الخصوص، أضرب صفراً عن ذكرها لكونها تخوض في غمار أبحاثٍ متعلّقةٍ بماهيّةٍ لانملك لإدراكها مُعطيات كافية ومعلومات تساعد على بحثها بحثاً علمياً وموضوعياً. ويكفي أن أشير إلى أنّ كتاب مسلم، الجزء الرابع، كتاب الجنّة ونعيمها، اشتمل على هذا النوع من الأحاديث.

وبعد أن انتهى جل شأنه من توضيح أهمّ جوانب هذا القانون القدريّ المسنون، والذي أتى على ذكره في الآيات الثلاث السّالفة الذّكر، الآيات التي اشترط فيها من جُملة ما اشترط أن يكون السّاعي للآخرة مؤمناً. فقد اقتضى هذا الشرط الإيماني التبسّط من جانبه تعالى في شرحه. ذلك لأنّ جُملة ﴿**وهو مؤمن**﴾ وردت بحاجة إلى هذا الشّرح الذي يتشوّق كلّ إنسانٍ يسعى لخير الآخرة أن يُلّم به إلماماً يُساعده في سعيه المذكور. لذلك راح جلّ شأنه يعدّد الأمور الإيمانية المطلوبة بتدّرجٍ منطقيٍ مُنطلقاً في ذلك كلّه من المحور الإيماني الذي تدور حوله تلك الأمور، فقال:

الآيــة الــثانيـــة و العشــــــرون
﴿ لاتجعل مع الله إلهاً آخر فتقعُد مذموماً ﴾

أي أنّ الذي اشترط عليك أيها اليهود، شرط الإيمان، المذكور هو الله تعالى ربّك، وهـو الذي أنزل هذا القرآن الأقوم تعليماً من تعاليم التوراة.

وشرط الإيمان به ألاّ تصطنع من فكرك إلهاً تضمّه إلى جانب إيمانك بهذا الإلـه الحقيقي الأحد. فهذا ما أفاده حرف (مع) الدّالّ على ضمّ شيءٍ إلى شيء. ثم إنّ الإله اشتُقّ من ألوَلَـه وهي المحبّة. ويكون الله عزوجلّ بقوله هذا عن محبّة أيّ وجودٍ آخر سواه حُبّاً حقيقياً. فـالله هو المحبوب الحقيقي، ولاتنبغي محبّةٍ لوجود آخر سواه إلاّ حُبّاً في الله وليس حبّاً مستقلاً عـن محبته عزوجلّ. وعليه فإنه جل شأنه إذ قال: ﴿لاتجعل مع الله إلها آخر﴾، فقد نهى مـن خـلال قوله هذا عن ارتكاب إثم الشرك بنوعيه الجليّ والخفيّ الذي وقع فيه هؤلاء اليهود خاصة.

ومن ثمّ أتى جل شأنه بفاء الاستئناف فوضّح المصير الذي يؤدّي إليه الشّرك بالله تعـالى وقال: ﴿فتقعد مذموماً مخذولاً﴾. إنّ كلمة (فتعقد) من قعد الرجل: جلس، والقعود هو التقـال من عُلُوٍ إلى أسفل، والجلوس عكسه، تقول: جلس على العرش أي ارتفع إلى مكانـة الصّـدارة. وعليه فإنّ القعود والجلوس لفظان يُكنّى بالأول منهما عن التنزّل والانحطاط. ويُكنّى بالجلوس عن التقدّم والازدهار (محيط المحيـط). وعليـه فقـد وضّـح الله جـل شـأنه للإنسـان هنـا حقيقـةً تاريخيّةً لايمكن إنكارها. فلم يُحدث أن أشرك قومٌ من الأقوام بـالله عزوجـلّ، وتقـدّم بالتـالي وازدهرت أحواله. بل إنّ الشّرك بالله كان يشـكّل على مـدى تـاريخ الإنسـان معولاً هدّاماً، يؤدّي بمعتنقه إلى التـنزّل والانحطـاط. وقـد كـان توحيـد الله تعـالى هـو أسـاس تقـدّم الشّعوب وازدهارها على الدّوام. فهذه حقيقة تاريخيّة يصعب على البـاحث إنكارهـا. هـذا، ولـو كـان المسلمون المعاصرون مُـبرّئين مـن أنـواع الشـرك، لاستحال أن يتخلفّـوا عـن ركـب الحضـارة والازدهار. وإشارةً إلى هذه الحقيقة التاريخية أورد الله جل شأنه كلمة (فتقعُد) كناية عن أنـّك أيها الإنسان إذا أشركت بالله تعالى تكون قد وضعـت أقدامـك علـى طريـق التنزّل والتخلّـف والانحطاط. وتصبح في نهاية أمرك ﴿مذموماً مخذولاً﴾. فما هي دلالة هذين اللّفظين؟

﴿**مذموماً**﴾ من الذّم وهو اللّوم وخلاف المديح، يُقال به ذموم أي عيوب. أمّا كلمة ﴿**مخذولاً**﴾ فمن خذله أي أسلمه ليُعذّب وخيّب رجاءه، وترك نُصرته وعونه. ومعنى خذل الله العبد، أضعفه و لم يعضُده. (محيط المحيط).

فهذه الألفاظ ﴿**فتقعُد مذموماً مخذولاً**﴾ استعملت كنايات تعبّر عن التخلّف والتنزّل والإنحطاط، المتأتّي عن الشّرك بالله تعالى. هذا التخلّف والانحطاط الذي يجلب ملامة النّاس من جهة. كما يجلب غضب الله تعالى الذي يُسلم هذا المُشرك ليُعذّب بأيدي غيره، فلا يعود يؤيّده، ولايعود ينصُره، ويدعه ليُهان في أعين سواه، ويخيّب رجاءه بربّه أيضاً. فالمشرك لاينجو من العقاب.

ألا إنّ الله تعالى إذ عرض هذه الحقيقة التاريخية في هذا المقام. وإن وردت ألفاظُها عامّة شاملة. إلا أنّها، ووفقاً لتسلسل الآيات الموضوعي، فإنّه تعالى يلمز جانب بني اسرائيل فيها مذكّراً إيّاهم بما طلبه تعالى منهم على لسان موسى في الاصحاح ٢٠/٣ من سفر الخروج وقال: ﴿**لايكُن لك آلهةً أُخرى أمامي: لاتصنع لك تمثالاً منحوتاً، ولاصورةً ممّا في السّماء من فوق، ومافي الأرض من تحت، ومافي الماء من تحت الأرض، لاتسجد لَهُنّ ولاتعبُدهُنّ، لأنّي أنا الرّب إلهُك، إلهٌ غيّورٌ أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء..**﴾. وقد سبق لي أن أوردت التحذير الذي أوردته التوراة المعاصرة على لسان إرميا النّبي في سفر إرميا ١١/٩ـ١٤، والذي وضّح بصورة جلية أنّ قومه بنو إسرائيل تناسوا هذه الوصيّة الإلهية وعادوا مشركين. فإرميا قال في السفر المذكور: (لذلك هكذا قال الرّب: ها أنذا جالبٌ عليهم شرّاً لايستطيعون أن يخرجوا منه، ويصرخون، فلا أسمع لهم.. لأنّه بعدد مُدُنك صارت آلهتك يايهوذا. وبعدد شوارع أورشليم وصنعتم مذابح للخزي، مذابح للتبخير للبعل. وأنت ــ يا إرميا ــ فلا تُصلّ لأجل هذا الشعب، ولاترفع لأجلهم دُعاءً ولا صلواة..) أي أنّ الشّرك الذي ابتُلي به هؤلاء اليهود أدّى بهم إلى التخلّف واللّوم ورفع عنهم تأييد الله ونصرته. وهو المصير الذي شهدت به السّنوات الأخيرة من حياة بني اسرائيل.

وبعد أن تبسّط جل شأنه في كلامه عن محور الإيمان، وهو ضرورة الابتعاد عن الشّرك بجميع أنواعه. نبّه إلى أنّ التّوحيد الفكري المجرد عن مُقتضياته العملية ماهو بإيمان. بل إنّ هذا الإيمان الفكري يحثّ على إطاعة الله تعالى وعلى عدم معصية أوامره. وليحسب صاحب هذا الإيمان الفكري من السّاعين سعي الآخرة وليكون سعيه عند ربّه مشكوراً.

ويتساءل هذا الإنسان بالبداهة عمّا يأمره الله تعالى به من أوامر ليستجيب لربه ويعمل عليها. وراح تعالى فأتى بالواو العاطفة وقال مُجيباً على هذا السؤال وموضحاً ما يأمر به، وقال:

الآيـة الـثالثـة و العشـــرون

﴿ وقضى ربُك ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه ، وبالوالدين إحساناً ، إمّا يبلغَنّ عندك الكِبَر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقُل لهما أفٍ، ولاتنهرهما ، وقل لهما قولاً كريماً ﴾

قوله تعالى ﴿**وقضى ربـّك**﴾ من قضى إليه الشيء أعلمه وبيـّنه. وقضى الأمر عليه ألزمه به وأوجبه وحتّمه. أي أنّ الله تعالى هو ربـّك أيـّها الإنسان فهو يطوّرك من حالٍ إلى حال. لذلك فإنـّه جل شأنه يلزمك ويوجب عليك من منطلق ربوبيّته هذه ويحتّم عليك ﴿**ألاّ تعبدوا إلاّ إيـّاه**﴾. فما معنى ﴿**ألاّ تعبدوا إلاّ إياه**﴾؟ معناه أن أيـّها الإنسان حَذار أن تطيع أو تخضع أو تتذلّل أو تخدُم أو تلتزم بشرعٍ غير ماشرّعه الله بصالحك في هذا القرآن الأقوم تعليماً، وكن من الذين يوحـّدون ربـّهم ولايشركون به أحداً. فهذا مايفيده لفظ عَبَدَ. ولاتتنافى هذه المعاني مع قوله تعالى من سورة النّساء ﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وأولي الأمر منكم**﴾. ذلك أنّ إطاعة الله تعالى هنا يأتي في الصّدارة. فلا يُطاع مادونه خلاف ماتقتضيه طاعته عزوجلّ.

والذي يحدث في عالمنا الدنيوي أنّ الإنسان ينشأ ويترعرع في أحضان نظامٍ أسرويٍ يحكمه والدان، وقد يكونا غير مؤمنين بوجود الله تعالى وبالتالي فلا يكونان عابدين إيـّاه عزوجل. فالإنسان الذي يؤمن ويُلزم بالعمل على قوله تعالى ﴿**ألاّ تعبدوا إلا إيـّاه**﴾، لابدّ وأن يحاور نفسه فيسأل عن الموقف الذي ينبغي أن يقفه من والديه.

وبما أنّ كلام الله تعالى يتّصف بالتّسلسل المنطقي. فقد أخذ الله تعالى تساؤل هذا الإنسان بعين اعتباره وقال ﴿**وبالوالدين إحساناً**﴾. وكأنـّه جلّ شأنه يجيب ويقول هنا: أنا الذي أبدعت هذا النظام الأسروي منذ بعثت آدم وقلت له ﴿**اسكن أنت وزوجك الجنـّة**﴾، ونظّمت بذلك قانون التّناسل كيلا ينقطع نسل البشر. لكنّي لم آمر أولاد آدم أن يطيعوا بما يُغاير واجب عبادتي، بل وبالوالدين إحساناً وحسب.

فالواو أتى بها جلّ شأنه ليعطف هذا الأمر على ماقبله. وأتى بالباء لتفيد الإلصاق. أي لتفيد إحساناً بالوالدين. واللذين هما الأب والأم من باب التّغليب وإلا فإن الوالد يجمع على والدون. والأم تجمع على والدات.

وقال وبالوالدين ﴿**إحساناً**﴾ وليس إطاعة من نوع العباده. فما معنى (إحساناً)؟ الإحسان من حُسن أي جَمُل فهو حسين. فحسنه جعله زينةً له وحُسناً. أمّا حاسَنَه أي غالبه في الحسن، ولاطفه وعامله بالحسنى. فإن حوّلنا فعل حَسُن اللاّزم إلى فعل متعدٍ، قلنا أحسن إليه. أي أتى في سلوكه مع والديه بالأمور الحسنة قولاً وعملاً. فلا يرفع صوته فوق صوتهما، ولايفجرُ في وجهيهما، فإن التزم بهذا النّهج ولاطف والديه وهو يحاورها، فقد عُدّ مُطيعاً لله وعابداً إيّاه وموحّداً، وساعياً لآخرته وكاسباً شكر ربّه، ومُتجنّباً سبيل التخلّف والانحطاط.

ثم إنّ الله تعالى قدّم هنا ذكر الوالدين وإلا كان ينبغي أن يقول وإحسانك بالوالدين، والحكمة من هذا التّقديم للتدّليل على أهميّة موضوع الإحسان إلى الوالدين، لارتباط ذلك بالنظام الأسروي الذي ابتدأه الله تعالى بآدم عليه السلام وألزم به جميع أنبيائه ورسله الكرام.

وقد راح جلّ شأنه يزيد الإنسان بياناً وشرحاً عمّا قصده من الأمر بالإحسان إلى الوالدين فحدّد ذلك في خمسة أمور وقال:

أولاً - ﴿إمّا يبلُغنّ عندك الكِبَر أحدهما أو كلاهما فلا تَقُل لهما أُفٍ﴾.

فأتى جلّ شأنه بحرفين شرطيين مُدغمين هما إنْ وما تأكيداً من جانبه تعالى لمعنى الاشتراط. كما استعمل كلمة (أفٍ) وهي كلمة تضجّر وتكرُّه، حيث يُقال هو رجلٌ أفّاف أي كثير التأفّف والتضّجر. والأفّ قلامةُ الظفر ووسخه. وأفٍ ترد بمعنى تُفٍ تُقال عند ذّم أحد وانكار فعله ويُضرب به المثل في الحقارة (محيط المحيط).

ثم إنّه تعالى حين قال ﴿**إمّا يبلغنّ عندك**﴾ فعِنْدَ استُعملت هنا بمعنى الاعتقاد والحكم. أي إن اعتقدت وحكمت أنّ والديك باتا شيخين، كبيرين أحدهما أو كلاهما، فهذا سنّ الاحترام والتوقير وليس سنّ الشباب الذي يحتمل التضّجر ممّا يُسكت عليه.

وعلى هذه الشاكلة راح الله تعالى يشرح الإحسان المطلوب من الأبناء تجاه والديهما فينبّه إلى أنّ كلّ تأفّف وتضجُّرٍ من تصرُّفات الوالدين لايدخلُ في باب الإحسان إليهما، بل يدخل في باب تحقيرهما وجحود إحسانهما على هذا الإبن المتأفّف. على اعتبار أنهما كانا السّبب المباشر لوجوده. وإنّ تأفّف هذا الإبن من هذا السّبب المباشر لوجوده يعني بألفاظٍ

أخرى تأفّفه وتضجّره وتحقيره للسّبب غير المباشر والذي هو الله خالقه عزوجلّ، الـذي ابتـدع نظام السّبب المباشر وهو تولّده من والدين.

وعليه فإنّ التأفّف من الوالدين هو في حقيقته تأفّفٌ من صنع الله عزوجلّ. فالمتأفّف من تصرُّفات الوالدين كأنّه يقول بألفاظٍ أخرى: أفٍ على الذي أوجد هـذا النظـام وأوجدنـي مـن هذين الوالدين.

هذا وإن الابن المتأفّف منهما لايُعدّ في نظر ربـه ملتزمـاً بـأمره الـذي قضـاه عليـه وهـو ﴿**وبالوالدين إحسانا**﴾ وبالتّالي فلا يكون هذا الابن من السّاعين ليكون لـه نصيـب مـن سـعي الآخرة، وقد حكم الله تعالى عليه بالتّالي ألاّ يُفلح في حياته، بل أن يقعـُدَ مذمومـاً مخـذولاً أي مُلاماً وغير مؤيّد بعون ربّه ولابتأييده عزوجلّ.

فهذا هو الأمر الأول الدّال عليه قوله تعالى ﴿**وبالوالدين إحساناً**﴾. أما الأمر الثاني فقـد عبّر عنه جل شأنه بقوله ﴿**ولاتنهرهما**﴾.

فقوله تعالى (ولاتنهرهما) من نهر السّائل: زجره، ونهـر فلانـاً لم يـُصبه بخير. والنّـاهر اسم فاعل. وكأنه تعالى يخاطب الأبناء ويقول لهـم: إن احـترام الولـد والديـه وتلطّفـه معهمـا في قوله وعدم رفعه صوته فوق صوتهما، **ومعاملته ايّاهما بالحسنى، فلا يكون قد اسـتوفى دلالـة** ﴿**وبالوالدين إحساناً**﴾، **بل إن من واجبه فوق ذلك كُلّه** ﴿**ألا ينهرهما**﴾ أي ألاّ يزجرهما إن ظهر من جانبهما في حقّه جورٌ وظلم. وألاّ يمتنع عن إيصال خيره إليهما. فهذا هو الأمر الثـاني الذي يشر إليه قوله وبالوالدين إحساناً، أما الأمر الثالث:

ثالثاً ـ فقد عبّر عنه تعالى بقوله ﴿**وقل لهما قـولاً كريمـاً**﴾. أي يـأمره ربـّه أن يخـاطب والديه بأمارات التّعظيم والتّكريم والاحترام فلا يرفع عليهما صوته، ولايشدّ إليهما نظره لمنافـاة هذه الصّفات الذّميمة دلالة القول الكريم. فالقول الكريم هو القول السّـهل اللّـين. والكـرم هـو إفادة ماينبغي، لا لغرض (محيط المحيط) فالذي يُعطي المال جلباً للنّفع، أو خلاصاً من الذّم، فـلا يُعد كريماً. والكريم من كان صفوحاً أيضاً.

ثمّ إنّ (القول) هو كلّ ماذلّ به اللّسان ذللاً تامّاً أو ناقصاً. وكأنـّه جـل شـأنه يخـاطب الأبناء من جديد ويقول لهم: إذا قام الولد باحترام، وتلطّف معهما في قوله ولم يرفع صوته فوق صوتهما وعاملهما بالحسنى، ولم يزجرهما ولم يمتنع عن ايصال خيره إليهما فلا يكون قد امتثـل لأمر ربّه وهو: ﴿**وبالوالدين إحساناً**﴾. بل إنّ من واجبه أيضاً أن يقول لهما قولاً كريماً سـهلاً

ليّناً نزولاً عند حُكم ربّه، وليس إرضاءً لهما، وأن يصفح عن زلاّتهما، ليُعدّ ساعياً سعى الآخرة وليكون سعيه عند الله مشكوراً. فهذا هو الأمر الثالث الدّال عليه قوله تعالى: ﴿**وبالوالدين إحساناً**﴾.

ولنُلاحظ أنّ الله تعالى، وبعد أن جميع ذلك كلّه في آيةٍ واحدة، راح فجمع الأمرين الرابع والخامس في آيةٍ واحدةٍ أيضاً، وقال:

الآية الرابعة و العشرون
﴿ واخفض لهما جَناح الذّل من الرّحمة ، وقل ربّ ارحمهما كما ربياني صغيراً ﴾

فهو جلّ شأنه جمع بين هذين الأمرين الأخيرين معاً في آيةٍ واحدة من منطلق أنّه انتقل من مرحلة إصدار أوامره المتعلّقة بالأقوال، إلى مرحلة إصدار أوامره المتعلّقة بالأفعال.

رابعاً - أمر كلّ إبنٍ من الأبناء وقال: ﴿**واخفض لهما جناح الذّل من الرحمة**﴾. فأتى بالواو العاطفة ليعطف هذا الأمر الرابع على سابقيه. وقال ﴿**واخفض**﴾ من خفض ضد رفع. ولصالح من يخفض؟ (لهما) اللاّم للاستحقاق أي لاستحقاق الوالدين ذلك من جانب أولادهما.

فماذا يخفض من أجلهما؟ قال ﴿**واخفض لهما جناح الذّل من الرحمة**﴾. فهو تعالى استعار كلمة جناح. لأنّ الطّائر إذا سعى لضمّ فراخه إليه لتربيتهم، خفض لهم جناحيه. لذلك يكُنّى بخفض الجناح عن حسن التربية، وكأنه جل شأنه يأمر هذا الإبن برعاية والديه إذا مابلغ عنده أحدهما أو كلاهما الكبر. وهو المعنى الذي أورده تعالى في سورة الحجر: ﴿**واخفض جناحك للمؤمنين**﴾ أي تواضع من أجلهم، وارفق بهم أيضاً رحمة بهم من عند الله عزوجلّ.

وكأنه تعالى يضيف من خلال قوله: ﴿**واخفض لهما جناح الذّل من الرحمة**﴾ أمراً رابعاً يشرح به أمره: ﴿**وبالوالدين إحساناً**﴾، للذّي يسعى سعي الآخرة وليكون سعيه عند الله مشكوراً.

خامساً - وقد عبّر جلّ شأنه عن أمره الخامس بقوله: ﴿**وقل ربّ ارحمهما كما ربّياني صغيراً**﴾. أي وأنّ من واجب الأبناء الدّأب على الدُّعاء لوالديهم أن يرحمها الله ربّهما لقاء مابذلاه من جهودٍ مُضنيةٍ لتربية هؤلاء الأبناء استجابة منهما لأمر ربّهما الذي كان قد أمر به أوّل نبيّ بعثة إلى البشر وهو آدم عليه السلام فالله يأمر هؤلاء الأبناء أن يدعو ربّهما أن يصل

والديهما بالخير، ويدفع عنهما الشرّ، فهذه هي دلالة (ارحمهما). فإن تساءل هذا الإبن عن الحكمة الحقيقة من هذا الأمر بالدّعاء للوالدين؟

فقد أجاب جل شأنه على هذا السؤال وقال معبّراً عن ذلك ﴿**كما ربيّاني صغيراً**﴾. فهو تعالى أتى بكاف التّشبيه لينتقل بذهن الأبناء إلى زمن حداثه سنّهم يوم كانوا أطفالاً صغاراً، يوم كان يقوم الوالدان بواجب رعاية أطفالهم الصّغار السّن، يدفعان عنهم شرّ التبوّل والتغوّط والإتّساخ، ويصلانهم بالخير من جميع أنواعه، ويُشرفان على تنمية أجسامهم وعقولهم بشتّى الوسائل والأساليب.

وهكذا يكون الله عزوجلّ قد أتى على ذكر أوامره الخمسة التي شرح من خلالها ماتضّمنه أمره تعالى: ﴿**وبالوالدين إحساناً**﴾ شرحها للمؤمن الذي يسعى للآخرة سعيها، وليكون سعيه عند الله مشكوراً. وحتى لاتقعُد هذا المؤمن مذموماً من الله خالقه، ولامخذولاً لايؤيده ربه ولاينصره ولايدعمه. وليكون هذا المؤمن الموحّد ربّه، أقول ليكون توحيده خالياً من شوائب الشّرك الخفيّ أيضاً. فالمؤمن الذي لايلتزم بهذه الأمور جميعها لايُعدّ محسناً إلى والديه ولاموحّداً ربّه على الصعيّد العمليّ. فهذه الأمور الخمسة هي من مُستلزمات التّوحيد في نظر كتاب الله الأقوم تعليماً من تعليم هذه التوراة المعاصرة. وهي ضرورات يستلزمها تقدّم الأمّة وازدهارها، ولتفوز هذه الأمّة بتأييد الله الخالق ونُصرته.

أي أنّ الله عزوجلّ، يوم أمر بتوحيد ذاته عزوجلّ، وبالإبتعاد عن جميع أنواع الشرك بالله، وبالوالدين إحساناً من مُنطلق هذه المفاهيم التي وضّحناها والتي تشرح معنى الإحسان إلى الوالدين.

يكون الله جلّ شأنه قد أرسى قواعد لبنة مُجتمع التّقدم والإزدهار الذي يحظى بتأييده ونُصرته. وبدون الأخذ بالعمل على هذه التعاليم، تعود اللبنة الاجتماعية هشّة، وتتخلف المجتمعات وتتنزّل وتفقد نُصرة الله تعالى وتأييده.

ولنُلاحظ كيف ورد هذا الطّرح القرآنيّ بأسلوبٍ بلاغيٍ مُعجزٍ أخّاذ. ويستحيل بيانه من طرفٍ آخر بهذا القدر من الجملات، مهما سمت صفة هذا الطّرف وبرع في الأدب والكتابة والتنظير.

ولنُلاحظ أيضاً أنّ الله عزوجلّ لم يسرد أوامره هذا السّر البلاغي المعجز، مبتوراً عن حيثيّاته ومُبرّراته. بل أتى بحيثيات ومُبرّرات قراراته الآنفة الذكر بأسلوبٍ فريد أيضاً، وبأسلوب

الطّرح غير المباشر. الأمر الذي لايتبيّنه إلاّ من اعتاد تدبّر آيات هذا الكتاب العزيز، وكان من المُطهرّين.

فالمتعارف عليه بين المشرّعين أن يستهلّوا مايشرّعونه بمبّررات وحيثيات تلك القرارات، على حين أنّ الله عزوجلّ خالف هذه القاعدة التّقليدية، وأتى بِمُبرّرات وحيثّيات أوامره الجليلة القدر في الشطّر الأخير من هذه الآية الأخيرة التي شرحناها، ومن خلال قوله تعالى فيها: ﴿**وقل ربّ ارحمهما كما ربيّاني صغيراً**﴾. وبالاستعانة بحرف الكـّاف في لفظ (كما)، وبهذا الأسلوب غير المباشر المُدهش.

فهو جلّ شأنه أتى بهذه الكاف هنا لتعليل ماقرره وأمر به الأبناء، وإن كانت هذه الكاف تفيد التشبيه بوجهٍ من الوجوه. فهو تعالى أمر وقال: ﴿**وقل ربّ ارحمهما**﴾ وعلّل دعاء الإبن وقال ﴿**كما ربيّاني صغيراً**﴾. أي أنـّك ياربي قد مرّرتني بدورين وقد حمـّلت مسؤولية عَناء وجُهود الدّور الأوّل لهذين الوالدين. والآن، وقد بلغا عندي الكبر، فقد ابتدأ الدّور الثاني الذي حملتني فيه مسؤوليـّات العمل على ما ألزمتني به من أوامر آنفة الذّكر، فارحمهما أي أعنّي على إيصال الخير إليهما ودفع الشرّ عنهما. خصوصاً وأنّ دعائي لهما بالرحمة من جانبك يتفـّق مع مُبرّرات وحيثّيات ما ألزمتني به من أوامر محتومة غير قابلة للنّسخ.

ولنُلاحظ أن كاف التعليل هذه أوردها الله جلّ شأنه في مقام آخر من كتابه العزيز، في الآية (١٩٨) من سورة البقرة حيث قال: ﴿**ليس عليكم جُناحٌ أن تبتغوا من ربـّكم، فإذا أفضتم من عرفاتٍ، فاذكروا الله عند المَشعَرِ الحرام، واذكروه كما هداكم، وإن كنتم من قبله لَمِنَ الضّالين**﴾. فالكاف في ﴿**كما هداكم**﴾ استعملت لتبرير أمره تعالى المُعبّر عنه بقوله: ﴿**واذكروه**﴾.

وعليه فإنّ الأوامر التي يُلزمنا بها ربنّا عزوجلّ، لايكون لذات الله تعالى نفعٌ خاصٌّ وفائدةٌ ذاتية. بل تكون أوامره تعالى دوما لصالح هذا الإنسان وفائدته، وإلاّ فإنّ الله غنيٌّ عن العالمين. فالإنسان الذي لايستجيب لأوامر ربـّه، لن يضُرّ الله شيئاً، لكنـّه يضرّ نفسه، ولابدّ له أن يحصد نتائج هذا العصيان. من هذا المُنطلق قال تعالى: ﴿**ومانرسل لمرسلين إلاّ مبشرين ومنذرين**﴾ أي مُنذرين بعواقبِ عصيان ماحمله من أجل فائدتهم هؤلاء المرسلون.

ولاشكّ أنّ الإنسان العاقل، لايـُعقل أن يجرؤ على مـَعصية ربـّه عزوجلّ. لكنـّه في حقيقته خطـّاء مَثَلُهُ في مسيرته الإيمانية مَثَلُ الطّفل يكبو كبوةً بعد كبوة دون قصدٍ منه، وبسبب

عدم اكتمال وعيه وبنيانه. من هنا كان لابدّ لهذا المؤمن الذي ألزمه الله عزوجلّ بالأوامر الآنفة الذّكر أن تصدُر عنه هفواتٌ وهفواتٌ تجاه والديه. وهو يسعى للعمل على هذه الأوامر الخمس قولاً وعملاً، وسعياً لخير الآخرة وليكون ممّن كان سعيهم عند الله مشكوراً. فهل سيُحاسبه ربّه عزوجلّ على هفواته؟ أم أنّه جلّ شأنه قد فتح له باب التوبة والغفران؟ وقد أخذ الله تعالى هذا التّساؤل هنا بعين اعتباره، فوضع لمعالجة هذه الهفوات ميزاناً عادلاً وأضاف يقول:

الآية الخامسة و العشرون
﴿ ربُكم أعلم بما في نفوسكم ، إن تكونوا صالحين ، فإنّه كان للأوابيّن غفوراً﴾

أي أنّ أصحاب التشريعات الأرضية إنّما يحكمون على ظواهر الأمور ذلك لعجزهم عن الإحاطة بعلم مافي نفس الإنسان ومايجول في صدره. أمّا الله ربكّم الذي أمر بهذه الأوامر وشرّعها بغاية تنظيم مجتمعكم الإيماني وتقوية لبناته فهو أعلم من هؤلاء المُشرّعين الأرضيين، فهو بعلم ظاهركم ومافي نفوسكم أيضاً علماً لايساوره شكّ ولاريب. وهو جل شأنه قد أوجد لمحو الهفوات التي تصدر عنكم ومغفرتها وسيلةً ومعياراً. أمّا المعيار فهو أن تكونوا (صالحين).

وهو تعالى حذف هنا مفعول صالحين، فلم يوضّح تكونوا صالحين في أيّ شيء من الأشياء ليفتح باب تصريف هذا اللّفظ إلى جهاتٍ عدّة. أي أنّ المعيار أن تتّصفوا بالصّلاح بشكل عام في سلوككم اليومي. وأن تكونوا صالحي النيّة فيما صدر عنكم من هفوات، لاتبغون معصية الله ولامعصية والديكم ولا عقوقهم. وأن تكون سيرتكم السّابقة مع والديكم سيرة صالحة. فبهذا المعيار أنظر إلى هفوتكم على أنّها هفوة يصحّ غُفرانها وإن ستري لهفوتكم وضعفكم الذي بدر عنكم، يقتضي منكم أن تكونوا (أوّابين) جمع أوّاب. من آب إلى الله تعالى: رجع إليه وتاب. فالأوّاب هو التّائب عن خطئه فيؤوب إلى ربّه ويصلحه، ليمحو الله آثار خطئه (محيط المحيط).

فالوسيلة إذن لستر هفوات الإبن التي ارتكبها بحق والديه ومخالفاً أوامر ربّه عزوجلّ، هي أن يتوب إلى الله تعالى، ليغفر الله له هفواته. ذلك أنّ الله تعالى كان للأوّابين غفوراً. أمّا الابن الذي يُصرّ على معصيته والديه، ولايكون حاله معهما صالحاً، فبالأولى ألاّ يتوب الله تعالى عليه وألاّ يعتبره مؤمناً يسعى سعي الآخرة. وإنّ مثل هذا الإبن العاقّ سيقعُدْ (مذموماً) أي

ملوماً من قبل من يطّلع على معصيته لوالديه و (مخذولاً) لايُوفّق في حياته الدّنيا، فأمثال هؤلاء العُصاة يزلزلون أركان هذه اللّبنة الأسريّة التي تتألّف منها مجتمعات المؤمنين منذ بَعَثَ الله تعالى آدم وحتى نزول هذا القرآن الأقوم تعليماً ممّا في التّوراة التي يرجع إليها بنو إسرائيل والتي تخلو من مثل هذه التّعاليم.

وهكذا يتّضح ممّا سلف بيانه أنّ حياة الأسرة تنقسم في نظره تعالى إلى فترتين زمانيتيّن: فترة إنجاب الأولاد وهي فترة تفرض على الوالدين تنمية أجسام أبنائهم ورعايتهم بالغذاء واللباس والدّواء والتعليم لتطوير عقولهم وتأديبهم بعلوم الدنيا والدّين دون أيّ تقصير أوتقتير. وتأتي بعدها فترة يتجاوز فيها هؤلاء الأبناء سنّ الرّشد، ويكون أحد الوالدين أو كلاهما قد بلغا الكبر. وهناك ينبغي أن تُعكس هذه المعادلة ويعود من واجب الأبناء حينذاك رعاية والديهم، وليس العكس، وفي حدود الإحسان إليهما في إطار الأمور الخمسة التي عدّدتها الآيات السالفة الذّكر. وأن تكون هذه الرّعاية للوالدين من مُنطلق الواجب الدينيّ. هذا إن كانوا يسعون سعي الآخرة ويبتغون الفوز بشكر ربّهم وتفضيله. وهم يُوحّدونه، لايُشركون به شيئاً. وأنّ الإبن الذي لايلتزم بهذه الأمور المذكورة، (فيقعُد) أي يتوقّف عن التقدم والازدهار في حياته الدنيوية (مذموماً) أي مُلاماً من الله خالقه ومن الناس أجمعين، و (مخذولاً) أي فاقداً لتأييد ربّه وقربه ونُصرته.

والله جلّ شأنه، إذ أتى بهذا النظام الأسرويّ وعلى وجه التماسُك والكمال الذي رأيناه، يكون قد أتى به كدليلٍ يدلّل به على عظمة تعاليم هذا القرآن الأقوم، تجاه أعين وأبصار ومسامع بني اسرائيل إشعاراً منه تعالى إياهم بضرورة الإيمان به، والإعراض عمّا بين أيديهم من تعاليم توراتية بهذا الخصوص. وهي التّعاليم التي لم تنزل تخاطب الناس جميعاً، بل خاطب الله تعالى فيها عشائر بدائية مُضيفاً إلى ماكان أمرُ به آدم من تعاليم بخصوص تأسيس نظامٍ أسرويٍ، أمراً إجمالياً، يُرجع إليه في الإصحاح ١٢/٢٠ من سفر الخروج وهو: (أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يُعطيك الرّب إلهُك). وفي الاصحاح ١٥/٢١ منه وهو: (من ضرب أو شتم أباه أو أمّه يُقتل قتلاً). وهل ترضى أنفسكم يابني اسرائيل بهذه الأقوال المُجملة الزاجرة، ولاتنجذب إلى هذه التعاليم الأقوم منها مُنطلقاً وتفصيلاً ودلالاتٍ حضاريّة أحكمت نظام الأسرة الذي ابتدأه آدم عليه السلام وأرست دعائم مجتمعٍ متحضّرٍ سائرٍ على طريق التقدّم

والإزدهار، كما ربطت ذلك كلّه بالطّور الأُخرويّ من الحياة يوم تُبعثون بين يدي ربّكم وتُسألون عمّا تفعلونه؟

وكيلا يعترض هؤلاء اليهود ويقولون إنّ هذه التّعاليم لاتعلّم كيفيّة ينبغي أن يتعامَل الأبناء مع أقاربهم، مؤمنين كانوا أو غير مؤمنين. فقد راح جلّ شأنه يرشد الأبناء ويقول:

الآيـــة الســـادســـة و العشـــرون
﴿ وآت ذا القُربى حقّه ، والمسكين ، وابن السّبيل ، ولاتُبذّر تبذيراً ﴾

فأتى تعالى بالواو العاطفة ليعطف مايرشد الأبناء إليه على الأمور السابقة المتعلّقة بالنظام الأسرويّ وقال: (وآت) من آتى فُلانا حقّه: أعطاه مالَهُ في مالِهِ من حقّ. ويكون الله تعالى بذلك قد نبّه أذهان الأبناء إلى حقيقة هي من صُلب الأساس في نظام الإسلام الاقتصاديّ. هذه الحقيقة التي عبّر تعالى عنها في الآية (٢٩) من سورة البقرة، والتي قال فيها: ﴿**كيف تكفرون الله وكُنتم أمواتاً فأحياكم، ثمّ يُميتكُم، ثم يُحييكم، ثم إليه تُرجعون، هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعاً، ثم استوى إلى السّماء فسوّاهُنّ سبع سمواتٍ، وهو بكلّ شيءٍ عليم.**﴾. هاتان الآيتان اللّتان دلّتا على وجود الخالق، وأنّ هذا الخالق قد وضع لِما خلقه هدفاً وغاية، تنظم تحقيقها قوانين طبيعية وقدريّة. ومن هذه القوانين على الصّعيد الاقتصادي، أنّه تعالى ﴿**خلق لكم** ـ أي لصالحكم جميعاً أيها الناس ـ **مافي الأرض جميعاً**﴾. وهو الأمر الذي وضّحه تعالى في الآية (٢٤) من سورة المعارج وقال: ﴿**والذّين في أموالهم حقٌّ معلوم. للسّائل والمحروم**﴾. أي أنّ ملكية الإنسان للمال وسواه ليست مُلكيةً خالصةً، بل يشوبها حقوق «السّائل» أي الذي له لسان يحرّكه ويسأل حاجته، كما يشوبها حقوق (المحروم) وهو المحروم من اللسان والنّطق فلا يستطيع لذلك أن يسأل حاجته إشارةً إلى جميع أنواع الحيوان والنّبات. فلهذه المخلوقات حقٌّ أيضاً في أموال الأبناء. فالإنسان قيّم على ما ملكت يداه وليس هو بمالكٍ حقيقيٍ، ومن واجبه تلمُّس أوامر ربّه التي تُرشده لأداء ما للسّائل والمحروم من حقٍ فيما ملكت يداه.

أقول: إنّ الله عزوجلّ نبّه أذهان الأبناء هنا إلى هذه الحقيقة التي ذكرناها بأسلوبٍ بلاغيٍ مُعجزٍ يسلب الألباب. فهو تعالى لم يقل «وأعط ذا القربى حقّه» بل قال ﴿**وآتِ ذا**

القُربى حقّه﴾ على اعتبار أنّ فعل (آت) يحمل الأمر بالعطاء من جهة، كما ينبّه من جهة أخرى إلى أنّ هذا العطاء المأمور به هو حقّ لهذه الجهة المأمور بايتائها في أصل مايملكه الإنسان من مال.

وهو جلّ شأنه إذ قال: ﴿وآتِ ذا القُربى حقّه﴾. فذا القُربى اشتق من القرابة وهي القُرب في الرَّحِم. تقول فلانٌ ذو قرابتي (محيط المحيط). فالمعنى أنـّك أيـّها الإبن المؤمن الذي يسعى سعي الآخرة إنّ لأقربائك الذين ليس لهم سهمٌ في ميراثك وعُصبتك، حقٌّ فيما تملكه يداك، فلا تتوانى عن تأدية مالَهُم من حقّ في مالِكَ وهم هؤلاء المستحقون للمعونة. ثم أتى جل شأنه بالواو العاطفة وقال: ﴿والمسكين﴾ من سكن الرّجل صار مسكيناً لايكفيه ماعنده من مال ومتاع، فأسكنه الفقر وقلّل حركته (محيط المحيط). أي آتِ أيـّها الإبن ذا القربى والمسكين منهم خاصةً الذي أسكنه الفقر وقللّ من حركته هذا القريب الذي ماعاد عنده من مال ومتاع يكفيه. هذا المعنى بدليل تعريف لفظ مسكين هنا بالألف واللاّم. وليس المسكين وحسب بل ﴿وابن السّبيل﴾ وهو المسافر الضيف من الأقرباء ينبغي عليك أيّها الإبن القيام بواجب ضيافته عندك. فهؤلاء الأقرباء جميعهم لهم حقٌّ فيما أصبحت قيّماً عليه من مال ومتاع، في هذه الحياة الدنيا.

ويتساءل هذا الإبن المؤمن وهو يتلقّى من ربّه هذه الأوامر عن نصابٍ معلومٍ يؤدّيه في هذا المجال. ويقول له ربّه عزوجلّ ناصحاً وآمراً: ﴿ولاتبذّر تبذيراً﴾. من بذر ماله: بثّه وفرّقه إسرافاً. (محيط المحيط) أي لا أفرض عليك نصاباً مُعيّناً من المال تنفقه على هؤلاء الأقرباء. بل الذي أوصيك به هو ألاّ تُبذّر تبذيراً، فلا تفرّق مالك على هؤلاء إسرافاً بل باعتدال يتناسب ومقتضيات أحوالهم.

هذا وإنـّك إن خالفت ما أعظك به لاتكون قد عملت على تعاليم هذا القرآن الأقوم. بل تكون قد شابه حالك أحوال أعدائك وحرمت نفسك من بركات سعيك الذي تسعاه للآخرة ولاستحقاق الشكر من ربك. وهنا راح جلّ شأنه يُعطي هذا الإبن فكرةً عمـّا يكون قد فعل بتبذيره ماله في غير محلّ وقال:

الآية السابعة و العشرون
﴿ إنّ المبذّرين كانوا إخوان الشّياطين ، وكان الشّيطان لربّه كفوراً ﴾

فأتى بحرف إنّ للتوكيد مذكّراً بحال إبليس وذريّته من الشياطين الكافرين بنعمة ربّهم من خلال مخالفتهم وتجاوزهم أوامره المُنزلة على آدم ومن أتى بعده من أنبياء الله تعالى ورسله. فأنت أيها الابن سيقال عنك حينئذٍ أنك من إخوان هؤلاء الشّياطين. ولنلاحظ أن كلمة «إخوان» أُتي بها للتّشبيه هنا، فالعرب كانوا يسمّون الملازم للشّيء أخاً له. فيقولون فلان أخو الكرم والجود، وفلان أخو السّفر أي قرينه.

وعليه فالله عزوجلّ يحذّر هنا أصحاب الملايين من المؤمنين من انفاق أموالهم طلباً للتّفاخر والخُيلاء بحيلة أنّهم يعملون على أحد أوامر الله الصّريحة، يحذّرهم ويقول لهم: على العكس من ذلك ستصبحون في نظر ربكم، والحال هذه، كافرين بنعمته وإخوان الشياطين، ولايكونون حينئذٍ في نظري من السّاعين سعي الآخرة ولاتستحقون بالتالي شكر ربكّم ولاتأييده.

ودفعاً من جانبه جلّ شأنه أن يُسأل: فهل تأمرنا أن تلتزم بهذه الأوامر الإلهية مع الأقرباء الذين يختلفون معنا في العقيدة ويُناصبوننا العداء، وكانوا من الذين لاتنفع مخالطتهم. فقد راح جلّ شأنه يخيّر هؤلاء الأبناء فيما يفعلونه في مثل هذه الأحوال وقال:

الآيــة الثــامنــة و العشــرون
﴿ وإمّا تعرضنّ عنهم ابتغاء رحمةٍ من ربّك ترجوها، فقل لهم قولاً ميسوراً﴾

فأتى تعالى بالواو العاطفة ليعطف هذا النّصح على سابقه. كما أتى بحرف (إمّا) الدّال على الإباحة وقال: ﴿**وإمّا تعرضنّ عنهم**﴾ من أعرض عنه: أضرب وصدّ (محيط المحيط). أي أخيّرك أيّها الإبن المؤمن أن تمتنع في الحالة المذكورة عن ايتاء ذي القربى والمسكين وابن السّبيل منهم. هذا إن كنت تصدُّ عنهم ﴿**ابتغاء رحمة من ربّك ترجوها**﴾ أي في حال أن تمتنع طلباً لفضل ربّك وغفرانه، خصوصاً إذا كان من يستحق معونتك من هؤلاء الأقارب، متلافاً للمال ومستهتراً بنعمة ربّه عليه.

ويا أيّها الإبن المؤمن إن استفدت من إباحتي هذه التي أبحتُها لك، فلا أوصيك بمقاطعة هؤلاء الأقرباء، بل ﴿**فقل لهم قولاً ميسوراً**﴾. فأتى جلّ شأنه بفاء الاستئناف ليستأنف

الإسداء بنصيحةٍ جديدة، وأمر بعدم مقاطعة الأقرباء. بل وباتّخاذ خطوة بديلة عن ذلك وهو أن يعرض عليهم آراءه ومعتقداته بشكل ميسور أي سهل الفهم ومبسّطةٌ أدلّته ووفق أفهاهم. فهذا هو معنى ﴿**فقل لهم قولاً ميسوراً**﴾.

إلى هنا أنهى الله جلّ شأنه بيان ما أتى به هذا القرآن الأقوم تعليماً من تعاليم التوراة التي بين يدي بني إسرائيل ومضيفاً ضمنها تعاليم إلى ماكان أنزله من تعاليم على آدم وموسى عليهما السّلام بشأن النظام الأسرويّ. وعلى صورة أكملت تلك التّعاليم ورسّخت أركان نظام الأسرة، وأعطته سمّة الوجه الشموليّ والحضاري. هذا بعد أن أنهى تعالى ذلك وهو يغمز جانب بني اسرائيل وما توارثوه من تعاليم. ليجذب إلى حظيرة الإسلام من كان يطلب منهم الحقيقة ووجه الله تعالى، ولينبّه الذين يمكرون بهذا الدين وتعاليمه من هؤلاء اليهود، إلى أنّهم لايملكون إلاّ وسيلة المكر، والله خير الماكرين.

أقول: توجّه الله عزوجلّ بعد ذلك ليُسدي بحِكمِه وإرشاداته لهؤلاء الأبناء. هذه الحكم والإرشادات التي تُساعدهم على استكمال رجولتهم الإيمانية ومواطنيّتهم الصّالحة وللتحلّي بأخلاق وآداب ما وعظهم به ربهم العظيم.

فتناول جلّ شأنه صعيد إنفاق المال، وهو آخر موضوع بحثه وراح يؤدّب الأبناء بأدب الانفاق وقال:

الآيـة التـاسـعـة و العشـرون

﴿ ولاتجعل يدك مغلولةً إلـى عـُنُقِك ، ولاتبسُطها كُلّ البَسطِ ، فتقعُد ملوماً محسوراً ﴾

فأتى تعالى بالواو العاطفة ليعطف هذه الحكمة على ماسبق بيانه وبكلمة (يدك) ليُكنّي بها عن وسيلة البذل والعطاء، وراح يوصي بتجنُّب مواقف الإفراط والتفريط على صعيد إنفاق المال وقال: ﴿**ولاتجعل يدك مغلولةً إلى عـُنُقِك**﴾ مُشبّها التّقتر والإحجام عن البذل والعطاء بالغُلّ يغلّ هذه اليد ويربطها إلى عنق صاحبها فيعسر عليها القيام بالبذل والعطاء. فمغلولة أي مربوطة بغُلٍ إلى عُنقك.

وكانت الحكمة من إيراد كلمة ﴿**عُنُقك**﴾ للإشارة إلى أنّ التقتير والبُخل والإحجام عن البذل والعطاء مُلزمٌ به عنق الإنسان ويُحاسب عليه. فالله حكيم في جميع تصرُّفاته، فلم يقل هنا

﴿ولاتجعل يدك مغلولة﴾ وحسب بل هذه حكمة إضافة قوله ﴿إلى عُنقِك﴾. فهذا ماوعظ به تعالى هذا الابن لتجنّب الإفراط.

ثم راح يعظ هذا المؤمن ليجنّب التّفريط في موضوع إنفاق المال وقال: ﴿ولاتبسُطها كُلَّ البسط﴾ أي ولاتدع يدك تنفق على غاربها دون ضابط يضبط ماتبذله وتعطيه. مذكّراً بما أورده في الآية (٦٨) من سورة الفرقان قوله تعالى: ﴿إذا انفقوا لم يُسرفوا، ولم يقتُروا، وكان بين ذلك قواماً﴾.

ثم راح جلّ شأنه وعلى عادته وأسلوبه في وعظه وإصدار أوامره يوضّح للعبد حكمة مايعظه ويأمره به، ومحذّراً من عواقب مخالفاته، أقول: راح تعالى يبيّن لهذا المؤمن مايترتّب على عدم تحليّه، بأدب الإنفاق الذي وعظه به وقال: ﴿فتقعُد ملوماً محسوراً﴾. وسبق أن وضّحت أنّ فعل (تقعُد) يكنّى به عن دور التنزّل والتخلّف والانحطاط، فهو تعالى يقول لهذا المؤمن إيّاك أن تنحرف عن التحلّي بأدب الإنفاق الذي وعظناك به، فإنّ هذا الأدب المالي يضع قدميك على طريق التقدّم والإزدهار. فإن أنت انحرفت عن التحلّي بخُلُقه، يتوقف تقدّمك وإزدهارك، وتنعكس المعادلة ليبدأ دور تنزلُّك وتخلُّفك وانحطاطك، وتصبح بالتالي ﴿ملوماً﴾ أي يأتي عليك دور فقرٍ ونهايةٍ محزنةٍ تستحقّ عليها من أقرانك كثرة ملامتهم. كذلك تصبح ﴿محسوراً﴾ من انحسر الشيء انكشف وأعيا وحزن (محيط المحيط) أي وتنكشف حالك، ويُصيبك من جراء ذلك الوهن والاعياء والحزن.

ولم يترك الله تعالى هذا الولد المؤمن أن يتساءل: كيف يصحُّ أن يصير الإنسان المؤمن إلى هذا المصير؟ فقد أسرع خالق هذا المؤمن، والذي أمره بالتحلّي بهذه الحِلْية، سارع ليقول له:

الآيـة الثـلاثـون
﴿ إنّ ربّك يبسُطُ الرّزق لمن يشاء ويقدِر ، إنّه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾

فأتى بحرف إنّ لتأكيد ماسيلقّنه إياه، وأضاف إليها كلمة (ربّك) تنبيهاً لذهن هذا المؤمن أنّ الذي سيجيب على تساؤله هو الله ربّه الذي يسعى لتطويره من حال إلى حال. وأتى بكلمة (يبسط) من بسط الله الرّزق وسّعه على الذي يشاء. كما أتى بكلمة ﴿ويقدر﴾ من قدر الله الرّزق: قسّمه وخلاف بسطه. (محيط المحيط). وقال: ﴿إنّ ربّك يبسُط الرزق لِمن

يشاء ويقدر﴾. أي أنّ من واجبك أيّها المؤمن أن تتحلى بحلية التأدب في انفاق المال حسب ماعلّمناك من حكمة ذلك التأدّب، وأنت موقن بأن الله الذي آمنت به إذ علّمك ذلك، فمن مُنطلق أنّه هو ربّك، مسبّب أسباب الرّزق يوسّعه على من يشاء، ويحجُبه عمّن يشاء فبيده مقاليد الأمور.

وأضاف الله تعالى يقدّم الدليل القاطع على ما أعلنه وقال: **﴿إنّه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾**. أي أنّ ربّك أيّها المؤمن الذي تسعى بين يديه سعي الآخرة ولتفوز بشكره عزوجلّ، إنّ من أسماء ربّك الحسنى أنه (خبير بصير) وبجميع مايجري في هذا العالم، وهل يستسيغ عقلك أيّها المؤمن ألاّ يكون ربك صاحب هذين الإسمين بعيداً عن عباده الذين يطيعونه ويخضعون لأوامره ويذلّون بين يديه ويخدمون دينه ويلتزمون شرائع دينه ويوحدّونه؟ فهو تعالى أتى بحرف التوكيد إنّ من جديد وقال **﴿إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾**. أي أنّ ربك كان ولايزال (خبيراً) من خبره امتحنه وجرّبه وعلم بأحواله أي كان دوماً يمتحن عباده ويجرّب مدى المستوى الإيماني الذي بلغوه لإحاطته يقيناً بعلم أحوالهم. و **﴿بصيراً﴾** أي وكان يرى مُجريات أحوال عباده ومدى نجاحهم فيما يمتحنهم به ويجرّب مستواهم الإيماني، فما كان يغرب في يوم من الأيام أي شيء من ذلك عن ناظريه.

فهذا ماينبغي لك أيّها المؤمن أن تتعّظ بحُجّته وتوقن بنتائجه. فالله ربّك إذ يعظُك بالتحلي بحلية أدب الانفاق فلصالح تقدّمك على الصعيدين الرّوحي والمادي ولتنجح فيما يواجهك به ربّك من امتحانات وابتلاءات. أي أنّ ربّك يأمرك بتجنب الافراط والتفريط في الإنفاق رعايةً من جانبه تعالى لمصالحك. وهو جلّ شأنه إذ قدّم لك هذا الدليل في هذا المقام، فليحثّ هذا العبد المؤمن أيضاً على الالتزام بنهج التفكير الرّوحي في حياته، وتجنّب نهج الماديين الذين يفسّرون الظواهر بتفكير ماديّ بعيداً عن هذه التعاليم التي أتى بها هذا القرآن الحكيم.

ثم إنّه جلّ شأنه، وبمناسبة بيان الحقيقة التي أتى على ذكرها آنفاً، وانطلاقاً من تسلسلٍ موضوعيّ مترابط، أضاف ينصح المؤمنين الذّين يسعون سعي الآخرة بما يتعلق بانفاقهم على أولادهم خاصة وقال:

الآيــة الـــواحـــدة والثـــلاثـــون

﴿ ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاقٍ ، نحن نرزقهم وإيّاكم ، إنّ قتلهم كان خطئاً كبيراً﴾

أي لاينبغي لك أيّها المؤمن أن تحتّج بهذه الحكمة التي علّمناك إيّاها وأدبّناك بأدبها في مجال إنفاق المال، فتجعلها حجّة من طرفك لتقصّر في إنفاقك على تنشئة أولادك ورعايتهم والتقتير في الإنفاق على تغذيتهم وتربيتهم وتزويدهم بالعلم، وبأرفع شهاداته وعلى نحوٍ سليم. فإن أنت فعلت ذلك أيّها المؤمن لاتعود مُتحليّاً بحلية أدب الإنفاق. بل تعُدّ حينئذٍ قاتلاً لأولادك (خشية إملاق)، أي خشية الفقر، ذلك أنّ تضييق الوالدين على الأبناء في مجالات هذه المطالب جميعها هو في نظر الله الخالق قتلاً معنويّاً لهؤلاء الأولاد. وعلى اعتبار أنّ هذا التقصير سيؤدي بهؤلاء الأولاد ليقعوا فريسة أمراض سوء التّغذية والتّشويه البدنّي وضعف الخُلُق والعقل. ويعودون بالتالي مواطنين غير صالحين وعالةً على مُجتمعاتهم. فهذا هو مايدلّ عليه قول ربّنا هنا ﴿**ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق**﴾.

وقد راح الله جلّ شأنه يحثّ هذا المؤمن الذي يسعى سعي الآخرة وليفوز بشكر ربّه أيضاً. يحثه على اختيار الأسلوب البديل إن هو كان مؤمناً بالله وبقدراته وأنّه مُسبّب الأسباب وقال: ﴿**نحن نرزقهم وإيّاكم**﴾ أي أنّك بدل أن تختار قتل أولادك بهذا التقتير في الإنفاق عليهم خشية املاق، من واجبك أن تختار أسلوب الدّعاء من الله تعالى أن يوسّع عليك الرزق لتؤدي واجب الإنفاق على أولادك كما ينبغي أن يؤدّى، فلا تقصّر في حقّ تنشئتهم وحقّ رعايتهم وتغذيتهم وتربيتهم وتزويدهم بأرفع ماتوصّلت إليه البشريّة من علوم، لتقيهم شرور مختلف الأمراض، وليساعدهم ذلك على التحلّي بالخلق العظيم والعقل السّليم. فلا يعودوا عالة على مجتمعهم الإيماني ولاعاراً على الذي أنجبهم وقصّر في واجبات الإنفاق الضروري عليهم. فالقتل في هذه الآية الكريمة إنّ المقصود منه هو القتل المعنويّ الذي ذكرناه، ولم يقصد به قتل النّفس المعروف.

وتأكيداً للمعنى الذي ذهبت إليه أضاف جلّ شأنه يقول: ﴿**إنّ قتلهم كان خِطئاً كبيراً**﴾ فهو تعالى أتى بحرف إنّ التوكيدي. واستعمل كلمة (خطئاً) الدّالة على الذّنب المتعمّد الذي يدخل في باب الإثم. تنبيهاً من جانبه تعالى لهذا المؤمن الذي يُخالف مُتطلّبات تربية أبنائه وتنشئتهم ويقصّر في الإنفاق عليهم خشية الفقر، ولايلتجئ إلى ربّه الرزاق يدعوه ليرزقهم ويرزقه. تنبيهاً له إلى أن في مخالفته هذه ارتكاب إثم هو من قبيل القتل المتعمّد لأولاده قتلاً معنوياً غير ماديّ. وتأكيداً من جانب الله عزوجلّ للمعنى الذي وضّحته آنفاً أضاف ينهى الإبن المؤمن عن سلوك سبيلٍ آخر غير التّقتير خشية الإملاق إشباعاً لرغبته الجنسية وقال:

الآيــة الــثانيــة والثــلاثــون
﴿ ولاتقربوا الزّنا ، إنّه كان فاحشةً وساء سبيلاً ﴾

أي وإياكم أيُّها المؤمنون أن تُعرضوا عن سبيل تأسيس أسرةٍ مؤمنة تضطركّم إلى مثل هذا الإنفاق من الأموال على ماتنجبونه من أولاد، فتعمدوا إلى سبيل الزّنا وقد ساء سبيلاً. فإيّاكم وأنتم المؤمنون بقدُرات الله وواسع علمه أن تقربا الزنا. من قرب من الشيء دنا منه (محيط المحيط) فإن دنوتُم من سلوك هذا السّبيل السّيء في نظر ربكم، فقد دنوتم من جريمة ارتكاب الفاحشة. هذا الفعل الذي لايتّفق وسعيكم سعي الآخرة ولتفوزوا بشكر ربّكم وتفضيله.

فهو تعالى يحضّ المؤمن هنا على تجنّب سبيل الزّنا ليصون نفسه من ارتكاب جريمة القتل المعنويّ أيضاً. فابن الزّنا، يعود عالةً على المجتمع على شاكلة مايُصبح عليه الأولاد الذين يقصّر والداهم في تنشئتهم وتربيتهم تربية صالحة.

والله تعالى وقد نهى عن أنواع القتل المعنوية الآنفة الذكر، راح فالحق بها النّهي عن قتل النفس المعروف وقال:

الآيــة الــثالثــة والثــلاثــون
﴿ ولا تقتلوا النّفس التي حرّم الله إلاّ بالحقّ ، ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سُلطاناً، فلا يُسرف في القتل ، إنّه كان منصوراً ﴾

فأتى جل شأنه بالواو العاطفة ليعطف ماسيأمر به على سابقه، وقال: **﴿ولاتقتلوا النّفس التي حرّم الله إلاّ بالحقّ﴾**. مُقرناً لفظ القتل هنا بلفظ النفس. ليؤكّد أنّه كان يتكلّم من قبل عن القتل المعنوي وليس عن قتل النّفس المُحرّم قتلها في جميع تعاليم الأديان السّماوية المُنزله وقال: **﴿إلاّ بالحقّ﴾** فحرف إلاّ أداة استثناء. والباء حرف أتى تعالى به لإفضاء معنى فعل القتل إلى الإسم الوارد بعده وهو (الحق) فالباء استعملت هنا بمعنى السببيّة أي إلاّ بسبب (الحق).

فما معنى الحق وأي حقّ مقصودٍ في هذا المقام؟ فالحقّ هنا اشتُق: من حـقّ أمر القتل إذا وجب وثبت و لم يلبسه شكّ (محيط المحيط). والحقّ أيضـاً هـو الأمـر المقضـيّ بـه قانونـاً وشـرعاً (محيط المحيط).

وعليه فإنّ الله عزوجلّ انتقل من الكلام عن القتل المعنوي إلى الكـلام عـن قتـل النّـفس البشرية فلم يُجز قتل هذه النّفس المحرّم قتلها ﴿**إلاّ بـالحق**﴾ أي إلاّ إذا حكـم القضـاء بقتلهـا لارتكابها جريمة قتل نفسٍ من مثلها، وبأدلّةٍ قاطعةٍ لايلبسها شكّ.

ثم إنّ الله عزوجلّ اغتنم هنا فرصة الكـلام عـن قتـل النّفـس البشريـّة ليضيـف ويقـول: ﴿**ومَن قُتل مظلوماً، فقد جعلنا لولـيّه سُلطاناً، فلا يُسرف في القتل**﴾. أي أننـا لانُضيـع حـق هذه النّفس المقتولة ليضيع من بعد قتلها، بـل استـننّا قانونـاً، وهـو أنّ مـن يـُعتبر ولي أمر هـذا المقتول في نظر هذا القانون، له سلطان المطالبة بحقّه بأحد طريقين: إمـّا بالمطالبـة بقتـل القـاتل، وإما بقبول فديةٍ عن المقتول.

ثم أتى جل شأنه بفاء الاستئناف وقال: ﴿**فلا يُسرف في القتل**﴾. فقوله ﴿**فلا يُسرف**﴾ من أسرف أي استعمل في غير طاعة ربّه (محيط المحيط). وعليـه فـإنّ الله عزوجـلّ يوصي هـذا المؤمن الذي يَسْعى سَعْيَ الآخرة، ألا يستعمل سُلطانه الذي منحه الله تعالى إيـّاه في غـير طاعـة ربّه، أي لايحقُّ له أن يتجاوز حدود الحكم الذي يحكم له به القضـاء الشـرعي. بدليـل أنـه جـلّ شأنه أورد كلمة القتل مـُعرّفةً بالألف واللام العهدية، ليشير بهذا التعريـف إلى ماعـُهد في ذهنـه من حُكم قضائيٍ صادر بحقّ القاتل.

و لم يوصى الله عزوجلّ هذا المؤمن صاحب هذا السُّلطان هذه الوصيـّة، دون التّلويح لـه بمكافأةٍ على استجابته لوصيـّة ربه، بل لوّح تعالى له بهذه المكافأة وقال: ﴿**إنـّه كان منصوراً**﴾. فأتى بحرف إنّ لتوكيد مايعد به وبكلمة (منصوراً) المشتق من نصر المظلوم أي أعانه. علمـاً بـأنّ كلمة منصوراً هي أخصّ دلالة من (معوناً)، لاختصاص النُّصرة بدفع الضّرّ (محيـط المحيـط). أي أنـّه تعالى وعد صاحب هذا السلطان بتأييده ومعونته وأن يكون الله تعالى معه في جميع أحوالـه، إن هو لم يستعمل سُلطانه الذي منحه الله تعالى إيّاه في غـير طاعـة ربـه فـلا يسـرف في حكـم القتل الذي أصدره القضاء لصالح من هو وليـّه.

فإلى هنا يكون الله عزوجلّ قد هذّب هذا المؤمن الذي يسعى سعي الآخرة بأربع نصائح حِكميّة مُتعلقّةً بصعيد الإنفاق المالي وتوابعه فإن هو التزم بها لابدّ أن تتفتـّح دونه أبواب التقـدّم

والرقي والأزدهار ويفوز بالتالي بشكر ربه وتفضيله إيّاه على من عاداه. ومن ثم راح الله جلّ شأنه يعظ هذا المؤمن عِظة حكمة جليلة متعلّقةً بحياته الاجتماعية وقال:

الآيــة الــرابعــة والثــلاثــون

﴿ ولاتقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن ، حتى يبلُغ أشُدّه ، وأوفوا بـالعهد إنّ العهد كان مسؤولاً ﴾

وهنا لم يترك الله تعالى موضوع قتل النّفس مبتوراً. بل راح يتناول نتائجه المُترتّبة عليه، مُنبهاً إلى أنّ القتل، وإعدام القاتل يسفر عن ترك طبقة من أولاد تيتّموا لهذا السّبب. وهذا الأمر يستدعي رعاية أموال هؤلاء الأيتام إلى أن يبلغوا سنّ رشدهم.

لذلك نُلاحظ أنّه جلّ شأنه راح يهذّب المؤمن الذي يسعى سعى الآخرة وليكون سعيه مشكوراً راح يهذّبه بتعاليم الوصاية على أموال الأيتام. فأتى بالواو العاطفة ليعطف ماسيهذّبه به على سابقه وقال: **﴿ولاتقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن﴾**. أي إيّاكم أيها المؤمنون الذين يسعون سعي الآخرة أن يصبح أحدكم وصيّاً على أيتام، فيدنو من هذه الأموال ويتصرف بها بغير القوانين الناظمة لمجلس الوصاية والتي يشرّعها الله عزوجلّ للمحافظة على أموال الأيتام.

ولنلاحظ، وننظر متأمّلين بعمق ماهذّب القرآن الكريم به هذا المؤمن قبل أربعة قرنٍ من الزّمان، أيّام خلت تعاليم توراة بنو اسرائيل من مثل هذا التعليم. وليثبتُ الله تعالى عن طريق إيجاده مجالس وصاية ورعاية للأيتام، ليثبت لبني اسرائيل أنّ تعليم هذا القرآن هو الأقوم ممّا لديهم من تعاليم توراتيّة، حتى إذا تخلّفوا عن الإيمان بهذا القرآن الأقوم، فسيُعدُّ ذلك حُجّة عليهم يوم يقوم الناس يوم القيامة لربّ العالمين.

ثم أتى جلّ شأنه بحرف (حتّى) الدّال على نهاية الغاية وأضاف يقول: **﴿حتّى يبلُغ أشُدّه﴾**. أي فلا توقف أعمال مجلس الوصاية على الأيتام، إلى أن يبلغ اليتيم من الناحيتين الجسمانية والعقليّة عُمرٌ يؤهّله ليقوم هو بشؤون نفسه، والتصرف بأمواله الموروثه باتزّان.

ثم أتى جلّ شأنه بالواو العاطفة وراح يأمر الأوصياء على الأيتام من هؤلاء المؤمنين الذين يسعون سعي الآخرة ويأملون الفوز بشكر ربّهم وتفضيله. أمرهم وقال: ﴿**وأوفوا بالعهد، إنّ العهد كان مسؤولاً**﴾.

فكلمة العهد التي أتى بها الله جل شأنه هنا مشتقّة من عَهِدَ إليه، أي أوصاه. وبهذا المعنى ورد في سورة يس: ﴿**ألم أعهد إليكم يابني آدم..**﴾ أي ألم أوصِكُم (محيط المحيط). وهذا العهد إذن هو الوصيّة الموجّهة إلى الوصّي على أموال الأيتام والموصي برعايتها بالتي هي أحسن.

وقد كانت لاستبدال كلمة الوصيّة في هذا المقام بكلمة العهد حكمة بالغة، وهي إشعار هذا المؤمن الوصيّ على أموال الأيتام أنّ مهمّته تبلغ مرتبة عهد يقطعه مع ربّه، يعاهده فيه ألاّ يفرّط في مهمته هذه ولايتصرّف بالأموال بغير حقّ. وإلاّ فإنّه يتحمّل مسؤولية تفريطه وإساءة أمانته وعهده، ويستوجب بالتّالي عقاباً سماوياً قاسياً. أكدته الآية (١١) من سورة النساء حيث قال تعالى: ﴿**إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظُلماً، إنّما يأكلون في بطونهم ناراً، وسيصلون سعيراً**﴾.

ثم إنّ رعاية أموال اليتيم ماهي مجرد وصاية وعهد يقطعه هذا المؤمن الوصي على مال اليتيم مع ربه. بل إنّ هذه الوصاية والعهد تستدعي المُتاجرة بأموال اليتيم بالنيابة عنه، لذلك راح جلّ شأنه يوصي الأوصياء على أموال اليتامى ويقول:

الآيـة الخامسـة والثـلاثـون
﴿ وأوفوا الكيل إذا كِلتُم، وزنوا بالقسطاس المستقيم، ذلك خيرٌ وأحسن تأويلاً ﴾

فأتى جل شأنه بالواو العاطفة ليعطف ماسيأمر به على ماتقدم من أوامر. وأتى بفعل الأمر (أوفوا) من وفى بالعهد أو بالوعد أي حافظ عليه و لم يغدُر فهو وفيّ (محيط المحيط). مع الملاحظة أنه تعالى لم يقل (وفّوا) من وفّاه حقه أي أعطاه إيّاه وافياً تاماً. ذلك لأن الأمر لايتعلّق هنا بالتوفية، بل بالوفاء بالعهد، تذكيراً من جانبه تعالى لهذا الوصيّ على مال اليتيم ألاّ يخون ما أُتمن عليه وألا يتصرّف على هواه. بل ليتصرّف بالاستعانة بالأدوات المُعدّة لكيل

وتقدير كل شيء تحت يديه، ووفق حسابات دقيقة أيضاً ﴿**إذا كلتم**﴾ أي بفرض أن تعرّضتم للبيع والشراء. و لم يقل تعالى هنا (إذا اكتُلتُم)، ذلك على اعتبار أنّ فعل اكتال بحاجة إلى صِلةٍ من أو صلة على بعده. حيث يقال: اكتال عليه أو اكتال منه.

وهو تعالى إذ أضاف وقال: ﴿**وزنوا بالقسطاس المستقيم**﴾ ففعل (زنوا) من وزن الشيء: راز ثقله وخفّته وامتحنه بما يعادله. ووزن الرّجل كان أصيل الرأي (أقرب الموارد). بمعنى أنّ التّجارة تتطلّب من التاجر أن يكون أصيل الرأي وأقربه إلى الكمال. لذلك فمن واجب الأوصياء على أموال اليتامى أن يزنوا أي يقلّبوا الأمور التجارية قبل الإقدام عليها بعقلٍ راجحٍ ورأيٍ أصيل، كأنّه صادر وموزون بقسطاسٍ مستقيم. فكلمة «قسطاسٍ» استُعيرت للنّصح بما ذكرناه آنفاً. ذلك أن كلمة قسطاس مشتقّةٌ من القسط أي العدل. وأضيف إليها صفة مستقيم ليؤدي معنى الاستعارة.

وقد أنهى الله جلّ شأنه الآية بقوله: ﴿**ذلك خيرٌ وأحسن تأويلاً**﴾. مورداً اسم الإشارة للبعيد «ذلك» بدل أن يقول هذا خيرٌ، لتفخيم أمره الذي سبق ذكره وتعظيم دلالته.

أي ﴿**ذلك خيرٌ**﴾ بمعنى هذا مايليق أن يتحلّى به الوصّي على مال اليتيم من صفات، وماينبغي عليه أن يفعله. وأتى بالواو العاطفة وقال: ﴿**وأحسن تأويلاً**﴾ وأحسن كلمة تفيد أفعل التفضيل.

(وتأويلاً) مشتقّة من آل إليه: رجع (محيط المحيط) أي أنّ الطريق الذي أمرنا هذا الوصّي بانتهاجه هو أفضل الطّرق التي ننصحُ بها هذا الوصي على مال اليتيم في هذا المقام. إن كان مؤمناً ويسعى سعي الآخرة ليفوز بشكر ربّه على مايفعله.

من هذا نُدرك أنّ الله عزوجل قد كشف من خلال ماتضمنته هذه الآية الكريمة من معانٍ حقائق هامة، تشكّل سرّ نجاح التاجر وازدهاره. وهي ضرورة التزام التاجر بالأمانة والعدل في معاملاته التجارية. وهذه الحقيقة هي من الأهمية بمكان إلى درجةٍ سبق أن نصح بها جميع رسل الله تعالى أقوامهم من قبل الإسلام. أفلا نُلاحظ كيف أن شُعيباً خاطب قومه ضمن الآية (٨٦) من سورة الأعراف وقال: ﴿.. **ياقوم اعبدوا الله، مالكُم من إلهٍ غيره، وقد جاءكم بينّةٌ من ربّكم، فأوفوا الكيل والميزان ولاتبخسوا النّاس أشياءهم، ولاتفسدوا في الأرض بعد إصلاحهما، ذلك خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين**﴾؟ ففي هذه الآية قال تعالى ﴿**ذلكم خيرٌ لكم**﴾. على حين قال في الآية التي نحن بصددها فقط (ذلك خير)، فلم يوضّح الجهة التي

يعود إليها هذا الخير ليمكّن القارئ في تصريف الفعل بمختلف الاتّجاهات. أي ذلك خيرٌ لكم وخيرٌ للأيتام وخير لنجاح التجارة.

ولمّا كانت الأمور التجارية لاتؤخذ بالظنون والشبهات، خشية وقوع جملةٍ من الخسارات. لذلك راح الله جل شأنه يضيف ناصحاً هذا المؤمن الوصي على مال اليتيم والسّاعي سعي الآخرة، ويقول:

الآية السادسة والثلاثون

﴿ ولاتقفُ ماليس لك به علم ، إنّ السّمع والبصر والفؤاد، كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾

فأتى جلّ شأنه بالواو العاطفة، وبفعل (تقفُ) من قفا أثره أي تبعه (محيط المحيط). كما أتى بحرف (ما) الذي يفيد المعرفة الموصولة، فأدخله على كلمة (ليس) الدّالة على نعي حال المخاطب، بدليل لام الجرّ الدّاخله بعدها على كاف الخطاب في (لك).

فما هو الأمر الذي ينهي جل شأنه هذا الوصّي ألاّ يقفوه أي ألاّ يتبّعه؟ الجواب تضمنه قوله تعالى ﴿**ماليس لك به علم**﴾. الباء في (به) أفضت معنى فعل (لاتقفُ) إلى (العلم) فألصقته به. والعلم كما أورده صاحب (محيط المحيط) يُقال للإدراك الكلّي أو المركّب للمعرفة.

فتقول: عرفت الله ولاتقول علمته. فالعلم هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع. وعليه فإنّ الله عزوجلّ يوصي هذا المؤمن الوصّي على مال اليتيم أن يفي بعهده، فلا يتصرّف بأموال اليتيم ولايُتاجر بها هكذا دون اعتقاد جازمٍ مطابقٍ للواقع، في كلّ أمرٍ يُقدم عليه. بل إنّ من واجبه أن يضع في حُسبانه أنّه مسؤولٌ مسؤوليةً يترتّب عليها عقاب إن هو اعتمد السّماع والبصر المُجردّين، ومايجيش به فؤاده من أفكار ظنيّة، ذلك ﴿**إنّ السّمع والبصر والفؤاد، كل أولئك كان عنه مسؤولاً**﴾.

فقد أتى جل شأنه بحرف إنّ للتوكيد، وبكلمة (السّمع) وهي مايُطلق على حسّ الأذن ومايلج فيها من أشياء نسمعها. جمعه أسماع. وأتى بكلمة (البصر) وهي مايُطلق على حاسّة الرؤيا والعين وحسّ العين والعلم. جمعه أبصار. وبكلمة (الفؤاد) وهو مايجيش في صدر الإنسان لتوقّده.

وكأنه جل شأنه قد قال لهـذا المؤمن الوصي على مـال اليتيـم: اعلـم بأنـّك مسـؤول، مسؤولية جزائية، عن ماتسمعه وتبصره ويجيش به فؤادك. فلا يحقّ لك أن تتبّع شـيئاً مـن ذلـك كلّه ممّا يرد إليك من المنافذ المذكورة، إلاّ بعـد أن تناقشـها، لتـدرك ماتحمله إليـك مـن أمـور إدراكاً كاملاً يفضي بك إلى اعتقادٍ جازمٍ ومطابقٍ للحقيقة والواقع. فهذا هو شأن المؤمن الـذي يسعى سعي الآخرة وليفوز بشكر ربه على ماأقدم عليه من أفعال.

فما أعظم هذه الحقيقة العلمية التي تضمنتها هذه الألفاظ؟ فالله الخالق ينبّه ذهن الإنسان إلى أنّ حواسه قد تخطئ وقد تحمل إليه الخطأ أيضـاً. ومـن واجـب الإنسـان ألاّ يتعجـلّ في أمر حسم الأمور، بل إنّ من واجبه أن يتحرى حقيقة ماسمعته أذناه وما رأته عيناه وماجاش به صدر لأوّل وهلة، وصولاً إلى إدراكٍ حقيقي كُلّي وجزئي، ووصولاً إلى اعتقاد مطابق للحقيقة والواقع أيضاً، وأنّ الإنسان الذي لايلتزم بهذا النهج المذكور آنفاً، لابد أن يلقى من جـانب ربـّه عقابـاً من جراء انحرافه عنه.

ثم إنّه لمّا كانت لشخصية التّاجر مقوّمات أساسية، إذا لم تتوفّر فيه يفشل في كثير مـن أمور تجارته. فقد راح الله جـل شـأنه يـُطلع هـذا المؤمـن الوصـي علـى مـال اليتيـم علـى هـذه المقوّمات الأساسية التي ينبغي له أن تتحلّى بها شخصيته التجارية، وقال له:

الآيــة الســابعــة والثــــلاثــــون
﴿ ولاتمش في الأرض مَرَحاً، إنك لن تخرِقَ الأرض، ولن تبلُغَ الجبال طولاً ﴾

فأتى بالواو العاطفة ليعطف هذه النصيحة على سابقاتها، كما أتى بفعل الأمـر (لاتمـشِ) من مشى إذا سار على رجليه. وبحرف (في) الذي يفيد الاستعلاء بمعنى على. وبكلمـة (مرحـاً) من مَرِحَ الرّجل: إذا بَطِرَ واختـال وتبخـتر (محيـط المحيـط)، وقـال تعـالى: **﴿ولاتمـشِ في الأرض مَرَحاً﴾** أي إيـّاك أيـّها المؤمن الوصي على مال اليتيم أن تعجب بنفسك لما صار إليك من أموالٍ تتصرّف بها وتتاجر، فايّاك أن تعجب وتختال وتتبختر. فهذه الصـّفات تتنافى ومقومـّات التـّاجر الناجح في تجارته. بل من واجبك أن تتحلّى بالتـّواضع والشعور بالمسؤولية والخشية من حسـاب ربـّك الذي عهد إليك بهذه الوصاية على أموال اليتيم.

ثم أتى جلّ شأنه بحرف (إنّ) للتوكيد به، وبفعل (تخرِق) من خرق يخرق أي كذب ولعب. ليقول: ﴿**إنّك لن تخرق الأرض**﴾ أي أنّك إن تعرّت شخصيتك من هذه المقومات الأساسية التي ذكرتها لك ومن صفه التواضع خاصـّة، فلن يمكّنك هذا التعرّي من الكذب واللّعب على أهل الأرض. كذلك ﴿**ولن تبلغ الجبال طولاً**﴾. ففعل (تبلغ) من بلغ وصل إليه أو أشرف عليه وأدركه. أمّا لفظ الجبال فجمع جبل، وقد يطلق على السّيد في قومه. أمّا (طولا) فمن طال الشيء امتدّ. وطال على فلان فهو طائل أي امتنّ عليه وأنعم، وطال طولك أي طال مكثُك وعمرك وغيبتك (محيط المحيط).

وكأنه جل شأنه راح يقول لهذا الوصي الذي لايلتزم بالتواضع، فيبطر ويختال ويتبختر، يقول له: إنّ عُجبه بنفسه واختياله وتبختُره، ماهي بالوسائل الطبيعية التي تُبلـِغْه مركز الزعامه بين النّاس. بل لابدّ له من أن يتّصف بالتواضع، وعليه أن يتحقق من كلّ أمرٍ يقدم عليه أو يصل إليه إلى حدّ مطابقته للواقع. فهذا هو طريق النّجاح في حمل المسؤوليّات الجسام. فالذي لايتصف بهذه الصفات، ويمشي في الأرض مرحاً، لابدّ أن يُمسي مكروهاً من الناس الذين من حوله في نهاية المطاف.

وهكذا يكون الله عزوجل ضمن أوامره هذه كلها مذ أمر بالتوحيد والابتعاد عن الشرك، بنوعيه ومذ أوصى بالإحسان إلى الوالدين ومن منطلق الأمور الخمسة التي يشملها هذا الإحسان إلى الوالدين. أقول يكون الله تعالى قد وضّح شرط الإيمان المطلوب الذي اشترطه في قوله تعالى: ﴿**ومن أراد الآخرة وسعى لها سَعيَها، وهو مؤمن، فأولئك كان سعيهم مشكوراً**﴾، كما يكون تعالى قد حدّد متطلبات المواطنيّة المؤمنة الصالحة، كذلك يكون قد أرسى قواعد مجتمع التّقدُم والإزدهار، هذا المجتمع الذي يحظى برضا الله تعالى وتأييده ونصرته. ويكون تعالى قد نبّه أذهان النّاس إلى أنّ مخالفة هذه النصائح والوصايا والأوامر الإلهية، لابدّ وأن تؤول بالفرد والمجتمع المخالف لمضامينها، أن تؤول بهم إلى التّخلف والانحطاط وفقد نُصرة الله وتأييده.

وبعد هذا كلّه راح تعالى يرشد هذا المؤمن ويُطلعه على حقيقةٍ طبيعيّةٍ لابدّ أن تكشف عنها التجارب العلمية وقال:

الآيـــة الـثـامنـــة والثــــلاثـــون
﴿ كلّ ذلك، كان سّيئُهُ عند ربّك مكروها ﴾

فالملاحظ أنّ الله تعالى لم يقل (كلّ هذا الذي ذكرناه كان سيئـّه). بـل اكتفـى بـالقول ﴿**كل ذلك كان سيّئه**﴾. هذا وقد كان لهذا الأمر دلالته وحكمته.

فهو تعالى استبدل هذا بذلك بادئ الأمر لتعظيم مادلّت عليه كلمة (كلّ). وكأنـه تعـالى قد قال بألفاظٍ أخرى إنّ كـلّ الوصايا والأوامر الـتي أسلفنا ذكرهـا، هـي عظيمـة مـن حيث جوهرها، لكنّ هذا لايمنع أن يكون لها جوانب سيئـّة. ذلـك أنـّه لايوجـد في هـذا العـالم خـيرٌ مُطلقٌ وشرٌّ مطلق. بل إن في كل شيء جانب خير وجانب شرّ. فيغلـب الخير أحيانـاً في أشـياء كما يغلب الشرّ في أشياء أخرى. لذلك فلابدّ أن تكون هـذه الأوامر والوصايا جوانـب سيئة تفرض على هذا المؤمن تجنّبها، لأن سيء هذا كلّه كان عند ربك مكروها.

فقوله تعالى ﴿**عند ربك**﴾ مؤلف من ظرف عند بمعنى الحكـم والاعتقـاد في هـذا المقـام. كذلك فكلمة (ربـّك) تشير إلى الربوبية وفعـل التطوير. للإشعار أنّ الجوانـب السّيئة في هـذه الوصايا والأوامر لم تكن هي المقصودة فهي مكروهة في نظر الإله الذي أصدر وصايـاه وأوامره التي تضمنتها تلك الآيات.

وتوضيحاً من جانبي لهـذا الأمـر، أتنـاول أمـره عزوجـل ﴿**لاتجعـل مـع الله إلهـاً آخـر**﴾ فالمؤمن الذي يكون موحـّداً غير مُشرك بربه عزوجلّ، ينبغـي ألاّ يدفعـه توحيـده هـذا إلى سـبّ المشركين وتحقيرهم وسب وشتم آلهتهم الباطلة. فإن هو أقدم على ذلك يكون قد أخـذ بالوجـه السّيء للتوحيد.

وهـو الأمـر الـذي وضحتـه الآيـة (١٠٨) مـن سـورة الأنعـام الـتي قـال تعـالى فيهـا:

﴿**ولاتسُبّـوا الذين يدعون من دون الله، فيسبُّـوا الله عَدْواً بغير علم..**﴾.

كذلك أتناول أمره تعالى القائل ﴿**وبالوالدين إحساناً**﴾. فـالابن الـذي يـُطيع والديـه في أمرٍ فيه معصية ربـّه عزوجلّ، يكون قد أخـذ بالوجـه السـيء لهـذا الأمـر الالهي بالإحسـان إلى الوالدين. وهو الأمر الذي وضـّحته الآيـة الثامنـة مـن سـورة العنكبـوت الـتي قـال تعـالى فيهـا:

﴿ووصيّنا الإنسان بوالديه حُسناً، وإن جاهداك لتُشرك بي ماليس لك به علمٌ فلاَ تُطعهما، إليّ مرجعكم فأنبّئكم بما كنتم تعملون﴾.

وأتناول أمره تعالى: ﴿ولاتقتلوا النّفس التي حرّم الله إلاّ بالحق..﴾. فهذا أمر عام، لاينبغي أن نفهم منه أنّ قتل المعتدي على أوطاننا أو على ديننا يشمله هذا الأمر لعام، بل إنّ من الفضائل أن يدافع الإنسان عن وطنه ودينه. ففي الآية (١٩٠) من سورة البقرة أمرنا الله عزوجلّ وقال: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذي يقاتلونكم، ولاتعتدوا إنّ الله لايحب المعتدين، واقتُلوهم حيث ثقفتموهم، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم، والفتنة أشدّ من القتل..﴾. وعليه فإن الامتناع عن قتل المعتدي هو الوجه السّيء للنّهي عن القتل، فهذا السيء كان مكروهاً عند الله عزوجلّ، وقس على ذلك بقية الأوامر والوصايا التي تضمنتها تلك الآيات السابقة، والتي لم يغفل كلام الله ووحيه التنبيه إلى جوانبها السّيئة في المقامات المناسبة لذكرها.

من هذا كلّه نُدرك عظمة صياغة ودلاله قوله تعالى ﴿كل ذلك كان سيّئه عند ربّك مكروهاً﴾ فهو تعالى نبّه من خلال هذه الصّياغة البلاغية المعجزة إلى حقيقة أنّه لايوجد خير مطلق ولاشرٌّ مطلق في هذا الوجود، لذلك كان لهذه الأوامر أوجهها السّيئة عند التطبيق العملي، يجب الحذر منه على اعتباره جانباً سيّئاً في نظر الله تعالى الذي أصدر هذه الأوامر جميعها.

إلى هنا يكون الله عزوجلّ قد نبّه أذهان بني اسرائيل إلى أهميّة شرط الإيمان الذي اشترطه تعالى على الذي يسعى سعي الآخرة وليكون سعيه عند الله مشكوراً. وكأنّه قد قال تعالى لبني اسرائيل الذين يمكرون بالإسلام، عوضاً عن أن يؤمنوا به. خاصبهم وقال اعلموا أنّه لايكفيكم عملكم على أوامر ربّكم الذي تلقّاها نبيّكم موسى من قبل واحتوت عيبها هذه التوراة التي ترجعون إليها. فتلك الأوامر عادت قاصرة عن تلبية احتياجات البشر، لذلك أنزلنا هذا القرآن الذي اشتمل على هذه التعاليم الأقوم من تعاليم توراتكم المعاصرة فإن مكرتم به، تكونون كمن يمكر بنفسه.

فبدون الإيمان بهذا القرآن وبتعاليمه الأقوم لايُعدّ سعيكم للآخرة سعياً مشكوراً من ربّكم، ولذلك فأنتم محرومين بعد اليوم من تأييد الله تعالى ونصرته.

وهذا الأمر دفع الله عزوجلّ ليضيف ويقول:

الآيــة الـتـاسعـــة والثـــلاثـــون

﴿ ذلك ممّا أوحى إليك ربّك من الحكمة ، ولاتجعل مع الله إلهاً آخر فتُلقى في جهنّم ملوماً مدحوراً ﴾

وهو تعالى قد أتى من جديد باسم الإشارة للبعيد (ذلك) عوضاً عن هذا ليفيد تعظيم جميع ما أدلى به من مواعظ وأوامر ووصايا سلف بيانها. ومضيفاً قوله **﴿ممّا أوحى إليك ربّك من الحكمه..﴾** بمعنى أنّ جميع هذه الأوامر العظيمة التي سلف بيانها، إنّما هي جزء بسيط أيضاً ممّا أوحى الله تعالى به من الحكمة إلى رسوله (ص) في هذا القرآن الأقوم. ونتساءل: فما هي دلالة (من الحكمة) في هذا المقام؟ دلالته أنّ جميع ماتضمّنه هذا القرآن الأقوم من أوامر ووصايا ومواعظ، فهي كلام موافق للحقّ، ويضع الأمور في مواضعها، ويمثل صواب الأمر وسداده ـ فهي تعاليم أتقنت طرح الفكر، والنهج العمليّ وأحكمته. فهذه هي دلالات كلمة الحكمة على حسب ما أوردها اللّغويّون.

وكأنّه جلّ شأنه قد خاطب من خلال مضمون هذه الآية بني اسرائيل بأسلوب غير مباشر وقال: فكرّوا أفي توراتكم مثل هذه التعاليم التي أتى بها هذا القرآن الأقوم، والـمُفعمة بالحكمة والتي تضع الأمور في مواضعها، وتُسدي للمؤمن بالرأي السّديد الذي يفيده قولاً وعملاً؟ فأين تعاليم الإحسان إلى الوالدين ممّا في هذه التوراة المعاصرة وبهذه التّفاصيل؟ وأين تعاليم إعانة ذوي القُربى ممّا في هذه التوراة المعاصرة؟ وأين الأمر برعاية الأيتام وإيجاد أوصياء على أموالهم ممّا في هذه التوراة المعاصرة وبمثل هذه التفاصيل في توراتكم هذه التي نسخناها واستبدلناها بهذا القرآن الأقوم منها؟ علماً بأنّنا لم نبيّن في الآيات السالفة الذكر جميع ما أنزلناه من وحي على رسولنا محمد الصّادق الأمين، بل بيّنّا القليل القليل ممّا أنزلناه عليه من تعاليم فهل أنتم مهتدون؟

وما أن فرغ جل شأنه من عمليّة الغمز هذه بجانب هؤلاء اليهود، إلاّ وأتى بالواو العاطفة ليعطف ماسيأتي بيانه على سابقه وقال: **﴿ولاتجعل مع الله إلهاً آخر فتُلقى في جهنّم ملوماً مدحوراً﴾**. بمعنى أن يا أيّها الذي يسعى سعي الآخرة ليفوز بشكر ربه وتفضيله، لايكفي لك أن أمرناك ألاّ تشرك بي شيئاً، بل ونأمرك أيضاً ألاّ تصطنع لك محبوباً آخر غير الله الذي هو محبوبك الحقيقي.

وإلاّ (فتُلقى) الفاء فاء الاستئناف، وجيء بها ليستأنف ربّنا الكلام عن موضوع جديدٍ طرحه. ثم إن فعل تُلقى مشتقٌ من ألقاه إلى الأرض: أي طرحه، وأين تُلقى إن اصطنعت لك محبوباً إلى جانب محبوبك الحقيقي؟ ﴿**فتُلقى في جهنّم**﴾ أي تُردّ إلى أسفل سافلين. فجهنّم عَلَمٌ لدار العقاب، ومرادف للنّار على حسب قول البيضاوي. وجهنّم بعيدة القعر. (محيط المحيط)

ولم يقف جل شأنه ضمن تهديده هذا عند هذا الحدّ بل أضاف يقول (ملوماً) أي مستحقّاً اللّوم على مافعلت. و (مدحوراً) من دحره أي طرده وأبعده ودفعه (محيط المحيط) أي فتُلقى بعيداً عن ربّك الحقيقيّ مدفوعاً عنه ومطروداً.

والسؤال الآن: هل أنّ في القرآن الكريم تكرار، أم أنّه يخلو من هذا التكّرار الذي لايتفق وإعجازه؟ فإن نحن سلّمنا بعدم وجود تكرار في كتاب الله العزيز، فبماذا نفسّر تكرار قوله تعالى ﴿**ولاتجعل مع الله إلهاً آخر..**﴾ في هذه الآية، وفي بداية الكلام عن شرط الإيمان؟

والجواب القاطع هي نفي وجود تكرار في القرآن الكريم، وإنّ مايتبادر لذهن القارئ لأوّل وهلةٍ من أنّه ظاهرة تكرار، لايشكّل في حقيقته تكراراً، بل طرحاً للأمر الواحد من زاوية نظر جديدة وبمعنى جديد. ولاتنكشف هذه الحقيقة إلاّ على الإنسان الضلّيع بأصول تفسير القرآن المجيد.

فمن جُمله أصول تفسير كتاب الله العزيز الرجوع إلى مايُنهي الله عزوجلّ به الآيات. ففي تلك النهايات يكمن مفتاح حلّ كلّ إشكال يعترض متدبّر آيات هذا القرآن الكريم. وهو أسلوبٌ تفرّد به هذا الكتاب السّماوي المعجز العظيم.

والآن إن انطلقنا هنا هذا المُنطلق الذي وضّحناه. نلاحظ أنّ ما أنهى الله تعالى به قوله في البداية ﴿**ولاتجعل مع الله آلها آخر**﴾، يختلف اختلافاً بيّناً عمّا أنهى جل شأنه به قوله الثاني الذي نحن بصدده والمثيل لقوله الأول. فهناك أنهى قوله وقال: ﴿**فتقعد مذموماً مخذولاً**﴾ على حين أنّه تعالى أنهى قوله هنا وقال: ﴿**فتُلقى في جهنّم ملوماً مدحوراً**﴾ وبين النهايتين فرق كبير في الدّلالة على حسب ماوضّحناه في محلّه.

وبالنّظر إلى دلالة ﴿**فتُلقى في جهنّم ملوماً مدحوراً**﴾، يُستدل على أنّ الله عزوجلّ لايكرّر قوله ﴿**ولاتجعل مع الله إلهاً آخر**﴾، بل يطرح نفس الموضوع من جديد، إنّما بطرح جديد وبمعنى جديد ومن زاوية نظر جديدة. وهذا الأمر يدخل في باب تصريف الموضوع الواحد لعدّة اتجاهات.

هذا وإنّ الطرح الجديد يدور في عالم معرفة الله عزوجلّ ومحاولة التعرّف إليه، والقوانين الناظمة لموضوع العرفان الإلهي الذي تدور تعاليمه حول ضرورة أن تتوفّر في نفس المؤمن محبّة حقيقيّة لله وحده من دون سائر خلقه. ويفسّر هذا الطرح الجديد كما ذكرنا ما أنهى الله تعالى به قوله هنا ﴿**ولاتجعل مع الله إله آخر، فتُلقى في جهنّم ملوماً مدحوراً**﴾. فلم يقل تعالى ولاتجعل مع الله معبوداً آخر بل إلها آخر. والإله اشتق من الوله أي المحبّة.

فالموضوع إذاً موضوع نهيٍ عن محبّة حقيقيّة لسوى الله تعالى. والنتيجة المتوقّعة هذه المحبّة لسوى الله تعالى هي استحقاق اللوم والبعد عن الإله الحقيقي.

فبهذا المُستوى من تدبّر آيات القرآن الحكيم، ينتفي معنا كلّ تكرار يتبادر لأذهاننا لأوّل وهلة. ويتجلّى بالتالي لنا أنّ الله عزوجلّ الذي غمز جانب بني اسرائيل بأسلوب غير مباشر في هذه الآية الكريمة الأخيرة. قد راح يصرّف موضوع الأمر بوحدانيته، ويطرحه طرحاً جديداً وبمعنى ودلالة أعمق بكثير من الدّلالة الأولى. إمعاناً من جانبه عزوجلّ في غمز جانب بنو اسرائيل وليقول لهم أين هذه التعاليم وأين ماورثتموه من تعاليم؟ وأنّ موقفكم من هذا الكتاب ومكركم به وبأهله قد أتى نتيجةً طبيعيةً لتناسيكم نبوءة سفر التثنية ١٨/١٨ التي أنبأت عن بعث محمدٍ بهذا القرآن الأقوم.

ولمّا كان من المعلوم أنّ الذي يتناول موضوعاً جديداً، لابدّ أن يُقدّم لموضوعه الجديد بمقدّمةٍ تكون كبداية له ومدخل يدخل منها إليه. فالذي لاحظناه أنّ الله عزوجلّ أتى بهذه المقدّمة لموضوعه الجديد، وقال:

الآيـــة الأربعـــون

﴿ أفأصطفاكم ربّكم بالبنين، واتخذ من الملائكة إناثاً، إنكم لتقولون قولاً عظيماً ﴾

وقد صاغ الله جلّ شأنه مقدّمة موضوعه هذه صياغة بلاغيةً هي في منتهى الإعجاز البياني، وهي تدور حول زعم اليهود أنّهم شعب الله المختار.

فهو تعالى أتى بهمزة الاستفهام الإنكاري، وبفعل (اصطفاكم) من اصطفاه أي اختاره من صفوة الخلق. كما استعمل فعل (اتّخذ) الدّال على التّصيير والاستكانه. وأتى بكلمة (إناثاً) جمع انثى خلاف الذكر وبمعنى الموات في هذا المقام على حسب ماورد في معجم (محيط المحيط)،

وقال: ﴿أفا صطفاكم ربكّم بالبنين، واتـخذ من الملائكة إناثـاً﴾. أي أتزعمـون يـابني اسـرائيل أنكم شعب الله المختار المختـصّ بـالبنين، وأنّ الملائكـة المخصصّـين لحمايـة ونـُصرة رسـل الله عادوا مواتاً لايقدرون على حماية أيّ رسول يبعثه الله تعالى بعد نبيّكم موسى عليه السلام؟

وأضاف جل شأنه يُبدي استهجانه من هذا الزّعـم الـذي يزعمـه هـؤلاء اليهـود، وقـال: ﴿إنكّم لتقولون قولاً عظيماً﴾ فأتى بإن لتوكيد مايستهجنه وبفعـل ﴿لتقولـون﴾ مـن قـال أي تلفّظ. وبكلمة ﴿قولاً﴾ بمعنى اعتقاداً. و ﴿عظيماً﴾ من عظم الشيء كَبُر وخلاف صغر. أي اعتقاداً مُستعظماً ومُستهجناً في نظر العقل لقوله تعالى في مقام آخر ﴿إن الشرك ظلـم عظيـم﴾ لقمان ١٣ أي مُستهجن في نظر أصحاب العقول. وكأنه جل شأنه قد خاطب اليهـود أن يـابني اسرائيل إنكّم إذ تزعمون أنكّم شعب الله المختار، تتلفّظون باعتقادٍ مُستهجنٍ في ميزان العقـل وفي نظر أصحاب العقول، وهو زعم لايستند إلى دليلٍ منطقي.

وقد راح جلّ شأنه يلفـت نظـر القـارئ إلى أنّ طرحـه لموضوعـه الجديـد هـو مـن بـاب تصريف الدّلالات باتجاه جديد، وقال:

الآيـــة الحـاديـة والأربعــــون
﴿ ولقد صرّفنا في هذا القرآن ، ليذكّروا ، ومايزيدُهم إلاّ نـُفُوراً ﴾

فهو جل شأنه أتى بالواو العاطفة، وبقد الحرفية الداخل عليها لام الابتداء لتُمسي (لقد). وأتى كذلك بفعل (صرّفنا) من صرّف الكلام اشتق بعضه من بعض (محيط المحيط). هـذا الفعـل الذي يعمد إليه الأديب ليكُمل الإيضاح ويقوّي البيـان. وأضـاف تعـالى موضـّحاً الحكمـة مـن ذلك وقال ﴿ليذكّروا﴾ من ذكر الشيء حفظه في ذهنـه. (محيـط المحيـط) أي ليتـأملوا ويتدبّـروا ويفهموا.

والمعنى أنّنا إذ نطرح موضوع التّوحيد طرحاً جديـداً، فلـلردّ علـى زعـم اليهـود أنـّهم شعب الله المختار. وهذا نهج بياني انتهجناه في هذا القرآن. وقد كان قصدُنا من هذا التّصريف لموضوع التوحيد هنا (ليذّكروا) أي ليحفظ هؤلاء اليهود الذين خصّصنـا هـذه السّورة للكـلام عنهم ليحفظوا مانطرحه طرحاً جديداً وليفهموه ويتأمّلوه ويتدبّروه.

وأضاف جل شأنه يقول: ﴿ومايزيدهم إلاّ نفوراً﴾. أي أنّ اعتقـادهم بما يزعمونـه بلـغ جدّاً ماعادت عقولهم لتستسيغ مانصرّفه لهم في هذا القرآن، ومايزيدهم تصريفنـا لهـذا الموضـوع إلاّ نفوراً أي جزعاًوبـُعداً عن الإسلام كنفوز الدّابة التي لم توهب عقلاً ولا استيعاباً.

ومن ثمّ راح جل شأنه يتناول قوله ﴿ولاتجعل مع الله إلهاً آخر﴾ ويطرحه طرحاً جديداً ويقول:

الآيــة الثــانيـة و الأربعـــون

﴿ قل لو كان معه آلهةٌ كما يقولون ، إذاً لابتغوا إلـى ذي العرش سبيلاً ﴾

ففعل (قل) هنا استُعمل بمعنى بلّغ، كما أنّ حرف (لو) يقال له حرف امتناع لامتنـاع، أي امتناع الجواب لامتناع الشرط. أما قولـه (كمـا يقولـون) أي كمـا يزعمـون ويدّعـون عـن أنفسهم أنـّهم شعب الله المختار. و (العرش) من القوم رئيسهم المدبّر لأمرهـم. و (سـبيلاً) أي ماوضح من الطريق (محيط المحيط).

فهو جل شأنه طرح موضوع ﴿ولاتجعـل مـع الله إلهـاً آخـر..﴾ طرحـاً جديـداً، بمعنـى لاتجعل مع الله محبوباً آخر تحبّه محبتّك للإله الحقيقي، ومن ثـمّ توجـّه إلى رسـوله الكريـم مـن مُنطلق هذا الطرح الجديد وقال له، أن يامحمد بلّغ هؤلاء اليهـود أنـّه لوكـان يوجـد مـع هـذا المحبوب الحقيقي إله آخر اتـّخذهم شعبه المختار، على حسب مايزعم بنو اسرائيل ﴿إذاً لابتغـوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾. فاللاّم للتبيّن. و (ابتغوا) من بغاه أي طلبه. إلى ذي العرش أي إلى مـن يزعمونـه أنـّه صـاحب العـرش ومحبوبهـم الحقيقـي. (سـبيلاً) أي مـاوضح مـن طريقهـم الـذي اختاروه. (محيط المحيط)

والمعنى مادام ذو العرش الذي يزعمون أنـه محبوبهـم الحقيقـي والمدبـّر لأمرهـم موجـوداً ويشركونه مع إلهك ومحبوبك الحقيقي يـامحمّد، فلكـان هـؤلاء طلبـوا ودّ ذي العـرش المذكـور، وتقرّبوا منه وتأيّدوا بالتّالي بنُصرته وتأييده، ليُثبتوا مـن جرّاء ذلـك صحـّة مايزعمونـه. لكـنّ شيئاً من هذا لايبدو عليهم، بل الذي يبدو للعيان أنـّهم في أسفل سافلين، وملومـين ومدحوريـن عن إلهك الحقيقي الذي أنزل عليك هذه التعاليم التي تشكّل جزءً بسيطاً من هذا القرآن الأقوم.

ولم يقف الله جل شأنه عند هذا الحدّ من التحدّي لبني إسرائيل، بل وأضاف يقول مُتبرّئاً من مزاعمهم، وقال:

الآيــة الثـالثـة و الأربعــون
﴿ سبحانه وتعالى عمّا يقولون علوّاً كبيراً ﴾

مستهلاً قوله هذا بـ (سبحانه) بمعنى تنزّه الله تعالى عن أن يكون قد اتّخذ بني اسرائيل شعبه المختار. و (تعالى) أي وترفّع الله تعالى عن أن يفرّق بين عباده عنصرياً، فيختار قسماً منهم كشعب مختار، ويترك الباقين وكأنهم ليسوا من عباده. فالله عزوجلّ تنزّه وترفّع عن هذه السّفسطات ﴿**عُلُواً كبيراً**﴾، أي تنزُّها وترفُّعا أعظم ممّا يخطر ببال أي مخلوق كان وذلك ليشعر تعالى رسوله الكريم أنّ حدوث مايزعمه اليهود، هو من قبيل المستحيلات.

ولم يكتف الله عزوجلّ بتبرئة ذاته المقدّسة ممّا يزعمه بنو اسرائيل من زعم مستحيل حدوثه بل وانبرى جلّ شأنه ليدلّل على وحدانيته التي أمرنا بها من خلال قوله تعالى: ﴿**ولاتجعل مع الله إلهاً آخر..**﴾. فقدّم دليلين عِلميّين كونييّن لإفحام هؤلاء اليهود، ومن لفّ لفّهم من المشركين، وقال:

الآيــة الـرابعــة و الأربعــون
﴿ تُسبّح له السموات السّبع والأرض ، ومن فيهنّ ، وإنّ من شيءٍ إلاّ يُسبّح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم ، إنّه كان حليماً غفوراً ﴾

قال ﴿**تُسبّح له**﴾ أي تُنزّهه. وقد أراد بكلمة (السّبع) الكثرة. فمن خلال قوله هذا ﴿**تُسبّح له السّموات السّبع والأرض ومن فيهنّ**﴾. يكون تعالى قد قدّم دليلاً علمياً كونياً. وهو أنّ الإنسان إذا تأمّل جميع مافي السموات والأرض، يُلاحظ خضوعها جميعها لقوانين طبيعيّة واحدة، على الرّغم من هذه المسافات الهائلة التي تفصل بين أجزائها، فلو كان لهذا الكون خالقان وإلهان، لاستحال وجود ظاهرة هذه القوانين الطبيعيّة الواحدة. بل لكانت اختلفت القوانين الناظمة لهذا الكون من مكانٍ لآخر. وعليه فإنّ ظاهرة وحدة هذه القوانين الطبيعية الناظمة لهذا الكون، هي بمثابة تنزيه عمليّ وتسبيحٍ لخالقها ومُبدعها. هذا الإله الواحد

والمحبوب الحقيقي والذي لاشريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في مُلكيته لهذا الكون اللاّ نهائي. فهذه حقيقة تشكل الدّليل العلميّ الكوني الأوّل.

أمّا الدليل العلمي الكوني الثاني، فقد عبّر عنه تعالى فيما أضافه وقال: **﴿وإن من شيءٍ إلاّ يُسبّح بحمده﴾** أي وإذا تأمّل الإنسان كلّ شيء من أشياء هذا الكون منفرداً عن سواه، وأعمل نظره في تكوينه، يبدو لعينيه أنّ هذا الكيان، إن هو إلاّ ظاهرة تجليّات أسماء الله الحسنى التي عملت على تكوين هذا الشيء وكل شيء سواه. فصفات الخالق العليم الحكيم القادر العزيز الرحمن الرحيم الغفّار الستّار الحكيم وما إليها من أسماءٍ حُسنى تتحلّى بها الذات الإلهية، تبدو متجلّيةً في هذه الأعضاء لكيان كل شيء، وفي أجهزته الداخليّة، وفي حواسه. الأمر الذي يُستفاد منه أنّ الذات الخالقه والمالكة لجميع هذه الأشياء هي واحد لاشريك له في خلقه ولا في ملكيته أيضاً.

وهذا الأمر يشكّل في حدّ ذاته الدليل العلمي الكوني الثاني على وجود الإله الأحد الحقيقي.

وهنا أتى الله جل شأنه بحرف الاستدراك (لكن) وأضاف قائلاً: **﴿ولكن لاتفقهون تسبيحهم﴾**. أي لايعترض معترضٌ على ماأدلينا به من دلائل علمية وكونيه، ويدّعي التباس فهمه لهذين الدّليلين العلميين. **﴿ولكن لاتفقهون تسبيحهم﴾** أي أن المُعطيات العلمية لهذا الزّمان الذي أنزلنا فيه هذا القرآن الأقوم، لاتساعد على الإحاطة بفهم مضمون هذين الدليلين العلميين الكونيين بالسهولة التي ترجونها. أمّا بعد أن تتطوّر العلوم، وتُكتشف مجاهل الفضاء وبعد أن تحصلوا على تقنيّةٍ تمكنكّم من تشخيص أعضاء وحواس وأجهزة كل شيء تشخصياً حقيقيّاً. فستعلمون وبشكل يقيني وعلميّ كيف **﴿تسبّح له السموات السّبع والأرض ومن فيهن، وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده﴾**. ذلك أنّنا لم نُنزل هذا القرآن لمعالجة زمانكم وحده، بل لمعالجة كل زمان وإلى يوم الدّين.

وهو جلّ شأنه وتأكيداً من جانبه للحقيقة التي عرضها آنفاً، أضاف يقول: **﴿إنّه كان حليماً غفوراً﴾**. فأتى بإنّ للتوكيد. وبصفته (حليماً) من حَلُم الرجل كان ذا حُلْم وصفحٍ وستر. وبصفته (غفوراً) من غفر الشيء غفراً: ستره. وغفر الله له ذنبه غطّى عليه وعفا عنه.

والمعنى أفلا تلاحظ أيّها الإنسان كيف يعاملك ربّك بالحلم والمغفرة؟ وهل أنّ الدّاعي إلى هذه المعاملة إلاّ ضعف مُعطياتك العلمية والسبب في تمردّك على ربّك ومعصيتك له بسبب

جهلك العلمي لهذه الحقائق التي تضمّنتها أدلتنا العلمية الكونية التي قدمناها لك تدليلاً من جانبنا على وجودنا ووحدانيّتنا؟

وعلى هذا الأساس يكون الله عزوجلّ قد طرح موضوع توحيد ذاته طرحاً جديداً ونبّه من خلاله إلى أن الإنسان الذي يشرك بالله تعالى، ولايتّخذه محبوباً حقيقيّاً له، ولايسعى للفوز بمحبّته، لابدّ أن يفقد هذا الإنسان تأييد ربّه ونُصرته، ويُردُّ بالتالي أسفل سافلين ويحرم من قرب ربه ومن رؤية أنواره.

كذلك فقد قدّم الله تعالى هذين الدليلين العلميّين الكونيّين لُيثبت من خلالهما وحدانيته التي يدعو عباده للاعتقاد بها فلا يُشركون به بعدها أحداً. واظهاراً من جانبه تعالى أنّه لايأمر بأمرٍ إلا ويكون في صالح هذا الإنسان ويقوم على أساسٍ علميّ أيضاً.

ثم إنّ الله عزوجل وقد طرح هذا الطرح الجديد، وإذ قدّم هذه الأدلّة العلمية، فليثبت لبني إسرائيل أنّ ما احتواه كتابه القرآن الأقوم من تعاليم، لامجال لمقارنتها مع ماتحتويه التوراة المعاصرة التي بين أيديهم، مع هذه التّعاليم السّامية، ويثبت بالتالي ضرورة نسخ التوراة واتباع هذا الرسول محمد (ص) وهذا القرآن الذي أنزله الله تعالى على قلبه. وليُعيد اليهود النّظر فيما آلوا إليه من بُعدٍ عن الله تعالى، وفُقدانٍ لنصرته تعالى وتأييده، وليدركوا مدى خطر زعمهم أنّهم شعب الله المختار.

وبما أنّه كان في علم الله الغيبيّ أن اليهود لن يستفيدوا من هذا الوعظ القرآني، ولامن توعُّد الله تعالى إيّاهم في أول هذه السّورة فيما يتعلق بمصيرهم المأساوي الأخير الذي سيؤولون إليه آخر الزّمان؛ أي زمن البعثة الثانية للإسلام، وهو الزمن الذي اصطلح له القرآن المجيد إسم (الآخرة). لذلك يُلاحظ أنّ الله عزوجل راح يتبنّأ عن حال اليهود ويقول:

الآيــة الـخامســة و الأربعـــون

﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ﴾

فأتى تعالى بالواو العاطفة ليعطف مايتنبّأ به عن حال اليهود المستقبلي، على مابيّنه تعالى لهم حتى اللّحظة ثم أتى بالظرف (إذا) الذي يفيد الزمن المُستقبل، والمتضمّن معنى الشّرط، والمختص بالدّخول على الجملة الفعليّة. ثم أتى تعالى بفعل (قرأت) من قرأ القرآن تلاه، وقرأ

عليه القرآن بلّغه له (محيط المحيط). كما أتى باصطلاح الآخرة لمناسبته للمقام، وإلاّ فإنّ اليهود يعتقدون بوجود الحياة الآخرة. وقال (حجاباً) من حجبه أي ستره ومنعه. والحجاب هو السّتر وكل ما احتُجب به، جمعه حُجُب. وقد يراد أحياناً بالحجب مايحول بين شيئين كالنجاسة مثلاً تحول مابين النجس والطاهر. والاختلاف في العقيدة يحول مابين ائتلاف الأشخاص. وقال (مستوراً) من ستر الشّيء غطّاه. والمستور اسم مفعول أي حجاباً على حجاب، دلالةً على كثافة وتعدُّد الحُجُب. والمفعول هنا بمعنى الفاعل وأمثلته كثيرة في كتاب الله العزيز (محيط المحيط).

ويكون معنى الآية أنّه عندما يأتي زمن البعثة الثانية للإسلام ويقوم من يمثّلك يامحمد يومها بتبليغ هؤلاء اليهود أنّهم ماداموا قد واظبوا على مكرهم بالإسلام وأهله، و لم يتّعظوا بما توعّدهم الله تعالى به في هذا القرآن زمن البعثة الأولى للإسلام، ﴿**جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة ـ أي بوعيد الآخرة من اليهود ـ حجاباً مستوراً**﴾. جعلناه يحول دون تقبُّل اليهود ودين الإسلام يومئذٍ ديناً لهم فلا يعرضون بالتالي عمّا توارثوه من دين.

ولابدّ من الملاحظة هنا أنّ أوّل آية من آيات هذا القرآن، وكان تلقاها محمد رسول الله (ص) في غار حِراء هي (إقرأ) بمعنى بلّغ. ولذلك قبل هنا ﴿**وإذا قرأت القرآن**﴾ أي أنّ زمن البعثة الثانية للاسلام سيتطلّب دعوة اليهود من جديد إلى تقبّل هذا القرآن وما احتواه من وعيد متعلّقٍ بمصيرهم إن هم، تخلّفوا، و لم يستجيبوا للصوت الإلهي الحديد.

كما ينبغي الملاحظة هنا أيضاً، أنّ الله عزوجلّ يُلفت الأنظار بأسلوبٍ بلاغيٍ معجز، تنبيهاً إلى أنّه إنّ حال بين اليهود وبين تقبلّهم هذا الدين في صدر الإسلام ستارٌ من العصبيّة لكتابهم. فإن هؤلاء اليهود الذين راحوا يمكرون بالإسلام وأهله، ستعود بينهم وبين قبولهم هذا القرآن زمن البعثة الثانية للإسلام عدّة أستار وحُجُب. فهذه الحقيقة المذكورة تكمن فمن قوله عزوجلّ في هذه الآية الكريمة ﴿**حجاباً مستوراً**﴾ أي حجاباً فوق حجاب، وكلّ حجاب يستره حجاب آخر سواه. إشارةً إلى أنّ حقد اليهود على الإسلام، وحسدهم إيّاه، ومكرهم به وبأهله، وزعمهم أنهم شعب الله المختار، وسوء أخلاق أفرادهم، وكثرة أمواهم. كل هذه الأمور شكّلت (حجاباً مستوراً) بين اليهود وبين تقبلّهم الإسلام يوم يحق وعيد الآخرة عليهم.

والله جلّ شأنه راح يوضّح قوله هذا الـذي أجمله وهـو ﴿**وجعلنـا بينـك وبـين الذيـن لايؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً**﴾، أقول راح تعالى يُـلقي الضّوء على مـاذكره ويفصـّله لـك ولذلك أضاف يقول:

الآيــــة الســـادســـة و الأربعـــــون
﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنّةً أن يفقهوه ، وفي آذانهم وقراً ، وإذا ذكرت ربـّك في القرآن وحده ، ولوّا على أدبارهم نفوراً ﴾

فكلمة (أكنـّة) جمع كنّ من كَنَّ المرء عِلْمَه أو خُلُقه أو حَسَده أو حَقْده بمعنى أسرّه ولم يُظهره وأخفاه أمّا كلمة (وقراً) من وقَرَت أذُنُه ثـقُل سمعها، أو ذهب سمعها كلـّه وصُمـّت. وجعل الله وقراً في أذنه، أثقلها وذهب بسمعه (محيط المحيط).

ويكون معنى قوله تعالى: ﴿**وجعلنا على قلوبهم أكنـّةً أن يفقهوه**﴾ أي أنّ اطّلاعنا على مايكُنّه هؤلاء اليهود للإسلام من حقدٍ وحسدٍ يـخفونه في أفئدتهم، فقد جعلنا من ذلـك كُنّـة ستائر وحُـجُباً تحجبهم وتحول بينهم وبين أن يفهموا دلالات آيات هذا القرآن علماً بأنّ حـرف (أنْ) هنا تفسيرية.

كذلك اصطنعنا من هذه الأمراض الخافية في أفئدتهم في آذانهم وقراً، فأثقلنا سَمْع آذانهم فَصُمّوا عن سَمْع كلامنا المذكور.

ومن ثم أتى جلّ شأنه بالواو العاطفة وقـال: ﴿**وإذا ذكـرت ربـّك في القـرآن وَحْـده، ولـّوا على أدبارهم نفوراً**﴾. أي أنـّهم فوق هذا وذاك من هذه الأمـراض الـتي تعمـر أفئدتهـم، يُنفرّهم أن تواجههم بقرارنا بنسخ التوراة التي بين أيديهم، فلا تذكـر ربـّك إلا في القـرآن، أي في حال لاتمجـّد ربـّك ولاتُسبّحه إلاّ وفقاً لتعاليم هذا القرآن الذي أنزلناه عليك. هذا من حيث أن معنى ذَكَرَ الله مجدّه وسبـّحه وذكر الشيء يذكره ذكراً حفظه في ذهنه (محيط المحيط). وهذا وإنّ ضمير كلمة (وحده) يعود على هذا القرآن، وليس على (ربـّك).

ولم يقف جل شأنه عند هذا التوضيح والبيان، بل أضاف معلومة لايعلمها إلاّ الله عـلاّم الغيوب. فهو أضاف وقال:

الآيـــة الســـابعـــة و الأربعـــــون
﴿ نحن أعلم بما يستمعون به ، إذ يستمعون إليك ، وإذ هم نجوى ، إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلاّ رجلاً مسحوراً ﴾

فقوله (يستمعون) من استمع إليه: أصغى (محيط المحيط). فالله جلّ شأنه علاّم الغيوب يُخبرنا ويقول: ﴿**نحن أعلم بما يستمعون به**﴾ أي نحن أعلم بالوجه والحاله النفسية التي يستمعون به إليك وهي حالة الهزؤ والتكذيب وليس حاله طلب الحقيقة. فالجار والمجرور (به) هنا في موضع الحال.

كما تقول: مستمعين بالسُّخرية والهُزُؤ. ثم إنّ قوله ﴿**إذ يستمعون إليك**﴾ في محل نصب بأعلم. أي نحن أعلم وقت استماعهم إليك وبما يستمعون. ﴿**إذ يقول الظالمون**﴾ وهذا بَدَل من ﴿**وإذ هم نجوى**﴾. بمعنى أنّ الظالمين منهم الذين ما اعتادوا أن يضعوا الشيء في موضعه ويجورون، فلا يسمّون الأشياء بأسمائها. إنّ هؤلاء الظالمين من هؤلاء اليهود يقولون للذين جاؤوا برفقتهم يستمعون ﴿**إن تَتبّعون إلاّ رجلاً مسحوراً**﴾. وكلمة مسحوراً من سحره: خدعه وقدّم له رأياً فاسداً. وكلمة (تتبّعون) من تبعه مشى خلفه، أو مرّ فمضى معه (محيط المحيط).

وعليه فالله عزوجلّ يخبرنا بمّا يُسّره هؤلاء الظالمون فيما بينهم، وهم يتقصّون أثر رسول الله (ص) أو حين يمرّون بجانبه يستمعون ويُصغون لما يتلوه من كتاب الله ووحيه. ويقول إنّ المضلّلين الظالمين منهم الذين ما اعتادوا أن يطلبوا الحقيقة ولا أن يُسمّوا الأشياء بأسمائها يُسّرون إلى الذين بجانبهم وهم في حالة سُخرية واستهزاء، إنّكم تمشون أو تمضون مع رجلٍ مسحورٍ أي مخدوعٍ بما يحدث معه، ولذلك تكون آراؤه فاسدة.

فلّما انتهى الله جل شأنه من توضيح حالة اليهود النّفسية، ومن الإخبار عمّا يَتناجون به فيما بينهم ويُسّرونه بعضهم لبعض، عاد فتوجّه بخطابه القدسي إلى رسوله الكريم يخفّف عنه، ويقول:

الآيـــة الـثـامنـــة و الأربعـــون
﴿ أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلُوا ، فلا يستطيعون سبيلاً ﴾

أي لاتذهب نفسك يامحمّد على هؤلاء اليهود حَسَراتٍ، ذلـك لأنـّهم فقـدوا مُقوّمـات الهداية والرّشد وانعدمت لديهـم القـدرة علـى تبيُّـن سـبيل الهـُدى والحق، فـانظر كيـف أنـّهم يشبّهونك بالمسحور فضلّوا بهذا التّشبيه خصوصاً وأنّ نجواهم فيمـا بينهـم تـتّـصف بحالـة الهـزؤ والسُّخرية أيضاً.

فهو تعالى استعمل فعل (انظر) أي تأمل فيمـا أخبرنـاك بـه مـن حـالهم. فهـم يُشـبّهونك بالمسحور. وهذا معنى (كيف ضربوا لك الأمثال). وهو تعالى أتى بعدها بفاء الاسـتئناف وقـال (فضلّوا) أي أن الإنسان الذي لايطلب الحقيقـة، ويتنـاول الأمـور بـالهزؤ والسُّـخرية ولايُسـمّي الأشياء بأسمائها ولايضع الأمـور في مواضعهـا ينتهـي حالـه إلى الضّلاله كهـؤلاء اليهـود الذيـن ضلّـوا.

ومـن ثـم أتـى بفـاء الاسـتئناف مـن جديـد وقـال: ﴿**فـلا يسـتطيعون سـبيلا**﴾ أي وأنّ ضلالتهم عن اتّـخاذ المواقف الإيجابية أفقدتهم القدرة على تبيُّـن سبيل الهدى والحـق الـذي أنـت عليه أيّـها الرّسول العظيم.

و لم يكتف الله جلّ شأنه بما أخبر به رسـوله الكريـم مـن نجـوى هـؤلاء، بـل راح يخبره بنجوى ثانية وقال:

الآيـــة الـتـاســـعـة و الأربعـــون
﴿ وقالوا أإذا كنّا عظاماً ورُفاتاً ، أإنّا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾

أي بالرغم من أنّ دين هؤلاء اليهود يقول بوجود عالم آخر بعد الموت، وبـالرّغم مـن أنّ تـوراة هـؤلاء تصـف الله الخـالق أنـه قـادر علـى كـلّ شـيء، فـإنّ الظّـالمين منهـم المسـتهزئين والمُتناجين، يسخرون ويتساءلون سؤالاً يقصدون به إثبات أنّ هذا رجل مسحور، ﴿**وقالوا أإذا كنّـا عظاماً ورُفاتاً أإنّـا لمبعوثون خلقاً جديداً؟**﴾ أي ألإمكان تصـّور مدى كذب مايرويه هـذا

الرّجل من أننـّا إذا مـُتنا وأمسينا عظامـاً وحـُطاماً مُفتـّتاً مُكسّراً، أن يوقظنا الله من موتنا ويُحيينا وينشرنا من قبورنا خلقاً جديداً؟ علماً بأن كلمة (رُفاتاً) من رفت: اندقّ وانكسر (محيط المحيط) واللام في (المبعوثين) للتبيين.

وبألفاظ أخرى فالله تعالى يخبر ويوضـّح أنّ هؤلاء اليهود راحوا يحاولون إثبات فساد عقل رسولنا الكريم ويصوّرونه أنـّه رجل مسحور ومخدوع. متجاهلين في الوقت نفسه أنّ دينهم يقول بوجود عالم المعاد. وهم لايريدون من سؤالهم المذكور، في حقيقة أمرهم، إلاّ السّخرية والاستهزاء والتضليل.

أي أنّ مقصد هؤلاء لم يكن طلب الحقيقة. لذلك شاء تعالى ألاّ يترك هذا الأمر على غاربه، بل ليُعيد استهزاءهم إلى نحورهم لذلك خاطب رسوله الكريم آمراً إياه أن يَرُدّ عليهم ليقول:

الآيـــة الخمســـون
﴿ قل كونوا حجارةً أو حديداً ﴾

أي دعوا عنكم إمكانية بعثكم بعد أن تصيروا عظاماً ورُفاتاً، وافرضوا أنّ عظامكم ورفاتكم قد تحولـّت أيضاً، وعلى مرّ الزمان، حجارةً أو حديداً، وهو أمر غير مُستغربٍ في نظر العلم. وأضاف:

الآيـــة الحـاديـــةوالخمســـون
﴿ أو خلقاً ممـّا يكبُرُ في صدوركم ، فسيقولون مَنْ يُعيدنا ، قل الذي فطركم أوّل مرّة ، فسيُنغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو ، قل عسى أن يكون قريباً ﴾

أي وافرضوا ماتستعظمة صدوركم من تصوّر لأيّ مآل تؤول إليه عظامكم ورفاتكم. وهذا معنى ﴿**أو خلقاً ممّا يكبُرُ في صدوركم**﴾. وهنا أتى الله جل شأنه بفاء الاستئناف لينبـّه أنه حقـّق الهدف من توجيهه رسوله الكريم، لذلك أخذ يُلفت توجـّه هؤلاء المستهزئين جميعهم وأضاف قائلاً:

﴿فسيقولون مَنْ يُعيدنا﴾ أي أنّ هؤلاء المستهزئين عادوا بعد ذلك يسألون مندهشين ﴿من يُعيدنا﴾ وهم الذين تساءلوا من قبل: ﴿أإذا كُنّا عظاماً ورُفاتاً، أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾. أي أنّهم أمسوا يخالفون تعاليم توراتهم التي بين أيديهم، ولايتصورون قدرة الله على كل شيء. لذلك، أجبهم أيّها الرسول الكريم إجابةً شاملةً دون الدخول في التفاصيل، لُتفحمهم وتردّ الكرة إلى ملعبهم، ﴿قل الذي فطركُم أوّل مرّة﴾. أي أيعجز الذي فطركم أوّل مرّة عن القيام بهذا الإحياء الجديد؟

وهنا أتى جلّ شأنه بفاء الاستئناف من جديد وراح يصفّ ردّة فعل هذا الجواب في نفوسهم والذي بدت آثاره على وجوههم وقال: ﴿فسُينفضون إليك رؤوسهم، ويقولون متى هو؟﴾ أي تفحمهم بجوابك المذكور، ولايجدون لديهم إجابةً تستحق الذكر لذلك فإنّهم سيحركّون رؤوسهم نحوك تعجُّباً واستهزاءً. وهذا معنى ﴿فسينفضون إليك رؤوسهم﴾ من أنْفَضَ فلانٌ رأسه: حركّه كالمتعجّب من الشيء. وبالتالي فسيعرضون عن حديث السّخريه ليسألوا دهشين: ﴿ويقولون متى هو؟﴾، أي متى هو حادث؟ أي بعد كم من الزمان سيحدث هذا الخلق الجديد؟

وهنا، وقد استتبّت ناصية الكلام لمحمد رسول الله (ص) لمناعة حُجّته وأسلوبه في حواره الذي انتهجه بتوجيهٍ من ربه عزوجلّ. عاد الله تعالى فأمر رسوله : ﴿قل عسى أن يكون قريباً﴾. أي مالكم يابني اسرائيل ومن لفّ لفكّم من المشركين تذهبون بعيداً، فتتساءلون عن يوم النّشور، وأنتم على حالكم تسخرون وتستهزئون بهذا الرسول الأمين؟ فبالأحرى أن تسألوا عن زمن حدوث هذا الانقلاب الرّوحي الذي بات قريباً وقوعه، فإن حدث وهو يخالف ماتستهزئون به وتسخرون، فإنّ حدوثه سيشكّل دليلاً قاطعاً بين أيديكم على صحّة الطّرح الذي نطرحه في كتابنا العزيز من أنه سيأتي على البشر جميعهم يوم يبعثون فيه جميعاً بعثاً جديداً ويُخلقون فيه خلقاً جديداً، مهما آلت إليه أجسادهم من مصير.

على هذه الصورة، حوّل الله عزوجلّ الحديث لينبئ ويبشّر بانتصار الإسلام وخذلان اليهود والمشركين. وكأنه جل شأنه قد قال: إن غروركم أيّها المشركون واليهود منهم خاصة، ونفوركم من هذا القرآن، وتوليّكم الأدبار يوم سماع صوت السّماء، وهُزئكم برسولنا وبالكتاب الذي أنزلناه عليه، كلّ ذلك لن يوقف مسيرة هذا الدّين الإسلاميّ الحنيف. من

مُنطلق أننا وراء سيرة هذا الدين، فالله اتّخذه محمداً له محبوباً حقيقياً، يطيعه ويعبده، لذلك فقد قرّرنا انتصار وهذا الدين الإسلامي الحنيف.

فكأنه جل شأنه خاطب هؤلاء بهذه الألفاظ، يوم كان المسلمون في أشدّ لحظات الضيّق، وكان المشركون واليهود من ورائهم في أوج ساعات سُخريتهم بهذا الدين وبهذا الرّسول الأمين. يوم لم يكن يُرى في الأُفق أيّ بصيص نورٍ يُشعر بانتصار الإسلام ورسوله محمد (ص) الأمين.

ولم يكتف جلّ شأنه بهذا التبشير والإنباء عن قرب انتصار الإسلام، بل أضاف يقول:

الآيـــة الثـانيـــةو الخمســـون
﴿ يوم يدعوكم ، فتستجيبون بحمده ، وتظنّون إنْ لَبِثْتُم إلاّ قليلاً ﴾

أي أنّ الذي سيحدث يوم انتصار الإسلام وحدوث هذا البعث الرّوحي - وقد كان في قوله ﴿**يوم يدعوكم**﴾ إشارة واضحة إلى أنّ فتح مكة أمسى قريباً جدّاً ــ فالذي سيحدث أنّ محمداً هذا الذي تستهزئون به وتسخرون منه في هذه الأيّام (يدعوكم) من دعا فلاناً ناداه وصاح به (محيط المحيط) أنّ محمداً (ص) سيقف مُنتصراً يناديكم ويصيح بكم ــ وهذه إشارة ثانية إلى ماحدث يوم فتح مكة. فقد وقف محمد (ص) يدعو هؤلاء ويصيح بهم: ﴿**ماذا ترون أنّي فاعلٌ بكم؟**﴾أي هذا يوم يحقّ لي أن اقتصّ منكم على ماكنتم تسخرون مني وتستهزئون.

ثم أتى الله جل شأنه بفاء الاستئناف وأضاف: ﴿**فتستجيبون بحمده**﴾. وكلمة تستجيبون اشتُقّت من استجاب له: ردّ له الجواب (محيط المحيط). أي أنكم يامن تستهزئون الآن بمحمد وتسألونه هذا السؤال. يوم سيقف محمد صائحاً بكم صيحته، ستردّون على صيحته (بحمده). فالباء للإلصاق، وحمده معناه بشكره والثناء عليه. أي أنكم ياهؤلاء ستقفون عاجزين أذلاء بين يديه، وألسنتكم تلهج بحمد محمّدٍ وشكره والثناء عليه خوفاً من بطشته وطمعاً في عفوه عنكم وعمّا اقترفتموه بحقّه من آثام - وقد تحقّق هذا النّبأ حرفاً بحرف، فيوم فتح مكه، وبعد سماع صيحة محمد (ص) بهؤلاء المشركين (ماذا ترون أنّي فاعلٌ بكم؟) أجابوه بلسان واحد (أخ كريم لأخ كريم) أي أنت أخ لنا، وتتّصف بالكرم أيضاً، ونحن طامعون بعفوك عنّا وبإطلاق سراحنا أيضاً. فهذا هو معنى قوله تعالى هنا ﴿**فتستجيبون بحمده**﴾.

وأنهى الله جلّ شأنه نبوءته هذه بقوله تعالى: ﴿**وتظنّون إنْ لبثتم إلاّ قليلاً**﴾. أي أنه تعالى راح يصف من خلال هذه الألفاظ الإحساس القلبي الذي سيتملّك هؤلاء يوم الفتح وحدوث هذا البعث الرّوحي. قال ﴿**وتظنّون**﴾ أي ويتملكُكم الاعتقاد يوم الفتح ﴿**إن لبثتم**﴾ فحرف إنْ استعملها تعالى هنا لتفيد المستقبل ولتوقع الجزاء الثاني من أجل وقوع الأوّل وتجزم فعلين. و (لبثم) من لبث بالمكان: أي مكث وأقام، وحرف (إلاّ) هنا زائدة. و (قليلاً) ضدّ الكثير دلالة على قلّة العدد (محيط المحيط).

والمعنى أنكم أيها المشركون ومن وراءهم من اليهود سيتملكُكم يوم الفتح وأنتم تحمدون محمداً وتستعطفونه يتملككم شعور بأنّ مدّة السنوات التي قضيتموها تضطهدون خلالها محمداً (ص) وتسخرون منه، كأنّها ماكانت تزيد عن ساعات معدودات، وذلك لشدّة هول ووقع هذا البعث الروحي على أفئدتكم. ﴿**وتظنّون إن لبثتم إلاّ قليلاً**﴾.

فإلى هنا يكون الله جل شأنه قد فرغ من البرهنة لبني اسرائيل على عظمة تعاليم هذا القرآن الأقوم، إلى جانب التّدليل على وجوده، وعلى واسع علمه الغيبي وعلى عظيم قُدُراته، وعلى تأييده لرسوله محمد الصادق الأمين. ويكون قد قطع على بني اسرائيل الطريق وأكمل حُجّته تعالى عليهم. مُلّوِحاً أنّه جلّ شأنه ماعاد من حائلٍ أو مانعٍ يمنعه ويحول بينه وبين تنفيذ ماتوعّدهم به وهدّد.

هذا الوعيد الذي توعّدهم به في الآيات الأوائل من هذه السّورة إن هم لم يستجيبوا لهذا القرآن الأقوم، والمتعلّق زمن وقوعه بزمن الآخرة أي بزمن البعثة الآخرة الثانية للإسلام.

وقد كان من المناسب، عند الانتقال إلى الحديث عن وعيد الآخرة المذكور والمتعلق بمصير بني إسرائيل، أن يتوجّه الله جل شأنه أولاً لينصح المؤمنين الجدد أركان البعثة الثانية للإسلام الذين قدّر الله تعالى أن ترتفع على أيديهم راية الإسلام ثانية عاليةً خفّاقة من جديد. أقول: قدّر الله تعالى أن يزوّدهم أولاً بنصائحه وإرشاداته. ليُمكّنهم ذلك من تمثيل الإسلام تمثيلاً حقيقياً. لذلك أضاف تعالى يقول:

الآيــة الثــالثــة والخمســون

﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ، إنّ الشيطان ينزَغُ بينهم ، إنّ الشّيطان كان للإنسان عَدُوّاً مبيناً ﴾

فهو جلّ شأنه أتى بالواو العاطفة في هذا المقام، لا ليربط موضوع الآية بسابقتها، بل ليربط هذا الجزء من كلٍ اشتمل على مثل هذه النصائح والإرشادات الموجّهة إلى حملة دعوة الإسلام من فئة مؤمني البعثة الثانية للإسلام. ولذلك أتبع تعالى الواو بقوله آمراً رسوله الكريم **﴿قل لعبادي﴾**. أي بلّغ عبادي هؤلاء الذين يسعون سعي الآخرة ويرجون شكري وقربي ومحبّتي ممّن خضعوا لأوامري وطاعوا لي وذلّوا بين يديّ وخدموا ديني والتزموا بشرائعي وَوَحّدوني فلم يشركوا بي شيئاً. من أفراد البعثة الثانية للإسلام فهذه هي دلالة عبادي في هذا المقام (محيط المحيط).

وأنا إذ قلت إنّ واو العطف جيء بها هنا لتربط إرشادات هذه الآية الكريمة بإرشادات سابقة، فهذا الأمر يقتضي منّي تقديم الدّليل المقنع، وتمهيداً لتقديم هذا الدليل أعود بالقارئ إلى ما أنهى الله تعالى به سورة النّحل من آيات إرشادية مجملة لهذه الفئة المؤمنه المقدّر على أيديها إعادة رفع لواء الإسلام عالياً. من جديد فقد قال تعالى هناك: **﴿ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن، إنّ ربّك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين، وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتُم به، ولئن صبرتم لهو خيرٌ للصابرين، واصبر وماصبرك إلاّ بالله، ولاتحزن عليهم، ولاتكُ في ضيقٍ ممّا يمكرون. إن الله مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون﴾**.

وها أنّ ألفاظ **﴿بالتّي هي أحسن﴾** الواردة في هذه الآيات، وردت نفسها في الآية التي نحن بصددها، ومحذوفاً ماقبلها وهو (وجادلهم) المشتق من جادله أي خاصمه خصاماً شديداً. والجدل هو اللّدد في الخصومة والقدرة عليها، وهو مراء يتعلّق بإظهار المذاهب وتقريرها على حسب قول صاحب التعريفات. ولايكون الجدل إلاّ لمنازعة الغير. (محيط المحيط)

والآن فإن نحن تدبّرنا ترتيب الآيات الأواخر من سورة النحل موضوعياً. نلاحظ ترتيباً قد لوحظ في مواعظها ويتألّف من أمور ثلاثة: الأول **﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة﴾**. والثاني: **﴿والموعظة الحسنة﴾**. والثالث **﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾** وقد فصل جل شأنه بين هذه الأمور بالواوات العاطفة.

فإن تدبرنا الآن تسلسل الآيات الموضوعي لسورة الإسراء، مُتقصّين مواعظها. نُلاحظ أنّ الله عزوجلّ أتى بشرحٍ لهذه الأمور، وبنفس الترتيب، وبصياغة بلاغية مُعجزة تذهل عقول المتدبّرين لكتاب الله العزيز.

فالله جلّ شأنه راح يشرح الأمر الأول ليعطي المؤمنين فكرة ومثالاً على «الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة». فابتدأ هذا المثال ابتداءً من قوله تعالى: ﴿**إنّ هذا القرآن يدعو للتي هي أقوم**..﴾ وانتهاءً بقوله تعالى: ﴿**ذلك ممّا أوحى إليك ربّك من الحكمة**﴾. أقول أتى بهذا المثال ليعظ مؤمني البعثة الثانية للإسلام. وفي وقت راح يخاطب فيه بني إسرائيل ويُباهي بكتابه القرآن وبأفضلية تعاليمه على تعاليم التوراة التي هي بين أيديهم. وبألفاظ أخرى فقد عمل الله تعالى هنا بالمثل السّائر وهي إصابة عصفورين بحجرٍ واحد.

ثم راح جلّ شأنه يشرح الأمر الثاني ليُعطي المؤمنين فكرةً ومثالاً على «الموعظة الحسنة». فابتدأ هذا المثال ابتداءً من قوله تعالى: ﴿**ولاتجعل مع الله إلهاً آخر فتُلقى في جهنم ملوماً مدحوراً**﴾. وانتهاءً بالآية السابقة أي بقوله تعالى: ﴿**يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنّون إنْ لبثم إلاّ قليلاً**﴾.

وها أنه جلّ شأنه راح يشرح الأمر الثالث ليعطي المؤمنين موعظته فيما يتعلق بقوله تعالى: ﴿**وجادلهم بالتّي هي أحسن**﴾، ابتداءً من الآية التي نحن بصددها، ومختزلاً كلمة وجادلهم أيضاً. لتمتين هذا الرّبط الموضوعي الذي ذكرناه، ولإثبات وجود ترتيب موضوعي معجز في هذا الكتاب السماوي العظيم.

فلّما انتهينا من تبين الدّليل المطلوب، ندرك أن الله عزوجل حين خاطب رسوله الكريم هنا وقال: ﴿**وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن**..﴾، فهو تعالى ينصح فئة مؤمني البعثة الإسلامية الثانية خاصّة، أولئك الذين يسعون سعي الآخرة، ويرجون الفوز بشكر ربّهم وتفضلاته عليهم. ينصحهم إن هم اختلفوا مع سواهم من إخوانهم المسلمين الذين لم يبلغوا مابلغوه، أو مع سواهم ممّن لم يؤمنوا بما آمنوا به، ولا انتهجوا نهج حياتهم. ينصحهم جل شأنه أن يقولوا التي هي أحسن، فلا يجادلونهم إلاّ بالتي هي أحسن. أي أن يحاوروهم بحوارٍ بعيدٍ عن الخصومة وإن كانوا قادرين عليها.

وذلك بتقديم الحُجج والبراهين التي تثبت لهؤلاء صحّة ما آمنوا به وما اعتنقوه من نهج حياتيّ. بمعنى أنّ الله عزوجلّ ينهى هؤلاء المؤمنين عن سلوك سبيل العنف من أجل الدعوة إلى سبيل الله. وكأنّه تعالى يربط بين مضامين كتابه ونبوءاته في هذه الموعظة، ليُنبّه أذهان أولئك المؤمنين إلى أنّ زمن البعثة الثانية للإسلام تختلف معطياته وأحواله عن زمن البعثة في صدر

الإسلام. فهذا الزّمن الأخير هو زمن انتشار الصحافة والنّشر والعلوم، فلا يُفلح في نشر دعوته من ينتهج سبيل العنف والإكراه في الدّين.

وقد راح جلّ شأنه يذكّر هؤلاء المؤمنين أنّ اليهود ومَنْ وراءهم، من الذين يمكرون بالاسلام وأهله منذ فجر زمن البعثة الأولى للإسلام، إنّ مكر هؤلاء ستتفاقم نتائجه، وتطفوا من جرّائه الاختلافات والانقسامات والانحرافات عقائدية في أوساط المجتمع الإسلامي.

فهو تعالى يختصر هذه الحقيقة ويقول: ﴿**إنّ الشّيطان ينزَغُ بينهم**﴾ وينزغ من نزغَ بين القوم: أفسد وأعزى ووسوس وحرّك بعضهم على بعض، ونزغه الشيطان إلى المعاصي: حثّه على ارتكابها (محيط المحيط). والمعنى أن الله تعالى إنني كنت نبّهت في آخر سورة النحل وقلت: ﴿**واصبر، وماصبرُك إلا بالله، ولاتحزن عليهم، ولاتك في ضيقٍ ممّا يمكرون**﴾. وهل يُعقل ألاّ يتأتّى عن مكرهم ماذكرت؟ فهؤلاء اليهود يُمثّلون في حقيقتهم «الشيطان» الذي حذّرت منه جماعات المؤمنين دوماً منذ بعثة آدم عليه السّلام. فمن خلال تعريف كلمة شيطان هنا بالألف واللاّم العهديتين أدّى تعالى هذا المعنى الذي ذكرناه، وهذا هو سرّ ضرورة الاستعاذه المعروفة ﴿**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**﴾.

ولم يكتف الله جل شأنه بتعريف لفظ شيطان. بل راح يوضّح الحقيقة الكامنة وراء هذا التّعريف وأضاف يقول: ﴿**إنّ الشّيطان كان للإنسان عدوّاً مُبيناً**﴾. فأتى بحرف إنّ للتوكيد ونبّه من خلال لفظ (الشيطان) مُعرّفاً، إلى أنّ هذا هو الذي كان للإنسان، ويقصد بالإنسان هنا، أول بشر اصطفاه الله ربّه وهذبه بتعاليمه وجعله مهبط وحيه، ألا وهو آدم عليه السّلام. قال إنّني أقصد من خلال لفظ الشيطان مُعرّفاً، البشر الذي أبلس وكفر برسالة آدم وانبرى لمعاداته ومقاومته بشكل مبين واضح لالُبس فيه. أي أنّ الله عزوجلّ قال بألفاظٍ أخرى: إنّ هؤلاء اليهود الذين مابرحوا يمكرون بالإسلام وأهله، منذ فجر الإسلام. يفسدون ويُغرون ويوسوسون ويحرّكون المسلمين بعضهم على بعض، ويحثّون على ارتكاب المعاصي والآثام، إنّ هؤلاء اليهود يقومون بدور الشيطان الذي عادى آدم. ولذلك سبق لي في سورة النحل أن أوصيت وقلت: ﴿**فاصبر، وماصبرك إلاّ بالله، ولاتحزن عليهم، ولاتك في ضيقٍ ممّا يمكرون**﴾. أي أنّ الأيام ستأتي يوم نقتلع شجرة هذا «الشيطان» نهائياً من على وجه الأرض.

وبعد أن ذكّر الله تعالى هؤلاء المؤمنين بما أسلفناه، راح يوضـّح سـرّ مـاوعظ بـه سـابقاً وقال ﴿**واصبر، وماصبرك إلاّ بالله**﴾ مُلفتاً أنظـار المؤمنـين ومذكّـراً إياهم بكونـه هـو الحـاكم الحقيقي لهذا الكون. لذلك أضاف قائلاً:

الآيـــة الـرابعـــةو الخمســـون

﴿ ربُكم أعلم بكم ، إن يشأ يرحمكم ، وإن يشأ يُعذبكم ، وما أرسلناك عليهم وكيلاً ﴾

أي تذكروا أيها المؤمنون من حملة راية البعثة الثانية للإسلام الذين يسعون سـعي الآخـرة ويرجون شكري ومحبتي وقُربي أنّ الذي يعظكم بهذه المواعظ، ويرسم لكم المنهج العملي الـذي يُلزمكم بانتهاجه والسّير عليه، إنّه (ربكّم) أي إلهكـم الـذي يسـعى لتطويركـم مـن حـال إلى حال. فربكّـم لايكـون كذلـك إلاّ إذا أحـاط علمـه بكـلّ شـيء يخصُّكـم. لذلـك فـالله ربكّـم يطمئنكم ويقول لكم إنّه ﴿**أعلَمُ بكم**﴾. فالله ربّكم يعلم أحوالكم أفضل من كـل مـن عنـده علم في هذا المضمار. بل وإنّ بيد ربّكم مقاليد كل شيء وهو الفعال لما يُريد. فمقاليد العقاب والثواب بين يديه ﴿**إن يشأ يرحمكم وإن يشأ يعذّبكم**﴾ أي أنـّه غني عن العالمين وأنتم عباد بين يديه محتاجون إليه. وهنا توجـّه تعالى إلى رسوله الكريم وقال: ﴿**وما أرسلناك عليهم وكيلاً**﴾. أي أننا نريد أن يندفع المؤمنون لطلب وِدّنا ورضانا عـن قناعـةٍ ومـن أنفسـهم، وليس بـالضغط والإكراه.

أي أنـّه جلّ شأنه راح ينبـّه أذهان هؤلاء المؤمنين إلى ضرورة الابتعاد عن وسيلة العنـف ليس مع أعدائهم وحسب، بل وعن نهج التعامل فيما بينهم، فلا ينبغي لهم التحاور والتعامل إلا بالمحبة وبوسيلة الاقناع بالحجة والبرهان.

على هذه الصورة يكون الله جل شأنه قـد أشـار في هـذه الآيـات الأخـيرة إلى أنّ حالـة المجتمع الإسلامي زمن البعثة الثانية للإسلام، سـتكون في أسـوأ أشـكالها، كنتيجـةٍ طبيعيـّةٍ لمكـر اليهود ضدّ الإسلام وأهله طوال هذه القرون العديدة.

ولم يكتف الله تعالى بتقوية إيمان عباده بواسع علمه وواسع قدراتـه، وبتـنزّه أسمائـه، بـل أضاف معلومة أوسع وقال:

الآيــة الخامســـةو الخمســـون
﴿ وربُّك أعلم بمن في السموات والأرض ، ولقد فضلّنا بعض النبييّن على بعـض ، وآتينـا داوود زبوراً ﴾

أي تذكّر أيّها المؤمن السّاعي سعي الآخرة أنّ ربّك لايحيط علمه بكم وحدكم، بل هو أعلم بمن في السموات والأرض. فهو تعالى أتى بالواو العاطفة ليضيف هذه المعلومة وبقوله ﴿**بمن في السـموات**﴾ إشـارة إلى أرواح الأنبيـاء الذيـن هـم في قربـه، وبلفـظ (والأرض) إشـارة إلى الأحياء منهم على وجه الأرض.

ومن ثمّ قدّم الدّليل على صدق هذه المعلومة الجديدة وقال: ﴿**ولقد فضلّنا بعض النبييّـن على بعض**﴾. أي أن من ظواهر إحاطة علمنا بكل شيء، وقدرتنا على كـل شـيء، هـو أننـا لم نبعث الأنبياء على سويّةٍ واحدة من العلم والمؤهّلات والمنزله، بل ﴿**فضّلنا بعض النبيـين علـى بعض**﴾. أي ميّزناهـم على حسـب ماكـانت تقتضيـه مهمـاتهم الموكلـة إليهـم، وأحـوال الأمـم المبعوثين إلى طرفها.

وهنا عاد تعالى يندّد باليهود الذيـن دأبـوا علـى المكـر بالإسـلام وأهلـه وأوصلـوا المجتمـع الإسلامي إلىمرحلةٍ مُزريةٍ مـن التفكّـك والانقسـام والتخلّـف والانحطـاط، فـأتى بـواو العطـف وقال: ﴿**وآتينا داوود زبوراً**﴾. وزبوراً أي مُلكاً، فهذا هو المعنى الـذي يسـتقيم بـه الكـلام في هذا المقام. علماً أنّ كلمة زبور تفيد الفرقة والملك والكتاب بمعنى المكتوب جمعه زُبـُر. وغلـب هذا اللفظ عند اليهود على مزامير النبيّ داوود. (محيط المحيط).

وكأنه جلّ شأنه، ومن خلال قوله ﴿**وآتينا داوود زبوراً**﴾ قد توجـّه بالخطاب نحـو بـني اسرائيل هؤلاء الذين تسبّب مكرهم بجميع هذه المفاسد، وقال: يابني اسرائيل الذيـن دأبـوا علـى المكر بهذا الدّين الحنيف وبأهله في الخفاء، تذكّروا أن الله هو الذي آتـى نبيـّكم داوود المُلـك، فلم تطيعوه بل ومكرتم به وتسبّبتـم بزوال ملكه، وها أنكـّم وقد تسببتـّم للإسلام بهذه الأضرار متوسّلين بمختلف الوسائل والأسباب. فيا بني اسرائيل هاكم انظروا كيف كُنـّا على اطـلاّع بما كنتم تمكرونه، وكيف أننا أوصينا بالصبر والاعتمـاد علـى الله، وهـا أننـا أوصينـا الفئـة المؤمنـة الجديدة من حملة البعثة الثانية للإسلام أن يتجنّبـوا وسيلة العنـف في الدعـوة إلى سـبيل الله وأن

يدعو بالتي هي أحسن، وعلى هذه الصورة يحقّ لنا أن ننزل بكم العذاب الذي توعّدناكم بـه إن أنتم لم تقبلوا الإسلام ديناً، فنحن أكملنا إلقاء حُجّتنا عليكم، وراح يقول:

الآيــة الســادســـــةو الخمســـون
﴿ قل ادعو الذين زعمتم من دونه ، فلا يملكون كشف الضُر عنكم ولا تحويلاً ﴾

ولنلاحظ أن الله عزوجـل لم يـأت بـالواو العاطفـة في مُستهل هـذه الآيـة الكريمـة. مـن مُنطلق أنّه تعالى، ومن خلال قوله في آخر الآية السابقة ﴿**وآتينـا داوود زبـوراً**﴾ فقـد جعـل هذه الألفاظ مدخلاً للتوجـّه لبحث موضوع الضُّر الذي سيُنزله تعالى بهؤلاء اليهود الماكرين.

وكلمة الضّر تعني سوء الحال وضدّ النفع. وكشف الضرّ مـن كشـف عنه الضُّـر: دفعه وكلمة تحويلاً أي تبديلاً من مسار إلى مسار (محيط المحيط).

فهو جلّ شأنه راح إذن يتكلّم عن حال اليهود في آخـر الزمـان. عـن حـال الضُّـر الـذي سيؤولون إليه. يوم تدعمهم أُمم المسيح الدّجال التي هي أمم بلاد الغـرب وأمريكـا كمـا اتّضـح ذلك من سورة الكهف، ويكونون لهم سنداً ودعماً خارجياً. فهو جـل شـأنه راح يخـاطب مـن يقول: ﴿**قل ادعو الذين زعمتم من دونه**﴾ أي أنكم يابني اسرائيل مكرتم بالإسـلام، ووصلتـم لما وصلتـم إليـه، وهـا أنـّه قـد حـان زمـن إنـزال الضـرّ بكـم، فهيـّا توسّـلوا إلى هـؤلاء الذيـن استبدلتموهم بالله ربكّم مرجعاً وسنداً من أمم أوربه وأمريكـا. هيـّا توسّـلوا إليهـم واسـتعينوا بهم ماشئتم الإستعانة على جميع الصُّعد: ماليّةً كـانت هـذه الاسـتعانة أو حربيـة أو سـواها مـن الصُّعد.

ومن ثم أتى جل شأنه بفاء الاستئناف وقال متحديّاً: ﴿**فلا يملكون كشف الضُّر عنكم ولاتحويلاً**﴾. أي نتحداكّم أن تملك أمم المسيح الدّجال المذكورين دفع الضّر عنكم إذا ما أنزلناه هذا الضرّ بكم، أو تحويل مساره باتـّجاه آخر غير الذي قرّرناه.

ومن ثم عاود جل شأنه الكلام عن فئة المؤمنين من حملة البعثة الثانيـة للإسـلام، وبنفـس الأسلوب. فلم يأت بالواو العاطفة ليشعر بانتهاء الموضوع الذي تكلم عنه، وراح تعالى ينبئ عن هؤلاء المؤمنين ويقول:

الآيـــة الســـابعــــة و الخمســــون

﴿ أولئك الذيـن يدعـون ، يبتغـون إلـى ربـهم الوسـيلة أيـهم أقـرب ، ويرجـون رحمته ويخافون عذابه ، إنّ عذاب ربّك كان محذوراً ﴾

ففي الآية السّابقة أشار تعالى إلى حالة الشّرك الواقع فيها بنو إسرائيل ولذلك قال: ﴿**قـل ادعوا الذين زعمتم من دونه**﴾. وهو جل شأنه راح يشير إلى حالة التّوحيد التي يكـون عليهـا حملة البعثة الثانية للإسلام ولذلك قال بحقّهم: ﴿**أولئك الذين يدعون**﴾ أي أنّ هـؤلاء المؤمنـين هم بحاجةٍ إلى من يسندهم ويدعمهم أيضاً ليفرّج عنهم كَرْبهم. لكن أولئـك المؤمنـين لايفعلـون فعلكم، ولايبحثون عن بشرٍ مثلهم يسندهم ويدعمهم. بل «يدعـون» ربـّهم ولايدعـون أحـداً سواه، ولايكون دعاؤهم من قبيل ماتدعون الذّين زعمتم من دونه. بل إن حال دعـائهم أنـّهم ﴿**يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيـُّهم أقرب، ويرجـون رحمتـه، ويخـافون عذابـه**﴾. أي أنّ أولئـك المؤمنين يبحثون عن ذريةٍ يتقربـون بهـا إلى الله خـالقهم راجـين أن يرحـم مـايصدر عنهـم مـن ضعف، حذرين ومحتاطين أن يصدر عنهم مايُغضب ربّهم فهم يخافون عذابه.

وبعد أن صوّر الله عزوجـلّ حـال الفريقـين، حـال هـؤلاء اليهـود الذيـن يمكـرون وهـم مشركين بالله ربـّهم. وحال حملة بعثة الإسلام الثانيـة مـن المؤمنـين الذيـن يتسـابقون إلى الفـوز بمحبـّة معبودهم الحقيقي وقربه غير حـاسبين أيّ حسـابٍ لسـواه عزوجلّ. أقول بعد أن صـوّر الله تعالى حال هذين الفريقين، أتى بالمبرّر المنطقي الذي يدفع الله عزوجلّ ليُنزل ضـُرّه ببني اسـرائيل يومئذٍ. والذي يدفعه لتأييد زمرة المؤمنين ولتفضيلهم على اليهود في المعاملة وقـال: ﴿**إنّ عـذاب ربـّك كان محذوراً**﴾. أي أنّ الله الذي يملك واسع العلـم وواسـع المقـدرة والـذي يملـك إنـزال العقاب، ومجازاة الصالح على صلاحه. إنّ العقل والمنطق السّليم يقضيان أنّ من حقّ هـذا المعبـود على عباده المؤمنين أن يـُحذر من وعيـده وعذابـه إذا توعّـد أحـداً بـالعذاب. لا أن يـُهمل هـذا الوعيد فلا يُبالى به ولا يأخذ له أيّ حساب.

وبعد أن قرّر الله عزوجلّ إنزال الضّر ببني إسرائيل وحدد زمنه بالإشارة. راح يربط بينـه وبين العذاب المقـّدر إنزاله بأمم المسيح الدّجـال الـتي تدعـم اليهـود بمختلـف الوسـائل وأضـاف يقول، وعزّ من قائل:

الآيـــة الثـامنـــة و الخمســـون

﴿ وإن من قريةٍ إلاّ نحن مُهلكوها قبل يوم القيامة، أو معذّبوها عذاباً شديداً، كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾

أي اعلموا يـابني اسـرائيل أننـا لانستعجل بـإنزال الضّـر بكـم، لارتبـاط مكركـم الـذي تمكرونه بمكر الذين اتّخذوا لله ولداً. هـؤلاء الذيـن أنذرنـاهم في بداية سـورة الكهـف بـإنزال العذاب بهم خلال نهضتهم الأخيرة، إن هم لم يرجعوا عن شركهم، وعن كيد المؤامـرات ضـدّ الدين الإسلامي الحنيف.

فهو جل شأنه أتى بالواو العاطفة ووضح أنّ جميع التجمّعات السكانية التي يقطنها هؤلاء الذين سمّاهم الرسول الكريم في أحاديثه الشـريفه «المسيح الدّجـال»، مقـدّرٌ ومسـطور في هـذا الكتاب القرآن إهلاكها وإنزال العذاب الشديد بها لقولـه تعـالى في الآيـات الأوائـل مـن سـورة الكهف: ﴿**وإنّا لجاعلون ماعليها صعيداً جرزاً**﴾.

وهنا لابدّ أن يتساءل المرء: وهل يـُعقل أن تظهـر مثـل هـذه المعجـزة بعـد هـذا التطـوّر العلمي الكبير الذي بلغته البشريّة، تحدث مثل هذه المعجزات وفقاً لمنهاجٍ معلوم؟

وللجواب على هذا التساؤل راح تعالى يقول:

الآيـــة التـاسـعـة و الخمســـون

﴿ وما منعنا أن نـُرسل بالآيات إلاّ أن كـذّب بهـا الأوّلون ، وآتينـا ثمـود النـاقـة مُبصرةً ، فظلموا بها ، ومانرسل بالآيات إلاّ تحويفاً ﴾

فهو جلّ شأنه وضّح منهجه المتعلّق بإظهـار المعجـزات السـماوية. وضـرب مثـالاً قـوم ثمود، ومصيرهم الذّي آلوا إليه كدليلٍ عمليٍ نابعٍ من تاريخ هذه المنطقة يثبت صحّة هذا المنهـج الربّاني. وقدّم دليلاً آخر في هذا المجال تضمنّه قوله تعالى: ﴿**ومانـُرسل بالآيات إلاّ تحويفاً**﴾.

فهـو تعـالى أتـى بـالواو العاطفـة وقـال: ﴿**ومامنعنـا أن نُرسـل بالآيـات إلاّ كـذّب بهـا الأوّلون**﴾. فهو جلّ شأنه أدخل حرف إلاّ وسط كلامه كحرفٍ زائـد، وهـو أسـلوب بلاغـي

عمد إليه في عدّة مواضع من كتابه العزيز. عمد إليه في الآية ٩٥ من نفس سورة الإسراء حيث قال هناك:

﴿ومامنع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلاّ أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً﴾.

وعمد تعالى إلى هذا في الآية (٥٦) من سورة الكهف حيث قال: **﴿ومامنع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهُدى ويستغفروا ربّهم، إلاّ أن تأتيهم سُنّة الأولين أو يأتيهم العذاب قُبلاً﴾**.

ويصبح المعنى أنّ التكذيب الذي قام به الأوّلون بآياتنا ومعجزاتنا التي سبق وأيّدنا رُسلنا بها، ماحال تكذيبهم المذكور بآياتنا أن نرسل بالآيات ونظهر المعجزات. وقدّم الله جل شأنه دليلاً تاريخياً يثبت صحّة هذا النّهج وقال: **﴿وآتينا ثمود النّاقة مُبصرة، فظلموا بها﴾**. أي أنّ من المعلوم أننا بعثنا آدم كأول نبيّ وأظهرنا على أيديه معجزاتنا. ومن ثمّ بعثنا نوحاً وأظهرنا على أيديه معجزاتنا. فما أفادت كل تلك المعجزات في هداية أقوام هذين النبيين، ومع ذلك فلم يمنعنا تكذيبهم ولاحال دوننا لسدّ باب إنزال المُعجزات، وهل أنّ أحداً من سكان هذه المنطقة يجهل قصّة قوم ثمود مع نبيّهم وناقته التي جعلناها مُبصرةً أي دليلاً على تأييدنا لرسولنا بإنزال العذاب بقومه ثمود إن هم قتلوا ناقته؟ فهذه حادثة أتت بعد الذين ذكرناهم من الأنبياء، فلم يتورع قوم ثمود عن قتل الناقة، واظهرنا نحن بدورنا آية إهلاكهم بالعذاب الشديد.

ومن ثمّ راح جل شأنه ينبّه الأذهان إلى عنصر هام يتضّمنه منهجه المذكور كدليل آخر، وهو حاصل تدخُّل رحمة الله الواسعة، وقال: **﴿ومانُرسل بالآيات إلاّ تخويفاً﴾**. وتخويفاً من خوّفه تخويفاً صيّره يخاف. أو صيّره بحال يخافه الناس (محيط المحيط). والمعنى أننا لانقصد من إراءة الآيات إهلاك الناس، بل تصيير أفئدة المؤهلّين للهداية في حالة من الخوف تدفعها بصورة آلية نحو الإيمان وتقبّل ماينزل من السّماء من هدايات. فإرسال الآيات على هذه الصّورة تُعدّ وجهاً وضاءً من أوجه تجلّي رحمتنا على البشر في مختلف الأمكنة والأزمنة.

ولنلاحظ أنّ الله عزوجلّ، وبعد أن ألقى حُجّته على بني اسرائيل، وحدد موعد إنزال العذاب بهم، ونبّه إلى أنّ عذابهم سيكون مشتركاً مع العذاب الذي سينزله بأمم المسيح الدّجال التي هي أمم أوربه وأمريكه، وليصبح ذاك العذاب آية سماوية يخوّف بها الذين يريد هدايتهم.

أقول بعد هذا كله عاد تعالى يذكّر بالعذاب الذي توعّد به في بداية هذه السّورة بني اسرائيل، فأتى بحرف (إذ) كإسم للزمان الماضي في محلّ ظرف، وقال:

الآيــة الســـتون

﴿ وإذ قـُلنا لك إنَ ربـَك أحـاط بالنـاس ، وماجعلنـا الرؤيا التي أرينـاك إلاَ فتنـةً للنـاس، والشجرة الملعونة في القرآن ، ونخوفـهم ، فما يزيدهم إلا طُغياناً كبيراً ﴾

فأتى الله جل شأنه بـالواو العاطفـة، ليعطـف مضمـون هـذه الآيـة على موضـوع زمـن العذاب المحدّد لإهلاك اليهود في الآيات الآنفـة الذكّـر. كمـا أتـى بحـرف (إذ) كظـرف متعلّـق بالزمن الماضي، وقال ﴿**قلنا لك**﴾ أي أخبرناك. كما أتى بكلمة ﴿**أحاط**﴾ بمعنـى أحـدق ودنـا بالناس هلاكهم (أقرب الموارد). وتقول: أُحيط بالقوم: أي هلكوا جميعهم. (محيط المحيط). وأتى بكلمة (الرؤيا) الدّالة على مايراه النّائم في منامه.

وبكلمة ﴿**فتنة**﴾ أي اختباراً وابتلاء واضلالاً. والفتنة: اختلاف الناس في الآراء، ومـايقع بينهم من قتال. وورد في التعريفات: الفتنة مايُبيّن به حال الإنسـان من الخير والشـرّ جمعه فـتن (محيط المحيط) والـلاّم في للنّـاس يصـّح أن تـدلّ علـى الصـّيرورة، كمـا يصـحّ أن يـراد بهـا هنـا الاستحقاق، فهي لام العاقبة والمآل.

ويكون معنى قوله تعالى: ﴿**وإذ قُلنا لك إنّ ربك أحاط بالناس**﴾، أي لاتعجب يـامحمد ممّا أطلعناك وأخبرناك به آنفاً. فتذكّر أننا كُنّا أخبرناك من قبل في السنوات الأولى التي قضيتهـا في مكة قبل إنزالنا سورة الإسراء هذه كُنّا أخبرنـاك وقلنـا ﴿**إنّ ربـك أحـاط بالنّـاس**﴾ أي أنّ ربك الذي أعدّك لحمل رسالته يرعى دينك ويشمل علمه وقدراته جميع الناس، وخاصّة منهـم أولئك الذين اتخذوا لله ولداً. والذين سيزعمون يـوم نهضتهـم المقبلة أنّـهم «النـاس» من بين البشر جميعهم.

وقد جعلنا هلاكهم موعداً. تكلّمنا عنه في سورة الواقعة حيث قلنا هنـاك: ﴿**إذا وقعـت الواقعة. ليس لوقعتها كاذبه. خافضة رافعه. إذا رُجّـت الأرض رجـّاً. وبُـسّـت الجبال بسّاً. فكانت هباءً مُنبثّاً. وكنتم أزواجاً ثلاثة**﴾. فالواقعـة تعـني الحـرب والنـّازلة الشـديدة ـ راجع ص٢١٦ من فن الاختزال. فنحن أجّلنا إنزال الضُّـرّ ببـني إسـرائيل إلى حـين وقـوع تلـك الواقعة.

ثم أتى جل شأنه بواو العطف وقال: ﴿**وماجعلنا الرؤيا التي أريناك إلاّ فتنةً للنّاس**﴾.

أي أننا حين قرّرنا فسخ عهدنا مع موسى، ووعدنــاك أن نعيـد أرض كنعـان إليـك وإلى أمتّك لكم وكتبنا لكم فتحها وتشييد المسجد الأقصى في القدس. وكل ذلك أوحينـاه إليـك في رؤيا الإسراء التي أريناك إيّاها.

فإن تساءلت: لِمَ اختار ربيّ أن يـُوحي إليّ بهـذه الأمـور مـن وراء حجـاب، فلـم يختر طريق ارسال جبريل يحمل إليّ هـذه الأنبـاء والقـرارات؟ فـإن تسـاءلت يـامحمد عـن سـرّ ذلـك، أجبناك: ﴿**وماجعلنا الرؤيا التي أريناك إلاّ فتنةً للناس**﴾. أي أننـا اخترنـا هـذا الطريـق للكـلام معك، كي نوقع هؤلاء الذين اتخذوا لله ولداً في اختلاف في آرائهــم حـول هـذا الأمـر، ونجعـل ذلك سبباً لفتنتهم وإضلالهم، فهم لايطلبون الحقيقة ولايستجيبون لصوت السّماء.

ثم أتى جل شأنه بواو العطف ثانية وقال: ﴿**والشجرة الملعونـة في القـرآن**﴾ أي أننـا لم نختر إبلاغك يامحمد قرارنا إلاّ من وراء حجاب، ليس لايقاع هؤلاء وحدهم في ذلـك بـل كـان من جـُملة مقاصدنا أن نحدُث الأثر نفسه في صفوف اليهود أيضاً هـؤلاء الذيـن يمثـّلون شـجرة النّسب الملعونة في القرآن. هؤلاء الذين لعنّاهم في الآية الثالثة عشرة مـن سـورة المـائدة وقلنـا: ﴿**فبما نقضهم ميثاقهم لعنـّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية، يـُحرّفون الكلـم عـن مواضعـه ونسـوا حظّاً ممـّا ذُكـّروا به، ولاتزال تطلـّع على خائنةٍ منهم إلاّ قليلاً منهم، فاعف عنهم واصفـح، إنّ الله يحب المحسنين**﴾.

ثم أتى جل شأنه بواو العطف وقال: ﴿**ونخوّفـُهم**﴾ أي تذكّر يامحمد أنّ رحمتنــا، تدفعنـا ألاّ نـُهلك قوماً من قبل تخويفهم والقاء حـُجـّتنا عليهم. لذلك أنبأنا عن هلاك الذين اتخذوا لله ولداً من قبل، ونـُنبئ هنا عن هلاك اليهود، لنخـّوفهم ونلقـي حُجـّتنا عليهـم أيضـاً. فهـذا هـو ماتقتضيه رحمتنا الواسعة.

وبعد ذلك أتى جل شأنه بفاء الاستئناف، ليستأنف كلاماً جديداً، وقال: ﴿**فما يزيدهم إلاّ طُغياناً كبيراً**﴾. أي أن هؤلاء الذين أنذرناهم من يهود ومسيحيين، لم يستفيدوا من تخويفنــا إيـّاهم بهذه الأنباء، بل مايزيدهم تخويفنا إلاّ طغيانا كبيراً. أي تمادياً في عصيــانهم لمشيئة ربـّك يامحمّد، وخروجاً على إرادته، ولذلك وعلى هذه الصورة حقّ عليهم إنزال العذاب المذكور.

وراح جل شأنه يربط بين قضية المسيحيين واليهود وبين زمن بعثة آدم وقال:

الآيـــة الحـــاديـــة والســــتون
﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ، إلاّ إبليس قال أأسجد لِمَنْ خلقتَ طيناً﴾

فـأتى جـل شـأنه بـالواو العاطفـة، وبـالظرف (إذ) الـدالّ علـى الزمـن المـاضي، وبفعـل (اسجدوا) من سجد أي خضع وانحنى وانتصب فهو ضدّ (محيط المحيط). كما أتى بحرف (إلاّ) بمعنى غير وليس بمعنى الاستثناء وذلك علـى حسـب مـاتوضح لنـا مـن الآيـة (٣٠) مـن سـورة الحجـر، قولـه تعـالى: ﴿**فسـجد الملائكـة كلــّهم أجمعـون، إلاّ ابليـس أبـى أن يكـون مـع السّاجدين**﴾. حيث أنّ كلمتي (كلـّهم وأجمعون) لايتركون مجالاً للاستثناء. علمـاً بـأنّ سـورة الإسراء تعود في مضمونها إلى السّورة الأمّ وهي سورة الحجر، على حسب ماوضّحت ذلك في (فنّ الاختزال).

والمهمّ في الأمر هو أنّ الله عزوجلّ راح يربط ضمـن هـذه الآيـة الكريمـة موضوعيـاً بـين قضيتي اليهود والمسيحييـّن، وبين قصـّة آدم عليه السّـلام المـُصاغة بلسـان الحـال وليـس بلسـان القال. وذلك لأسباب منها: الأول تهدئة نفس محمــدٍ (ص) التـّواقة إلى أن يتقبـّل اليهـود دينـه الإسـلامي الحنيـف. والسـبب الثـاني تثبيـت مـا أورده الله عزوجـل آخـر سـورة النحـل قولـه: ﴿**فلاتك في ضيقٍ ممـّا يمكرون**﴾. وهو الإنباء عن أنّ اليهود لن يتقبـّلوا ماأنزلـه الله تعـالى علـى رسوله الأمين، بل وسيمكرون به وبدينه، ويـُحرّضون أعداءه عليـه. والسّـبب الثـالث أنّ قصـّة آدم المجازية اشتملت على هذا النّبأ الذي ذكرناه، فبدافعٍ من هذه الأسـباب وغيرهـا، راح جـل شأنه يربط مابين قوله تعالى: ﴿**ونـُخوّفهم، فما يزيدهم إلاّ طـُغياناً كبيراً**﴾. وبين ماأورده جـل شأنه في قصـّة آدم عليه السلام. وذلك كلّه تخفيفاً من الضيق الذي تملّك صدر رسوله الكريم.

وهكذا أتى جل شأنه بحرف إذ الدّال على الزمن الماضي، فذكّر محمداً رسـول الله (ص) بقصة آدم وقال: ﴿**وإذ قـُلنا للملائكة اسجدوا لآدم**﴾. والمعنى أن تذكّر أيـّها الرّسول الأمين ذاك الزمن الماضي الذي أخبرنا فيه ملائكتنا بمشيئتنا لاستخلاف آدم، حيـث أمرنـاهم بإخضـاع كل شيء لصالح دعوته، فاللاّم من (لآدم) استـُعملت للتعليل أي اخضعوا لعلـّة بعث آدم.

ثم أتى جل شانه بفـاء الاستئناف وقـال: ﴿**فسـجدوا إلاّ إبليـس**﴾ أي أنّ ملائكـة الله فعلوا ما أُمروا به، غير أنّ ابليس لم يفعل ما أمرناه به. فحصر الله تعالى عِصيان إبليس لأمر ربـه

بسببين رئيسيين: السّبب الأول أفاده إسم إبليس الوصفي، المشتقّ من أبلسَ أي قَنِطَ من رحمة ربّه (محيط المحيط). والسّبب الثاني أفاده قول إبليس نفسه وبلسان حاله: ﴿**قال أأسجد لمن خَلَقْتَ طليناً؟**﴾. فالملاحظ أنّ ابليس لم يقل (خلقته من طين) كما ورد في الآية (٨٢) من سورة الأعراف. بل أتى بصيغة الاستفهام الإنكاري وقال: ﴿**أأسجد لمن خلقت طيناً؟**﴾. والطين هو خليط تُراب وماء. ويستعمل مجازاً لجبلّة الإنسان الباطنيّة، كناية عن سلامتها وطواعيّتها. وكأنه قال: إنّ طبيعتي تختلف عن طبيعة آدم صاحب الطّبيعة الطينيّة اللّينه السّهله. أمّا طبيعتي فمن العسير عليها أن تلين وتنقاد. علماً بأنّ هذا الكلام أتى بلسان حاله على حسب ماوضّحت ذلك في المبحث الثالث من كتاب (الله جلّ جلاله). فهناك قدّمت القرائن الدّالة على هذا الفهم.

و لم يكتف إبليس باستفهامه الاستنكاري المذكور، بل أضاف يتوعّد، وقال بلسان حاله أيضاً:

الآيـة الثـانيـة والسـتون

﴿قال أرأيتَك هذا الذي كرّمت عليّ، لئن أخرّتن إلى يوم القيامة لأحتنكنّ ذُريّته إلاّ قليلاً﴾

وكلمة ﴿**أرأيتَكَ**﴾ من رآى أي نظر بالعين وبالقلب. والرأي ما ارتآه الإنسان واعتقده.

تقول: رأيي كذا أي اعتقادي. والرأي معناه الإصابة في التدبير. والرأي مارأيته في منامك. والرؤية النظر بالعين مادياً وبالقلب مجازياً. (اقرب الموارد). أمّا كلمة (كرّمت) فمن كرّمه أي عظمه ونزّهه. وكرّم الله وجهه: شرّفه. وكَرُم الرجل ضد لؤم أي عزّ نفساً وأعطى بسهولة (محيط المحيط). ثم إنّ كلمة (لأحتنكّن) من حنك يحنُك بضم نون المضارع أو كسرها. يقال حنك الفرسَ: أي جعل في فيه الرّسن. وأحنَكَ الدّابة أي وضع عوداً في حنكها. واحتنك زيداً: أخذ ماله كلّه. وعليه فمعنى ﴿**لأحتنكّن ذريّته**﴾ لأستولي على أموالهم واستأصلهم بالاغواء. (اقرب الموارد)

هذا بما يتعلّق بدلالات ألفاظ هذه الآية الكريمة. والملاحظ أنّ الله عزوجلّ استهل هذه الآية بفعل (قال) نسبة إلى إبليس. والمقصود أنّ ابليس قال بلسان حاله.

وليس بلسانه. ذلك أنّ قصّة آدم كما وضحته في المبحث الثالث من كتاب (الله جل جلاله) قد صيغت بلسان الحال وليس بلسان القال، وقد كان لصياغتها كذلك مقاصد خمسة: الأول أن يظلّ المؤمن معتقداً بتدخّل المملكة السماوية لتطوير هذا الكون ومافيه. والمقصد الثاني أن يرسم الله تعالى في مخيلة المؤمن صورة عن الأحداث التي تعقُب بعثة كلّ رسول ونبي.

والمقصد الثالث التذكير بأنّ الله تعالى يتجلّى في هذا الكون «ملكاً» وفق القوانين الطبيعية، كما يتجلّى حين يبعث رسولاً بصفته «مالكاً» يفعل مايشاء فعله. والمقصد الرابع التنبيه من خلاله إلى أن الله تعالى خلق الإنسان حُرّ الإرادة والتفكير والعمل والتّصرف، ليمتحنه في هذه الدنيا من خلال حاله هذا، والمقصد الخامس هو دفع الإنسان ليفرّق بين عمليّة تهذيب النّفس التي أسندت لأنبياء الله وصلحائه، وبين عملية التّحضير التي إن قام بها الإنسان على غير أساسٍ من هذا التهذيب، قد تحرف الإنسان عن المقصد من وجوده في هذا العالم. ذلك أنّ الله خالقنا يعلم ماتوسوس به نفوسنا، وماتخفيه صدورنا.

ويصبح معنى الآية الكريمة أنّ إبليس قال بلسان حاله إنّ هذا الذي شرّفته وفضلّته عليّ، لئن أخرتني إلى يوم القيامة، فسأستولي على أموال ذريته قريباً من يوم القيامة، وأسيطر على ذريّته فاستأصلهم بالإغواء إلا نفراً قليلاً منهم.

هذا وإنّ قول إبليس هذا يتضمّن أموراً ثلاثة هي بحاجة إلى التوضيح. فالمطلوب أولاً أن نعرف ما المقصود هنا من يوم القيامة. والمطلوب ثانياً أن نعرف كيف سيستولي إبليس على أموال ذريّه آدم، وكيف سيستأصلهم بالاغواء؟ والمطلوب ثالثاً أن نعرف هذا النّفر المستثنى من ذلك كلّه.

أقول إنّ الله عزوجلّ، ومن خلال هذه الصياغة لقصّة آدم البلاغية، يكون قد أنبأ بطريقٍ غير مُباشر عن وقوع هذه الأمور في المستقبل وفقاً لعلمه الغيبيّ.

أمّا المراد من يوم القيامة هنا، فليس المقصود به يوم البعث الأكبر. وإلاّ لكان تعالى قد قال ﴿**لئن أخرتني إلى يوم يبعثون**﴾. وهل يُعقل أن يكون لإبليس دور يلعبه في عالم البرزخ؟ فالمقصود من يوم القيامة هنا هو الإشارة إلى الحَدَثِ الرهّيب الذي أنبأت عن حدوثه سورة الواقعه. ذلك الحدث الأشبه بيوم القيامة. أي أنّ الله تعالى أنبأ هنا عن لسان حال إبليس أنّ اليهود والمسيحيّين الذين يمكرون بالإسلام ويتآمرون عليه ستحقّق هذه الأنباء من خلالهم قبيل حدث يوم القيامة الذي أشارت إليه سورة الواقعة. هذا الحدث الذي تضمّنته قوله تعالى قبل

آيتين قوله: ﴿وإن من قريةٍ إلاّ نحن مهلكوها قبل يوم القيامة﴾. خصوصاً وأنّ سباق الكلام متعلّق بالشجرة الملعونة في القرآن وهي شجرة نسب بنو اسرائيل كما رأيناه أي أن هذا الحَدَثْ يشيرٍ إلى تقديره تعالى اهلاك اليهود والمسيحيين.

أمّا كيف سيتحقّق استيلاء إبليس على أموال ذرية آدم وكيف سيستأصلهم بالاغواء؟ فهذا الأمر توضّحه سورة الكهف حين كلامها عن الدور الثالث لنهضه المسيحيين. حيث سيحاولون يومئذٍ استعمار بلاد المسلمين والهيمنة على اقتصادهم، فتلحَقُهم غِلال الأرض، كيماسيب النّحل، وهو الأمر الذي يحدث في هذين القرنين الأخيرين من الزّمان، فها أنّ الذين اتّخذوا لله ولداً ومن وراءهم من اليهود قد سيطروا على منابع النفط العربي، وأضحى لهم عملاء حقيقيّون من بين المسلمين أنفسهم، ممّا لايتسّع المقام للخوض فيه.

أمّا القليل المُستثنون من احتناكٍ ابليس إيّاهم، فهم جماعة الآخرين الذين صرّحت بهم سورة الجمعة ﴿وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم..﴾. فهؤلاء الآخرون هم حملة بعثة الإسلام الثانية، فالقرآن يفسّر بعضه بعضاً، من مُنطلق أنّه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير. وها أنّ سورة الواقعة أنبأت عن نتائج الواقعة وقالت:

(وكنتم أزواجاً ثلاثة: فأصحاب الميمنة. ماأصحاب الميمنه وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة. وهذه الآية الأخيرة تحمل الإشارة إلى معسكري المسيحيين واليهود ـ والسّابقون السّابقون أولئك المقربّون. في جنّات النّعيم. ثُلّةٌ من الأولين، وقليل من الآخرين). فهذا القليل الناجون من كارثة الواقعة هم المُستثنون فيما نُقل عن إبليس بلسان حاله قوله ﴿إلاّ قليلاً﴾. وهذه الأمور استعصى فهمها على المفسّرين السّابقين.

وقد راح جل شأنه يؤكّد هذا الفهم الذي توصّلنا إليه، فأضاف يقول:

الآيــة الثـالثـة والســتون

﴿ قال اذهب، فمن تبعك منهم، فإنّ جهنّم جزاؤكم جزاءً موفوراً ﴾

فالأمر الملفت للنّظر هو استهلاله جل شأنه لهذه الآية الكريمة بألفاظ ﴿قال اذهب﴾، فلِمَ استعمل تعالى صيغة فعل الغائب (قال)، ولم يأت بصيغة الحاضر (قلت اذهب) أو (قلت

اغرب عن وجهي)؟ فلا يتصرّف الله تعالى تصرّفاً دون حكمة بالغة. ثم إنّ فعل الأمر (اذهب) مشتقٌ من ذهب أي سار ومرّ. ومعنى أذهبه الله أزاله وجعله ذاهباً على حدّ قول الكشّاف. والذّهاب اسم يومٍ من أيّام حروب العرب كان فيه وقعةٌ عظيمةٌ ونُسِبَتِ التّسمية الى قبيلة خاضت غمار هذه الواقعة. (محيط المحيط) فماذا فهم صاحب تفسير الفخر الرازي من كلمتي (قال اذهب)؟ إنّه كتب يقول: (واعلم أنه تعالى لمّا حكى عن إبليس ذلك، حكى عن نفسه أنه تعالى قال له اذهب. وهذا ليس من الذهاب الذي هو نقيض المجيء. وانّما معناه إمض لشأنك الذي اخترته، والمقصود التخلية وتفويض الأمر إليه.) تفسير الفخر الرازي المجلّد الحادي عشر.

وأنا لا أرى انسجام هذا المعنى الذي ذهب إليه الفخر الرازي، لاأرى انسجامه مع التّسلسل الموضوعي للآيات القرآنية. فقصّة آدم الواردة بلسان الحال. وسباق هذه الآية الذي فيه توعّد ابليس لذريّه آدم باحتناكها قبل يوم القيامة. فهذا التسلسل الموضوعي يُلزمنا أن نأخذ بمعنى أذهبه الله أزاله في هذا المقام. خصوصاً وأنّ الذّهاب اسم يوم من أيّام حروب العرب وكان فيه واقعة عظيمة. وقيل يوم القيامة تحدث الواقعة التي سُمّيت بيوم القيامة أيضاً لهول أحداثها.

وعليه فالذي أفهمه من قوله تعالى: ﴿**قال اذهب**﴾ أنّ هذه الألفاظ أتت مُبطّنة بنبأ الواقعة. أي يا إبليس إن أنت توعدّت (لأحتنكنّ ذريّته) فنحن من جانبنا قرّرنا أيضاً إزالتك يومئذٍ من الوجود والقضاء عليك بواقعة مقدّرٍ حدوثها لتحقيق هذه الغاية، فانتظر لنفسك يومئذ هذا المصير المشؤوم، وهكذا يبرز من هذه الدلالة اعجاز صياغة ﴿**قال اذهب**﴾ البلاغية وينسجم التسلسل الموضوعي أيضاً.

ومن ثمّ قال تعالى: ﴿**فَمَنْ تَبعك منهم**﴾ فهل أنّ الفاء هنا للاستئناف؟ فإن كان صحيحاً، يستثنى إبليس من استحقاق جهنّم، وينحصر استحقاق جهنّم فيمن تبع إبليس من ذرية آدم. وهذه نقطة لم تلفت أنظار المفسرين.

أمّا أنا فأرى أن الفاء استعملت هنا بمعنى الواو العاطفة. كقول امرؤ القيس: قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلٍ بِسَقط اللّوى بين الدّخول فحومل (أي بينهما) ويصبح بالتالي معنى ﴿**فمن تبعك منهم**﴾ أي واعلم يا إبليس أننا لم نتخذ قراراً بازالتك وحدك من الوجود، وبل وإنّ قرارنا هذا يشمل من تبعك منهم قبل يوم القيامة من يهود ومسيحيين.

وهنا أتى جل شأنه بفاء الاستئناف، ليستأنف أمراً وقال ﴿**فإنّ جهنّم جزاؤكم جزاءً موفوراً**﴾. فأتى جل شأنه بإنّ للتوكيد، وبلفظ جهنّم، وهو اللفظ الذي سبق أن هدّد بمضمونه من قبل حين: ﴿ولاتجعل مع الله إلهاً آخر فتُلقى في جهنم ملوماً مدحوراً﴾. أي أنّه تعالى فسّر جهنم بهذه الواقعة الرهيبة التي ستزيل الذين اتخذوا لله ولداً واليهود وعملاءهم من الوجود.

وهو تعالى وقد قال (جزاؤكم). فالجزاء مصدر واسم مصدر كالعطاء فهو مشتقٌّ من جزاه أي كافأه. الأمر الذي يعني أنّ الله تعالى يتهكّم على هؤلاء ويقول ها أنتم يا أمّم المسيح الدّجال، ويامن معكم من اليهود والعملاء قد سعيتم للمكر بالإسلام وأهله وتآمرتم عليه. ونحن نكافئكم بدورنا باهلاككم وإزالتكم من الوجود. وقد كان جزاؤكم جهنم هذا الذي سنكافئكم به ﴿**جزاءً موفوراً**﴾ أي تاماً غير منقوص. من وفر المال: كما وتم، وشيءٌ موفور أي شيء تام.

وهكذا يصبح معنى قوله تعالى ﴿**فإنّ جهنّم جزاؤكم جزاءً موفوراً**﴾. أنّ عملية اهلاككم بالواقعة المُنبأ عنها، أيها اليهود والغربيون هو أمر يقيني، ولايصل إلى حد الظُّلم. بل هو جزاء موفور تام تُكافأ به مؤامراتكم ضد الإسلام ومكركم به وبأهله، ومحاولتكم السيطرة على أموال ذرية آدم من المؤمنين واغواءهم واستئصالهم بالإغواء، طيلة أربعة عشر قرناً مُتتالية من الزّمان، فهذه المكافأة تأتي كاملة في جميع موازين العدالة المعروفة.

وقد راح جلّ شأنه،وبعد هذا الوعيد الذي توعّد به إبليس، يزيد القارئ إيضاحاً ويُعطيه فكرةً مُجملة عن معالم زمن حدوث الواقعة التي ستنهي وجود ابليس المتمثل في ذريّته من هؤلاء اليهود وأمم المسيح الدجّال من الوجود وقال:

الآيـة الرابعـة والستون

﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، واجلب عليهم بخيلك ورَجِلك ، وشاركهم في الأموال والأولاد ، وعدهم ، ومايعدهم الشيطان إلاّ غروراً ﴾

فأتى جل شأنه بالواو العاطفة، وبالفعل (استفزز) المتعدّي، المشتق من أفزّه أي أزعجه وطيّر فؤاده وأفزعه. واستفزّ فلاناً استخفّه واستدعاه. كما أتى بكلمة (صوتك) من صات أي نادى وأحدث صوتاً. والصّوت ماتسمعه عند القرع والقطع والخلع من ضوضاء وجَلَبه واستغاثة. كما أتى بفعل (واجلب) من جلبه أي ساقه من موضعٍ إل آخر، وجاء به من بلدٍ

للتّجاره. وجلب على الفرس أي زجره وصاح به من خلفه واستحثّه للسّبق. كما أتى بفعل (وشاركهم) من شارك فلانٌ فلاناً أي وُقعّت بينهما شركه. كما أتى بفعل (وعِدهم) من وعده بالأمر إذ قال له أن يجزيه له أو ينيله أيّاه. وأتى أخيراً بكلمة (غروراً) من غرّ فلانٌ فلاناً أي خدعه وأطمعه بالباطل. فالغرور مصدر وجمعُ الغُرّ والأباطيل. وقيل الغرور تزيين الخطأ بما يوهم أنه صوب. وقال في التّعريفات: الغرور هو سكون النفس إلى مايوافق الهوى ومايميل إليه الطّبع عن شبهةٍ وخدعةٍ من الشيطان (محيط المحيط).

فإن نحن علمنا أنّ إبليس زمن آدم عليه السلام، ماكان يملك هذه المقوّمات التي حملتها هذه الألفاظ من هذه الآية الكريمة. حتى ولم تتوفر هذه المقومات المذكورة لأحدٍ من ذريّة إبليس، إلا في زماننا هذا الذي بلغت فيه الأمم الذين اتخذوا لله ولداً واليهود شأواً من التقدّم والقّوة مامكّنهم من لعب الدور الذي أشارت إليه هذه الآية الكريمة. خصوصاً وأنّهم تفوّقوا على المسلمين عَدَداً وعُدُداً، وهدّدوا الإسلام في عقر داره.

وصوتهم أضحى مسموعاً في العالم كلّه. فهؤلاء هم الذين ينطبق عليهم قوله تعالى (واستفزز) أي أزعج وأفزع واستخفّ من استطعت استخفافه وإفزاعه وإزعاجه من هؤلاء المسلمين المتخلّفين. وهؤلاء المذكورون هم الذين ملكوا جيوشاً جرّارة مُجهَّزةً بأحدث الأسلحة الفتاكه، فهم الذين وُجّه إليهم خطاب: ﴿**واجلب عليهم بخيلك ورَجِلك**﴾ أي هيّا هدّدهم جماعة المؤمنين ما استطعت بجيوشك الجرّارة وبأسلحتك الفتّاكة التي حُزت عليها. وهؤلاء هم الذين هيمنوا اليوم اقتصادياً على العالم الإسلامي، بعد أن سيطروا على ثروات المسلمين العرب من نفطٍ وغيره. لذلك فهم من يصحّ أن ينطبق عليهم خطاب: ﴿**وشاركهم في الأموال والأولاد**﴾ أي هيّا يامن تمثّل الشيطان بعينه طمّع هؤلاء الناس بتشغيل رؤوس أموالك الكبيرة في بلادهم. وأقرب مثل على ذلك المؤتمر الاقتصادي المنعقد هذه الأيّام في القاهرة والذي يشكّل أحد سلسلة هذه الحلقات.

ولنلاحظ أنه جلّ شأنه أضاف يقول (وعِدهم) أي أغرهم بوعودٍ مُغريةٍ من جانبك ليستسلموا لمخططاتك الاقتصادية التي تستكمل عن طريقها هيمنتك واستيلائك على أموال هؤلاء المسلمين المتخلّفين من عرب وسواهم.

وراح تعالى فأنهى هذه الآية الكريمة التي تفضح أمم المسيح الدّجال واليهود هؤلاء الذين هم ذريّة إبليس، والمشار إليهم في هذا الخطاب الإلهي من قصّة آدم المجازية وقال: ﴿**ومايعِدُهم**

الشيطان إلاّ غروراً﴾، مُستبدلاً كلمة إبليس بالاسم الوصفي الثاني له وهو اسم الشيطان. من شاط أي احترق والدّال على مايقوم به المسيحيون واليهود من مكرٍ ومؤامراتٍ ضدّ الإسلام.

وهو جل شأنه أتى في قوله هـذا بـالواو العاطفـة ليعطـف هـذه المعلومـة علـى سـابقاتها. مُنّوهاً ومحذّراً ذريّة آدم المؤلفة مـن هـؤلاء المسلمين المتخلـّفين، مـن أنّ أمـم المسيح الدجـال واليهود هؤلاء لايُؤمَنُ جانبُهم، لأنهم من ذريّة إبليـس ويقومـون بأعمـال الشيطان، فهؤلاءهـم الذين أنبأت عنهم قصـّة آدم المجازية والمصاغة بلسان الحال.

فالله عزوجلّ يحذّر مسلمي عصرنا ليوقنوا أنّ وعود هؤلاء جميعها هي من قبيل الكـذب والخداع والتضليل والتطميع بالباطل وتزيين الخطأ بما يُوهم أنـّه صواب. فهذا هو سرّ تسـميتهم على لسـان محمـد رسـول الله (ص) بالمسـيح الدّجـال. ولايسعى هـؤلاء أصـلاً إلاّ لاسـتكمال استنزاف ثروات المسلمين، للهيمنة عليهم وعلى بلادهم إلى أبد الآبديـن. كمـا أنـه تعـالى ينبـّه الأذهان إلى أن أعداء الأنبياء جميعهم استخدموا نفـس الوسـائل والحيـل، محـاولين احبـاط دعـوة الحقّ السماوية على مرّ الدّهور، لكنهم لم يتمكنوا أبداً من تحقيق مايطمحون إليه.

وبعد أن فرغ الله جل شأنه من إعطاء فكرةٍ مجملةٍ عما سيحدث قبيـل يـوم القيامـة يـوم تقع الواقعة التي سيستأصل الله تعالى بها ذريـّه ابليـس مـن جذورهـم. راح تعـالى يعطـي فكـرة موجزة أيضاً عن حال هـذا القليـل الذيـن اسـتثناهم إبليـس مـن وعيـد احتناكـه ذريـة آدم عليـه السلام.

وقد أطلق الله جل شأنه على هذا القليل وصف «عبادي» وقال:

الآيـــة الخـامســـة والســـتون
﴿ إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان، وكفى بربّك وكيلاً ﴾

فأتى جلّ شأنه بإنّ لتوكيد ماسيُعلنه ويقرّره. وجاء بكلمة (عبادي) مـن عبـد الله تعـالى أي طاع له وخضع وذلّ وخدمه والتزم شرائع دينه ووحـّده. وأتـى بكلمـة (ليـس) الدّالـة علـى نفي الحال ونفي غيره بالقرينة. كما أتى بلام الاختصاص فأدخلها علـى ضمـير المخـاطب وهـو إبليس. وبكلمة (سلطان) التي تعني الحجـّة والتسلـّط وقـُدرة الملـك والـوالي والملـك. كمـا أتـى بفعل (كفى) من كفى الشيءُ: حصـل بـه الاسـتغناء عـن غـيره فهـو كـاف. وببـاء الاسـتعانه.

وبكلمة (وكيلا) من وكل بالله: استسلم إليه. والوكيل فعيل بمعنى مفعول، لأنه موكولٌ إليه. ويكون بمعنى فاعل إذا كان بمعنى حافظ. (محيط المحيط).

وبذلك يصبح قوله تعالى: ﴿**إنّ عبادي ليس لك عليهم سُلطان**﴾. أنّ المؤمنين يومئذٍ، الذّين يسعون سعي الآخرة، ويعبدون الله ويطيعونه ويخضعون لأوامره، ويتذلّلون بين يديه ويخدمون دينه، ويلتزمون شرائع هذا الدين، ولايتخذون مع الله إلهاً آخر سواه، ولايُحبّون شيئاً من دون الله كحبهم لله عزوجل. أي أن المؤمنين الذين يستوفون هذه الشروط، فلن يكون للشيطان يومئذٍ عليهم من سبيل، فلا يقدر على التسلّط عليهم ولايقدر على إذلالهم وإخضاعهم لسلطانه. فهذا قدرٌ قدرّه الله تعالى بخصوص هذا القليل المُستثنون بلسان حال إبليس. فهؤلاء العباد ينجيهم الله عزوجلّ أيضاً من عذاب الواقعة المدّمرة التي ستزيل وتنهي وجود إبليس وذريتّه من الوجود.

ثم أتى جلّ شأنه بالواو العاطفة وقال: ﴿**وكفى بربّك وكيلاً**﴾. أي أنّ هذا القليل من العباد يختلفون اختلافاً جذرياً عن ذريّة إبليس، الذين يفكّرون بتفكيرٍ مادّي، ويعتمدون على الأسباب المادية الطبيعية، فيخوّفون المؤمنين بالأسلحة الفتّاكه التي يمتلكونها وبالجيوش الجرّارة التي حشدوها، ويحاولون الهيمنة على هذا القليل المؤمن اقتصادياً وإلى محاولات للهيمنة الاقتصادية عن طريق ماكدّسوه من رؤوس أموال، وإلى إغراءات بوعود معسولةٍ كاذبة.

فعباد الله القليل المشار إليهم، يختلفون عن ذرية ابليس بصورة جذريه، فلا يستعينون إلاّ بربّك يامحمد يارسول الله بربّك الذي أعدّك لحمل رسالة الإسلام. فربّك يامحمد هو يكفيهم ويغنيهم عن الاستعانة بسواه. فهو كافٍ لهم، فقدرته وعلمه وخزائنه لاتعرف الحدود.

وكأنه جل شأنه قد قال بألفاظٍ أخرى: إني، وأنا خالق هؤلاء الأشرار، لا آسف على اتخاذي القرار بمحوهم من الوجود. كما وأَعِدُ عبادي الصالحين أن استخلفهم في الأرض بعد تطهيرها من رجس هؤلاء الأشرار. فالأرض يرثها عبادي الصّالحون.

فإلى هنا لابدّ أن نكون قد لاحظنا كيف دعى الله عزوجلّ هؤلاء والناس عامّة إلى توحيد ربّهم كذلك نهاهم عن أن يشركوا به أحداً لاظاهراً ولاباطناً. وحذّرهم في الوقت نفسه من مخاطر الشرك بالله تعالى ومن النتائج المترّتبه على ذلك. كما وضّح جلّ شأنه أن السبب الحقيقي فيما يجري في العالم من فتن ومؤامرات ضدّ الإسلام خاصّة فمرتبط حدوثه بما يمكره اليهود وبما تحيكهُ أمم المسيح الدّجال من مؤامرات. كما قرّر جلّ شأنه إزالة هؤلاء

الماكرين المتآمرين من على وجه الكرة الأرضية، بواقعةٍ مقدّرٍ حدوثها للقضاء عليهم ومحوهم من الوجود. وأنّ هذه الواقعة ستكون من هولها أشبه بيوم القيامة المعروف.

والله جل شأنه إذ أنهى الآية الآنفة الذّكر بقوله تعالى: ﴿**وكفى بربك وكيلاً**﴾. بعد أن تعرّض لجميع ماذكرناه. لابدّ للواحد من هؤلاء اليهود والمسيحيين الذين عادوا يفكرون بتفكيرٍ مادّي أن يُخالج صدره سؤال وهو: وهل من دليل محسوس من واقع هذه الحياة يثبت منه مصداقية وجود إله يكفي من يتوكّل عليه؟ هذا الإله الذي دعا إليه الإسلام ليتوكل الإنسان عليه؟

وانطلاقاً من أسلوب ربّنا في صياغته لآيات كتابه العزيز، وهو أنه لايدع سؤالاً جوهرياً يخالج صدر الإنسان أو يطرح نفسه تلقائياً إلا ويجيب عليه بأسلوبٍ بلاغي. فقد راح جل شأنه يجيب على السؤال المذكور إجابةً مُفحمةً طرحها على مراحل أربعة، مرتبةً ترتيباً منطقياً مدهشاً، وتضمّنتها أربع آيات فقط. على حين أنه لو أراد أيّ كاتب التعبير عن محتوياتها، لاحتاج إلى صفحاتٍ وصفحات. وعليه فقد أتت إجابته تعالى والحال هذه في مُنتهى الإعجاز البلاغي. ففي الآية الأولى من جوابه حدّد تعالى إطار المثال الحسّي المطروح. وفي الآية الثانية صوّر حال المسيحيين واليهود في اطار هذا المثال. وفي الآية الثالثة زاد على مااحتواه المثال من أمورٍ لاتخطر ببال هؤلاء، بسبب عمى بصيرتهم عن الحقائق الكونية. وفي الآية الرابعة دعاهم لتصوّر وتخيّل حدوث أيّ خللٍ في المثال الطبيعي الحسّي الذي تعرّض لذكره. ولنأت الآن على شرح هذه الآيات. فالله عزوجل قال أولاً:

الآية السادسة والستون
﴿ ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر، لتبتغوا من فضله، إنه كان بكم رحيماً ﴾

وكلمة (يُزجي) من زجى الشيءَ: دفعه برفق، واللام في الجار والمجرور (لكم) تفيد شبه التّمليك. أمّا (البحر) فخلاف البرّ، وهو الماء الكثير والنهر العظيم كالنيل مثلاً.

ثم إنّ كلمة (لتبتغوا) من بغاه وابتغاه أي طلبه. واللاّم التي في أولّها هي لام التّعليل. ومعنى (من فضله) أي من كمال إحسانه. وقال في الكلّيات: الفضل يكون في الخير ويستعمل لمطلق النّفع. أمّا كلمة (رحيما) فإسم من أسماء الله الحسنى مشتقٌ من رحمه أي رقّ له وغفر

وتعطّف. فرحيم يدل على إيصال الخير ودفع الشرّ وترك عقوبة الذي استحق العقوبه. ذلك أنّ الرحمة الإلهية تمثّل الجود لا لغرضٍ بنفسه (محيط المحيط).

فالمثال الذي احتوت عليه هذه الآية الكريمة استقاه الله تعالى من واقع التـّقسيم الجاري على سطح الكرة الأرضية. فالله تعالى يقول: مالكم لاتـُلاحظون أنّ سطح كوكبكم الأرضي مقسّم إلى يابسةٍ وبحارٍ وسطها جزرٌ من اليابسة أيضاً. ومالكم لاتلاحظون أنـّه لولا الرّياح الـتي كانت تدفع مراكبكم الشراعيـّة برفقٍ لتصل براكبيها إلى المكان الذي يريدون الوصول إليه وهم وسط بحرٍ مُتماوجٍ متلاطم. أي لولا هذا النـّظام الكونيّ الذي قدّره ربكـّم لتسيير مراكبكم في البحر ورحمة بكم وبغيركم. فلولا ذلك فهل كان بإمكان أهل مختلف القارات ومختلف الجزر الواقعة ضمن هذه البحار، والتي تحيط بها المياه من كلّ جانب، هل كان بإمكان هؤلاء جميعهم أن يتلاقوا ويتعرّف بعضهم على بعضٍ ويتاجروا فيما بينهم؟ فهل تستسيغ عقولكم والحال هـذه أن يُوجد هذا النظام الكوني وقوانينه صُدفةً ودون حُسبان من خالقكم؟

وهو جل شأنه إذ أتى بلام التعليل التي أدخلها على فعل (تبتغوا) فقد وضـّح بذلك من خلال هذا المثال المذكور أنه كان يهدف انزال فضل يفضـّله ربكـّم على البشر. وهذا ماعبـّر عنه بقوله ﴿**لتبتغوا من فضله**﴾ أي أنّ ربّكم يوم أبدع هذا النظـام وهـذا المثـال الحسـّي، كـان هدفه من ذلك أن تتلمّسوا فضل ربّكم عليكم، وإحسانه الذي يمثل الخير ومطلق إيصال النّفع الى المخلوق.وهو جل شأنه وقد أنهى هذه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿**إنه كان بكم رحيماً**﴾ فللفت أنظار هؤلاء الذين يخاطبهم إلى أنه جل شأنه دأب فيما مضى على نهجٍ رحيمٍ بهم طوال الفترة التي سبقت إنزال هذا الكتاب العزيز.فهو تعالى كان دوماً يرقّ لحالكم ويتعطـّف عليكم ويغفر صدودكم عنه واتخاذكم ولداً له ظُلماً وعُدواناً. وهكذا يكون الله عزوجلّ قد لفت أنظار هؤلاء إلى مثالٍ حسّي من واقع سطح الكرة الأرضية، وأعطى فكرةً عن قوانينه الهادفة، وتدخـُّل ربوبية الله بوجهها الرّحيم، وكلّ تلك المعلومات ضمّنها آية واحدةٍ لاتتجاوز عدد كلماتها عشر كلمات، وأنهى بذلك المرحلة الأولى من إجابته عزوجل.

ومن ثم انتقل إلى المرحلة الثانية من هذه المرحلة ليـُصوّر حال هؤلاء في الفترة الماضية وقال:

الآيــة الســابعــة والســتون

﴿ وإذا مسّكم الضرّ في البحر ضلّ من تدعون إلاّ إياه، فلمّا نجّاكم إلى البرّ أعرضتم، وكان الإنسان كفوراً ﴾

فأتى جل شأنه بالواو العاطفة ليعطف ماسيدلي به على سابقه، كما أتى بحرف (إذا) حاذفاً فعل كان الذي ينبغي أنه يسبقه، دفعاً لتكراره مع (كان) التي سبقته ضمن قوله تعالى: ﴿إنّه كان بكم رحيماً﴾، حدث هذا من منطلق أنّ كلام الله تعالى في هذه الآية الكريمة لايزال دائراً حول الزمن الماضي الذي مرّ بهؤلاء الذين يطلبون هذا المثال الحسّي.

كما أتى بفعل (مسّكم) من مسّ الشيء لمسه وأفضى إليه بيده من غير حائل وأصابه واختبره.

وأتى بكلمة (الضّر) بمعنى الشدّة وسوء الحال هذه الأمور التي تعرض للرّاكب في الفُلك وهو في عرض البحر من حالة إقبالٍ على الغرق إلى حالة إصابةٍ بمرض أو هُزالٍ أو دوّار. وأتى بفعل (ضلّ) ضدّ اهتدى أي جار عن حقٍ أو طريق أو دين. (محيط المحيط)

أتى بهذه الألفاظ وقال: ﴿وإذا مسّكُم الضُرّ في البحر ضلّ من تدعوه إلاّ إيّاه﴾، أي ويامعشر اليهود والمسيحيين المتآمرين الماكرين بالإسلام، تذكروا ماضيكم الذي سبق نهضتكم هذه وقبل اختراعكم أساطيلكم البخارية كيف كان إذا حلّ بكم شدّه وسوء حال وأنتم في مراكبكم الشّراعية في عرض البحر، كنتم تتناسون كلّ شيء وتلتفتون للدّعاء والتضرع بين يدي الهكم الذي تعتقدون به، فما كان يستجيب لأدعيتكم ويدفع عنكم شدّتكم وسوء حالكم إلا الله الذي أوجد هذا النّظام الطبيعيّ. فهل تناسيتم ماضيكم هذا ولم تأخذوه بحسبانكم؟

ثم أتى جلّ شأنه بفاء الاستئناف فأدخلها على الظرف (لمّا) وبمعنى حين، وقال: ﴿فلمّا نجّاكم إلى البرّ أعرضتم﴾ أي أنكم حين كنتم يستجيب لكم الله تعالى ويرفع عنكم سوء حالكم وينجيكم ويوصلكم إلى البرّ (أعرضتم) أي صددتم عن التذلّل بين يدي ربكّم والتوكّل عليه، وأخذتم في حياتكم اليومية نهجاً غير النهج المذكور. فهذا هو ماضيكم الذي كنتم تستحقون عليه أنواع العقاب.

ثم أتى جلّ شأنه بالواو العاطفة لينهي هذه المرحلة الثانية من إجابته وقال واصفاً حال هؤلاء اليهود والمسيحيين ضمن تلك الفترة الماضية من حياتهم وقال: ﴿وكان الإنسان كفوراً﴾

أي لاتخدعكم هذه الأمم التي تدّعي الحضارة والإنسانية من دون بقية البشر ـ ذهبت إلى هذا المعنى بدليل تعريف كلمة (إنسان) في هذا المقام ـ فلا يخدعنّكم هؤلاء فقد كانوا على مدى تاريخهم الطّويل سيماهم الجحود بنعمة ربّهم وأفضاله عليهم على الدّوام.

وكأنّ الله عزوجلّ قد قال ضمن هذه الآية الكريمة وبألفاظٍ أخرى: إنّ أفئدة هؤلاء المُقرّر إهلاكهم والتي تختلج صدورهم بمطالبتنا بمثالٍ حسّي يُجلّي كفاية الله عبده الذّي يتوكّل عليه، وعليه فلا يستغرب ذو العقل أن ينقلب هؤلاء إلى أصحاب تفكير ماديٍ محض بعد أن وفقناهم لاختراع الآلة البخارية وإلى تصنيع هذا الحمار الذي يخرج من أسته نار.

فلّما فرغ الله جلّ شأنه من هذه المرحلة الثانية من إجابته التي صوّر خلالها تاريخ اليهود وأمم المسيح الدّجال والتي سبق نهضتهم الحاليّه. انتقل في المرحلة الثالثة من إجابته ليسألهم بأسلوب الاستفهام الاستنكاريّ وقال:

الآيــة الثـامنــة والسـتون

﴿ أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البَر، ويُرسلَ عليكم حاصباً، ثم لاتجدوا لكم وكيلاً﴾

فأتى جلّ شأنه بهمزة الاستفهام الاستنكاري، وأدخلهما على فعل (أمنتم) من أمن أي اطمأنّ وضد خاف. وتقول أمن فلاناً: أي ولاّه أمره.

كما أتى بفعل (يخسف) من خسف المكانُ أي ذهب في الأرض وغرق. وخسف الله تعالى الأرض: أساخها بما عليها. وخسف الله تعالى بفلان الأرض: أي غيّبه فيها. كما أتى بشطر (جانب البّر) في مقابل جانب البحر. (محيط المحيط)

أي أنه جلّ شأنه صاغ هذه الآية الثالثة من هذه الألفاظ، وقال: ﴿**أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البّر**﴾، مُستنكراً حال هؤلاء الذين فقدوا في نهضتهم المعاصرة كلّ عنصر روحي واطمأنّوا إلى ماوصلوا إليه من تقنيّات وتكديس أموال وهيمنةٍ على البرّ والبحر.

استنكر هذا التردّي الذي آلوا إليه، وراح يستفسرهم عن حالهم هذه بأسلوب الاستفهام الاستنكاري ويقول لهم: هل اطمأننتم الآن وظننتم أنّكم ماعدتم بحاجةٍ إلى التوكّل على ربكّم، وتملككّم شعور أنكّم أمسيتم بمأمن من بطش ربكّم؟ وهلاّ تتعظّون بالزلازل التي

تحدث وبالانهدامات التي تخلفها وراءها، فهل أمنتم أن يخسف بكم ربكّم جانب البرّ بوسيلة إحداث زلازل مدمّرة تهلككم؟

ثم أتى جل شأنه بحرف (أو) العاطفْ، وراح يستفرهم أيضاً بنفس الأسلوب الاستنكاري وقال: ﴿أو يُرسَل عليكم حاصباً﴾. أي هلاّ تتّعظون بما تحدثه الريّاح العاصفه، فهل أمنتم أن يرسلَ عليكم ريحاً شديدةً عاصفةً هوجاء وعوارض ثلجيّة مهلكة تنعدم بسببها معالم الحياة؟ فهذه هي معاني (حاصباً) على حسب ما أوردها صاحب معجم (محيط المحيط).

وأتى بعد ذلك بحرف (ثمّ) الذي يفيد الترتيب، وراح جلّ شأنه يلوّح لهم بما ستسفر عنه حالهم الجديدة وقال: ﴿ثم لاتجدوا لكم وكيلاً﴾. أي إن تبدّل حالكم هذا إلى الأسوأ، يقتضي من جانبنا أن نغيّر نهجنا بالتالي الذي انتهجناه تجاهكم من قبل، فإن عدتم تدعوننا في حال الشّدة بعد اليوم ﴿لاتجدوا لكم وكيلا﴾ أي لن نعود نغيثكم ونرأف بحالكم مهما ساء، وبالتالي فلا تعود هناك من فرصةٍ أمامكم لتجدوا مَنْ تدعونه وتتوكّلون عليه.

و لم يتوقّف جل شأنه عند هذا الحدّ من تهديده بالخسف والحاصب، بل أضاف يستنكر أيضاً ويقول في المرحلة الرابعة من إجابته:

الآيـة التاسـعـة والسـتون

﴿ أم أمنتم أن يُعيدكم فيه تارةً أخرى، فيرسلَ عليكم قاصفاً من الرّيح فيغرقكم بما كفرتم، ثمَ لاتجدوا لكم علينا به تبيعاً ﴾

فأتى جلّ شأنه بحرف العطف (أم) المخصّص هنا لطلب التّصور ولايحتاج إلى جواب. كما أتى بكلمة (قاصفاً) التي تعني ريحاً شديدة هوجاء. وبكلمة (تبيعاً) التي تعني النّاصر والتّابع المطالب والثّائر. (محيط المحيط)

أي أنّه جل شأنه صاغ الآية الرابعة هذه التي تضمّنت المرحلة الرابعة من إجابته وقال: ﴿أم أمنتم أن يُعيدكم فيه تارةً أخرى﴾ أي يامعشر اليهود والمسيحيّن هل بلغ بكم اطمئنانكم بعد الذي بلغتموه من رقّي حضاريّ وتقنّي. درجةً ماعدتم تتصورون معها أن يبدّل الله تعالى نهج رفقه بحالكم. علماً بأنّ الفاء في الجار والمجرور (فيه) تفيد معنى السببيّة الفصيحة لأنّه حُذف هنا كلمة البحر وهي المعطوف عليه.

أي هل تدرون مايحدث تارةً أخرى فيما لو بدّل الله تعالى نهجه السّابق الذي انتهجه معكم وأنتم وسط البحر في أسوأ أحوالكم؟

وهنا أتى جل شأنه بفاء الاستئناف ليستأنف موضّحاً النتائج التي سيسفر عنها تبدّل نهج الله الذي كان يزجي لهم الفلك في البحر وقال: ﴿**فيرسلَ عليكم قاصفاً من الرّيح**﴾ أي يرسل عليكم بعدها ريحاً شديدة هوجاء وأنتم في عرض البحر. فلا يُبالي بصُراخكم وطلبات استغاثكم، ولايعامل مراكبكم برفق بل، وهنا أتى بفاء الاستئناف وقال: ﴿**فيغرقكم بما كفرتم**﴾ أي يدع البحر يبتلعكم من جرّاء مالكم من تاريخٍ أسود ذكرّناكم بمعالمه، وهو أنكّم كنتم دوماً تدعونه في حال الشدّة في عرض البحر، حتى إذا نجّاكم إلى البرّ أعرضتم وجحدتم بنعمة ربكّم أن أوصلكم إلى شاطئ الأمان.

وبعد ذلك أتى جلّ شأنه بحرف ثمّ الذي يفيد الترتيب وقال: ﴿**ثمّ لاتجدوا لكم علينا به تبيعاً**﴾. أي إن نحن بدّلنا نهجنا معكم فأغرقناكم بريحٍ عاصفةٍ هوجاء في عرض البحر. ستتلّفتون في تلك اللّحظات يُمنة ويُسرة إلى ماحولكم، فلن تظفروا آنذاك بمن يُتابع أمركم وينصركم ويثأر لكم ويطالب بحقوقكم. فإن شئتم ياأمم المسيح الدّجال ويابني اسرائيل أن تثابروا على مكركم وتآمركم على الإسلام، رافضين أن تعتنقوا هذا الدين الحنيف لكم ديناً، فانتظروا أن تلاقوا هذا المصير المشؤوم الذي دعوناكم لتصوّره.

فلـمّا فرغ الله جل شأنه من إجابته البليغة التي تدرّج خلالها ضمن هذه المراحل الأربعة السّالفة الذّكر وبهذا الإيجاز المُعجز. توجّه ليذكّر هؤلاء اليهود والمسيحيين بتاريخ علاقته مع جماعات المؤمنين من ذريّة آدم. هؤلاء العباد الذين طالما توكّلوا على ربّهم وطالما كفاهم ربّهم على الدّوام وقال:

الآيـــة الســـبعون

﴿ولقد كرّمنا بني آدم، وحملناهم في البـّر والبحر، ورزقناهم من الطيّبات، وفضّلناهم على كثيرٍ ممّن خلقنا تفضيلاً ﴾

فأتى جلّ شأنه بالواو العاطفة مع لام الإبتداء ليدخلها على (قد) الحرفيّه لتصبح (ولقد).
كما أتى بفعل (كرّمنا) أي فضّلنا، هذا الفعل الذي ورد على لسان حال إبليس من قبل قوله: ﴿**قال أرأيتك هذا الذي كرّمت عليّ..**﴾. (محيط المحيط)

أتى جلّ شأنه بهذه الألفاظ وقال: ﴿**ولقد كرّمنا بني آدم**﴾ أي مالكم يامعشر اليهود والمسيحيين تطالبوننا بمثال حسيّ يثبت منه كفايتنا للذّي يتوكّل علينا من المؤمنين، وتتناسون تاريخ جماعات المؤمنين السّابقين من بني آدم الذين أثبتت تواريخهم أننا كرّمناهم وفضلّناهم في حينه يقيناً.

ثم أتى بالواو العاطفة وأضاف قائلاً: ﴿**وحملناهم في البرّ والبحر**﴾ أي ولقد كانت تلك الجماعات المؤمنة تمتلك سفناً شراعيةً على شاكلة ماكنتم تملكون. ولقد قُمنا بالتلّطف بهم برّاً وبحراً أيضاً وكانوا إذا نجيناهم إلى البرّ لايجحدون نعمتنا، بل يزدادون حمداً وتوكلاً علينا.

وأتى جل شأنه بالواو العاطفة للمرّة الثالثة وقال: ﴿**ورزقناهم من الطيّبات**﴾ أي أننا زدناهم أيضاً من جرّاء شكرهم وعدم جحودهم رزقاً من مال حلال.

ثم أتى جلّ شأنه بالواو العاطفة للمرّة الرابعة وأضاف قائلاً: ﴿**وفضّلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلاً**﴾. أي وكرّمناهم وميّزناهم على ذريّة إبليس وعلى غيرهم ممّن خلقنا تفضيلاً.

أي تمييزاً واضح المعالم لالبُس فيه. وكأنّه جل شأنه بهذه الألفاظ الأخيرة يقول بألفاظٍ أخرى فأين قوم نوح الذين كذّبوه وأغرقناهم؟ وأين قوم فرعون الذين كذّبوا موسى وأغرقناهم؟. وأين وأين. على حين ظلّت سيرة جماعات المؤمنين الشّاكرين من بني آدم الذين كرّمناهم، تفوحُ بالعطر وتتداولها ألسنة الأجيال بالفخر والثناء والدعاء. وأولا تكفي هذه الأمثلة جميعها للتدّليل لكم على صدق قولنا ﴿**كفى بربّك وكيلا**﴾؟

ولم يكتفى الله جل شأنه بتذكير هؤلاء بأمثلة جماعات المؤمنين وبمعاملة ربّهم إيّاهم عبر تاريخ البشر مذ بعث آدم عليه السلام. بل وراح يوضّح لهؤلاء اليهود والمسيحيين حقيقة ماستُسفر عنه مؤامراتهم وكيدهم ضد الإسلام وأهله من بعد زوالهم بالواقعة المقدّرة للقضاء عليهم. كذلك ماستسفر عنه أعمال المؤمنين وتوكلهم على ربّهم بعد موتهم أيضاً. مصداق ماسبق أن لمّح إليه في الآية (١٣) من هذه السورة حيث قال هناك: ﴿**وكلّ إنسانٍ ألزمناه طائره في عُنُقه، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً. اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً**﴾. فللإشارة لما ستسفر عنه أعمال الفريقين المذكورين من فريق المؤمنين وفريق الكافرين راح تعالى يقول مُخبراً عن أصحاب الميمنة:

الآيــة الحــاديــة والســـبعون

﴿يوم ندعو كُلَّ أناسٍ بإمامهم ، فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم ولايُظلمون فتيلاً﴾

فأتى جلّ شأنه بكلمة الجمع (أناس) ومفردها إنسيّ، وهو واحد البشر. كما أتى بكلمة (إمامهم) علماً بأنّ الإمام هو من يؤتَمُّ ويُقتدى به من رئيس وغيره كنهج الحياة وخيط المعمار. والباء في (بإمامهم) تفيد المعيّة. كذلك أتى جل شأنه بكلمة (فتيلاً) أي شيئاً. تقول ماأغنى عنك فتيلاً أي ماأغنى عنك شيئاً. (محيط المحيط)

فهو تعالى أتى بهذه الألفاظ وقال: **﴿يوم ندعو كُلّ أُناسٍ بإمامهم﴾**. أي أننا إذ كرّمنا بني آدم في الحياة الدنيا وحملناهم في البرّ والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضّلناهم على كثير ممّن خَلَقنا تفضيلاً. فنحن سنستمرّ في عطاءاتنا هؤلاء المؤمنين بعد موتهم أيضاً. يوم ندعو كلّ فريق من البشر، نبعثهم بإمامهم، أي برفقه طائرهم الذي ألزمنا به أعناقهم.

والذي سيكون بمثابة إمامهم ويمثّل نهجهم الحياتي الذي انتهجوه خلال سلوكهم اليومي في هذه الحياة الدنيا.

ثم أتى جل شأنه بفاء الاستئناف ليستأنف كلامه عمّا ستسفر عنه أعطياته يوم البعث الأكبر، فقال: **﴿فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم ولايُظلمون فتيلاً﴾**. أي أنّ من كان من أصحاب الميمنة وكان من المتوكّلين على الله عزوجلّ، فأولئك تنكشف يوم البعث لأعينهم الثمار الرّوحية التي تأتّت عن أعمالهم الصالحات. تلك الآثار الروحيّة التي كانت مطوية وخافية عن أعينهم في حياتهم الدّنيا كالكتاب المطوي. فأصحاب الميمنة هؤلاء (يقرؤون) وهذه كناية عن أنهم يحصدون ثمار أعمالهم تلك ولايُظلمون منها شيئاً.

وبعد أن لخّص تعالى ماتعلق بأصحاب الميمنة. تناول موضوع أهل المشأمة بما يتعلق بيوم يدعو كلّ أُناسٍ بإمامهم، أي بنهج أعمالهم الدنيوية، فطرح أوّلاً مُنطلقاً وقال:

الآيــة الثـانيــة و الســبعون

﴿ ومن كان في هذه أعمى، فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً ﴾

فأتى جل شأنه بالواو العاطفة، ليعطف هذا المنطلق على مايحدث يوم القيامة. كما فسّر كلمة (يوم) التي استهلّ بها الآية السّابقة بدلالته على يوم القيامة أي على يوم البعث الأكبر. ثم أتى بكلمة (أعمى) وقد أراد بها عمى البصيرة الذي يصيب أصحاب المشأمة. هذا العمى الذي يحرم صاحبه من جني خواصّ ما يأمر به الدّين الإسلامي من أوامر وعبادات. وقال موضّحاً مُنطلق التعامل مع الدّين سلباً أو إيجاباً: ﴿**ومن كان في هذه أعمى**﴾ أي أن الإنسان الذي يكفر بهذا الدّين ويصبح أعمى البصيرة. فأتى بفاء الاستئناف وقال: ﴿**فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً**﴾. أي أنّ هذا الأعمى سيكون يوم البعث الأكبر أعمى البصيرة أيضاً بل وأسوأ حالاً ممّا كان عليه في دنياه.

وانتقل جلّ شأنه، وعلى أساسٍ من هذا المنطلق، يُصوّر ماكان عليه حال أصحاب المشامة من أوّل يوم بعث الله تعالى فيه محمداً لتبليغ رسالة الإسلام، إلى هذا الزّمن المعاصر الذي نحن فيه، يصوّر مارتكبوه من مختلف الجرائم من كيدٍ إلى مكرٍ وتآمرٍ ضد محمدٍ ودينه، وقال:

الآيــة الثـالثــة و الســـبعون
﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره، وإذاً لاتخذوك خليلاً ﴾

فأتى جلّ شأنه بالواو العاطفة ليعطف مايوضحه على المنطلق المتعلّق بالأعمال. وبحرف إنْ للتأكيد. وبفعل (كادوا) بمعنى أرادوا، وهو من أفعال المقاربة. وبكلمة (ليفتنونك) من فتنه عن دينه: أماله عنه واللاّم للتّعليل. كما أتى بفعل (لتفتري) من فرى على فُلانٍ الكذب: اختلقه. كما أتى بحرف (إذاً) مرسوماً بالألف ومدخلاً عليه الواو، على أنّه حرف غير عامل. وأتى أخيراً بكلمة (خليلاً) أي صديقاً حميماً مختصّاً (محيط المحيط).

أي أنّ الله تعالى جاء يصوّر لقارئ كتابه العزيز المواقف التي وقفها أصحاب المشأمة من يهود ومسيحيين ومشركين ضدّ الإسلام منذ اللحظة الأولى التي أعلن محمد رسول الله فيها على الملأ تلقيّه لرسالة ربّه عزوجل، وقال: ﴿**وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره**﴾ أي أنّ أصحاب المشأمة هؤلاء، إضافة إلى مكرهم وتآمرهم ضدّ الإسلام حتى الآن، فقد أرادوا من أوّل يوم أعلَن فيه رسولنا رسالته، أرادوا إمالته عن استعداده لحمل رسالة الإسلام، وبشتّى أساليب الإغراء، وهم يدفعونه ليختلق ويفتري علينا كلاماً غير مانوحيه

إليه. وهذه حقيقة أتت على ذكرها الآية (١٦) من سورة يونس حيث قال تعالى هناك: ﴿**وإذا تُتلى عليهم آياتنا بيّنات، قال الذين لايرجون لقاءنا إئت بقرآنٍ غير هذا، أو بدّله، قل مايكون لي أن أبدّله من تلقاء نفسي، إن أتّبع إلاّ مايوحي إليّ، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يومٍ عظيم**﴾.

ثم أتى جلّ شأنه بالواو وأدخلها على الحرف (إذاً) وأضاف يقول: ﴿**وإذاً لاتّخذوك خليلاً**﴾. أي لكنت يومذاك قد رأيتهم قد سارعوا واتّخذوك صديقاً حميماً.

ومن ثم راح تعالى ينبّه إلى أنه جل شأنه كان على علمٍ تامٍ، بما كان يكيده أصحاب المشأمة في تلك الأيام الأولى للدعوة، مُنبّهاً في الوقت نفسه إلى أنه جل شأنه هو الذي فشلّ كيد هؤلاء الأشرار وجميع محاولاتهم الشّريرة التي قاموا بها ضدّ هذا الرسول الكريم وهذا الدّين الحنيف، وقال:

الآية الرابعة و السبعون
﴿ ولولا أن ثبّتناك لقد كِدت تركنُ إليهم شيئاً قليلاً ﴾

أي أنّه الله تعالى شرع في هذه الآية يكشف عن المعادلة الطرديّة التي يرتكز إليها نهجه جلّ شأنه الذي ينتهجه مع كل إنسان طالب للحقيقة، وباحثٍ عن حقائق الوجود، في الفترة التي تسبق هدايته إيّاه إلى سواء السبيل.

فالمعلوم أنّ الله عزوجل قال بحقّ رسوله (ص) وبما يتعلّق بفترة ماقبل تلقيّه رسالة ربّه في الآية (٥٢) من سورة الشورى: ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحياً من أمرنا، ماكُنت تدري ماالكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به مَن نشاء من عبادنا، وإنّك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم**﴾. فالله عزوجلّ يفسّر من خلال قوله تعالى ﴿**ولولا أن ثبّتناك..**﴾ قوله الوارد في الآية المذكورة من سورة الشورى: ﴿.. **ماكنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان..**﴾ وسلوك ربّه معه في تلك الفترة من حياته (ص). وليس بعد تلقيّه وحي القرآن الكريم. وهذه نُقطةٌ وجهّني الله عزوجلّ إليها، وقد غابت عن أذهان المفسّرين القدماء.

ثم إنّ الله عزوجل راح، ووفقاً للمعادلة الطّردية لنهجه المذكور، راح يكشف لنا، وبأسلوبٍ بلاغي معجز وغير مباشر عمّا كانت تنطوي عليه سريرة محمد بن عبد الله (ص)

من حسنٍ، وعمّا كان يتمتّع به فؤاده من مهارةٍ وطيب نفس قبل أن يُنزل عليه وحيه القرآني. وهي الحقيقة التي أجملتها سورة الضّحى من خلال قوله تعالى فيها: ﴿**ألم يجدك يتيماً فآوى. ووجدك ضالاً فهدى. ووجدك عائلاً فأغنى.**﴾ أي وجدك يتيم عصرك، ومندفعاً لمعرفه حقائق الوجود إلى أقصى جهدك، وأنت أمّي لم تتلّق معارفك من أيّة جهة كانت في تلك الحقبة من عمرك الذي سبق تلقيّك رسالة ربّك عزوجلّ.

وعليه فلنلاحظ معالم ماذكرته من خلال هذا التقديم والتأخير الذي عمد إليه ربّنا عزوجلّ في هذه الآية الكريمة. فقد كان التّقدير أن يقول تعالى: ﴿**لقد كِدت تركَنُ إليهم شيئاً قليلاً، لولا أن ثبّتناك**﴾. لكنه تعالى قدّم جُملة ﴿**لولا أن ثبتناك**﴾ على: ﴿**لقد كِدت تركن إليهم**﴾. ودفعاً للخطأ في فهم ذلك. أتى جلّ شأنه بلام الإبتداء، فأدخلها على (قد) لتصبح (لقد)، وفي محلّ يشذّ فيه اقتران جواب (لولا) بحرف (قد).

وأفلم نُلاحظ أنّه تعالى أدخل لام الابتداء أيضاً على (قد) هذه حين قال: ﴿**ولقد كرّمنا بني آدم..**﴾ إشعاراً من جانبه تعالى إلى أنّه ابتدأ يبحث موضوعاً جديداً؟

ثم إنّه جل شأنه وقد قدّم قوله تعالى: ﴿**ولولا أن ثبّتناك**﴾ ضمّن كلمة (ثبّتناك) صورة تدخّل ربوبية الله بحقّ رسوله الكريم قبل أن يؤت هذا القرآن الكريم. فكلمة (ثبّتناك) مشتّقة من ثبَّتَ الشيء: جعله ثابتاً وعرّفَهُ حقّ المعرفة (محيط المحيط).

أمّا كيفية حدوث هذا التثبيت الرّباني، فتفسّرة الآية (٢٨) من سورة ابراهيم قوله تعالى: ﴿**يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثّابت في الحياة الدّنيا وفي الآخرة، ويُضلّ الله الظّالمين، ويفعل الله مايشاء**﴾. فاسم الجلالة (الله) كُرّر هنا ثلاث مرّات ليس عبثاً، بل إشعاراً للقارئ أنه لايجري شيء في هذا الوجود إلا ولله عزوجلّ دخلٌ فيه.

ثم إنّ الله عزوجلّ خاطب رسوله الكريم في الآية (٣٣) من سورة الفرقان وقال: ﴿**وقال الذين كفروا لولا أُنزل عليه القرآن جملةً واحدةً، كذلك، لنثبّت به فؤادك، ورتّلناه ترتيلاً**﴾. أي أنّ عملية إنزال آي الذكر الحكيم مُنجّمة ومُفرّقة، كان المقصد منها تثبيت فؤاد محمد رسول الله (ص)، وكذلك كانت عملية إنزال هذه الآي على صورةٍ تُرتّل معه ترتيلاً.

وكأنّ الله عزوجل ومن خلال قوله تعالى ﴿**ولولا أن ثبتّناك**﴾، يدفع كُلّ مؤمنٍ بالله وبتصرّف ربوبيته مع مخلوقاته، يدفعه ليستعرض ماضيه من هذا المُنطلق ليتحسّس تلك اليد

الإلهية التي كانت تمتد دوماً لتعصمه من الإندفاع وراء مختلف تيارات العواصف الشريرة التي كانت تعصف من حوله، أي أن يتحسّس فضل الله تعالى عليه أن هداه إلى الإيمان.

والله عزوجل وقد قال ﴿**لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً**﴾ أعطانا فكرةً واضحةً عن أنّ نقائص شخصية رسوله الكريم قبل أن يؤت رسالة ربّه، ماكانت تساوي شيئاً قليلاً. أي أنّه كان مُبّرأً من العصبيّة الجاهلية، وكان صادقاً أميناً، وكان عقله ومحاكمته للأمور في مُنتهى الكمال والإتّزان.

فالكلمات (كدت) بمعنى أردت. و (تركَنُ إليهم) بمعنى تميل إليهم، و (شيئاً) مايصحّ أن يُعلم ويُخبر عنه. و (قليلاً) ضدّ الكثير ويستعمل للتعبير به عن قلّة العدد. فإن بُولغ في هذا القليل يستتبعه العدم (محيط المحيط).

وكأنّ الله عزوجلّ يقول بألفاظٍ أخرى إننّا تدّخلنا لتثبيت محمد بن عبد الله على سواء السّبيل قبل تسنّمه رسالتنا السماوية، بسبب كمال شخصيته التي كانت نقائصها قليلة جداً وأقرب إلى الشيء المعدوم الذي لايستحق أن يُخبر عنه. فقد كان محمد بن عبد الله (ص) أحقّ الناس بتسنُّم هذه الرسالة العالمية العظيمة.

فلمّا انتهى جل شأنه من توضيح منهجه المتعلّق بمعاملته لمخلوقاته، وبعد أن فرغ من إظهار عظمة شخصية رسوله الكريم الذي أنزل على قلبه هذا القرآن المجيد، عمد جلّ شأنه إلى إعجازٍ بيانّي آخر، وقال:

الآية الخامسة و السبعون
﴿ إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات، ثم لاتجدُ لك علينا نصيراً ﴾

أي يامحمّد أيّها الرّسول الكريم، لو لم تكن سريرتك بهذا الحسن، ولو لم يكن فؤادك بهذه الطّهارة، فلو أنّ شخصيتك قد شابهت قبل أن تؤت رسالتنا شخصيّات هؤلاء الأعداء الفاسقين، لكُنّا حرمناك من هذا الشّرف الذي شرّفناك به، ولكُنّا أذقناك من جانبنا من معاملة على قدر ماتحمله شخصيتك من أمور إيجابيّةٍ وأمورٍ سلبية.

ولنتدبّر الآن الصياغة البلاغية لهذه الآية لندرك دلالتها على ماذكرته آنفاً، واستخلصته منها من معنى.

فالله عزوجلّ استهلّ هذه الآية بحرف (إذاً) المتضمّن معنى الظّرفيه لدخوله على الجمله الفعليّه (لأذقناك). وهو جلّ شأنه، جلّى بهذه الخطوة معنى الشّرط.

ويتساءل المرء هنا: وأيّة حاجة استدعت الإيتاء بهذا الشّرط الذي جرّ بقيّة المضمون الذي اشتملت عليه هذه الآية الكريمة؟

أقول: إن الله عزوجلّ يدفع بذلك ماحاكه أعداء محمد (ص) عن شخصيته من أنّه كان ساحراً ومفترياً ومجنوناً مختلّ العقل، وما إلى ذلك من تقوّلات. وندرك هذه الحقيقة من خلال انتخابه جل شأنه للفظ (أذقناك) هذا اللفظ المشتقّ من ذاقه أي اختبر طعمه بتناول يسيرٍ منه (محيط المحيط). ففي اصطفائه تعالى هذا اللّفظ مُنتهى التلّطف بحقّ محمد رسول الله (ص)، ولولا ذلك لكان قد قال لأنزلنا بك عذابنا. علماً بأنّه جلّ شأنه أدخل على (أذقناك) لام العاقبة وقال (لأذقناك). أي لوصّح مانسبوه لشخصيتك من مساوئ، لتساوت عاقبتك مع عاقبة هؤلاء الأشرار الفاسقين.

وهو جل شأنه إذ قال ﴿**ضعف الحياة وضعف الممات**﴾. فقد استعمل كلمة ضعفٍ هنا بمعنى مِثْل الشيء من المقدار. حيث تقول: لك ضعفه أي لك مثْله أو مثيله أو أمثاله لأنّه زيادة غير محصورة. فالله عزوجلّ قال في سورة الأحزاب: ﴿**يُضاعف لها العذاب ضعفين**﴾ أي مثلين. وقال صاحب الكليّات: أقلّ الضّعف محصور وهو المثل الواحد، وأكثَرُ غيرُ محصور جمعه أضعاف. (محيط المحيط)

وعليه فإنّ الله عزوجلّ وضّح هنا بأسلوبٍ بلاغيٍ مُعجزٍ أنّه لايكيل بمكيالين. بل يأتي بالعقاب على قدر مافي المرء من مساوئ، ويراعي أيضاً مافي المرء من حسنات.

وبعد ذلك أتى جل شأنه بحرف (ثمّ) الدّال على الترتيب وقال: ﴿**ثمّ لاتجدُ لك علينا نصيراً**﴾. مؤكّداً جل شأنه بذلك أنّه هو خالق هذا الكون وهو ربّ العالمين وهو مُسبّب الأسباب وهو الهادي إلى سواء السّبيل. فلو يمسك الله تعالى عن محمد (ص) وحيه، لايعود يجديه من دون الله تعالى أيّ شيء من أشياء هذا العالم لينصره على الذي أرسله رسولاً إلى العالمين. وكأنه جل شأنه قد قال هنا بألفاظ أخرى: إنّ ماامتاز به محمد (ص) على النّاس أجمعين، هو أنّه اختصّه ربّه بوحيه المقدّس، الذي لولاه لكانت ضاعت جميع مااشتملت عليه شخصيته من صفاء سريرة وطهارة فؤاد.

وهكذا ينبغي للمؤمنين الذين يسعون سعي الآخرة ويرجون ثناء ربّهم أن يستفيدوا من مضمون هذه الآية الكريمة درساً بليغاً في موضوع توحيدهم ربّهم عزوجلّ،والاهتمام بموضوع التوكّل عليه توكّلاً آخذاً بلاعتبار جميع ماذكرناه. فلمّا فرغ الله عزوجلّ من عملية الكشف عن حقيقة شخصية رسوله الكريم، وعظمة مااشتملت عليه من صفات،وبأسلوب بلاغي مُعجز بل هو في قمّة الإعجاز. عاد جل شأنه للحديث عن خفايا نوايا أعداء محمد ودينه أوائل أيّام تلقّيه رسالة ربّه عزوجلّ، وقال:

الآيــة الســادســة و الســبعون

﴿ وإن كادوا ليستفزّونك من الأرض ليُخرجونك منها، وإذاً لايلبثون خلافك إلاّ قليلاً﴾

فأتى جلّ شأنه بالواو العاطفة، وبحرف (إنْ) للتوكيد، وقال: **﴿وإنْ كادوا ليستفزّونك من الأرض ليخرجوك منها﴾**. و (يستفزونك) من استفزّ فلاناً: أزعجه وأخرجه من داره. واللام للتّعليل.

وأوّل سؤال يتبادر لذهن القارئ هو: لماذا قال تعالى **﴿ليستفزّونك من الأرض﴾**، ولم يقل من دارك أو مدينتك؟ ونعثر على الحكمة من ذلك من خلال تعريفه جل شأنه لكلمة الارض. فالألف واللاّم هنا يفيدان الاستغراق ولتشمل صيغة (من الأرض) الاستفزاز ومحاولة الإخراج ليس من الدّار فقط، بل ومن المدينة والوطن، وليشمل الاستفزاز بالحرمان من المواطنيّة أيضاً. والتاريخ يخبرنا أنّ أعداء محمد (ص) ضمروا في أنفسهم القيام بجميع هذه الاحتمالات. لكنّ الله تعالى فشّل مخطّطاتهم، فلم يمكّنهم ولا بواحدة منها. والمعلوم من التاريخ أيضاً أنّ أعداء محمد ماإن دبّروا مكيدة قتل محمد وتضييع دمه بين القبائل، إلاّ وأطلع الله تعالى نبيّه الكريم على مكيدتهم وأمره بالهجرة من مكة الى المدينة المنوّرة. من هذا ندرك أن الله عزوجلّ إذ قال: **﴿وإن كادوا ليستفزّونك من الأرض ليخرجوك منها﴾**، فقد شاء أن يوضّح بأنّ اليهود والمسيحيين والمشركين تآمروا فيما بينهم في أوائل سنّي الدعوة لإزعاج محمد رسول الله (ص) وطرده من شبه جزيرة العرب وحرمانه من حقوق مواطنيّه، غير مبالين بعظمة شخصيّته وصفاء سريرته وطيب فؤاده، وهو الذي كان اشتهر بينهم على أنه الصّادق الأمين.

وهنا أتى جلّ شأنه بالواو العاطفة وأضاف قائلاً: ﴿**وإذاً لايلبثون خِلافك إلاّ قليلاً**﴾. فقوله (وإذا) أي لو تحقق هذا الشرط أو الأمر وأفلحوا في مخططّاتهم، وليس بمعنى خلاف أي الضدّ. ومعنى ﴿**إلا قليلاً**﴾ أي إلاّ مدّة قصيرةً جدّاً.

ويكون مراده جل شأنه من قوله: ﴿**وإذاً لايلبثون خلافك إلاّ قليلاً**﴾. أنّه لو تركهم الله تعالى ينفذّون مخططّاتهم الشريرة بحقّ رسوله الكريم، لأهلكهم عقب فعلتهم الشرّيرة تلك. لكنّه جلّ شأنه لم يمكّنهم من ذلك بسبب أنّه كان لله عزوجلّ حكمة بالغة من ذلك كلّه، سيكشف عنها فيما سيأتي به بعد هذه الآية الكريمة من آيات. فمن هذا المـُنطلق أضاف تعالى يقول:

الآيـة الـسـابعـة و السـبعون
﴿ سُنّةَ مَنْ قد أرسلنا قبلك من رُسُلنا ، ولاتجد لسُنّتنا تحويلاً ﴾

فأتى جلّ شأنه بكلمة (سُنة) بمعنى السّيرة وقال: ﴿**سُنـّةَ من قد أرسلنا قبلك من رسُلنا**﴾. أي لاتستغرب ماقلناه يامحمد بحقّ إمكانية إهلاك هؤلاء، ولا مايقومون به ضدّك فلست أنت ببدعٍ من رُسُلنا ممّن قد أرسلنا قبلك. فالرّسل إخوانٌ سيرةً ومنهجاً، وإن تباعد بهم الزّمان عن بعضهم بعضاً. كذلك تُوزن تصرُّفات أعدائهم بميزان واحد، حيث كنّا نُهلكهُم بعد أن كانوا يستفزّون رسلنا الكرام. وماكانت عاقبة قوم النبي صالح وغيره إلاّ من هذا القبيل.

ثم أتى جل شأنه بالواو العاطفة وأضاف يقول: ﴿**ولاتجد لسنتّنا تحويلاً**﴾. أي أنك إن أنعمت نظرك يامحمد وطالعت طريقتنا التي عالمنا بها أعداء رُسُلِنا الكرام، فلن تظفر بأيّ دليل يثبت منه تحوُّلنا عن طريقتنا هذه في مواجهة الأشرار من ذريّه إبليس.

وإلى هنا يكون الله جلّ شأنه قد كشف الغطاء عن عمى بصيرة اليهود والمسيحيين والمشركين بأسلوب غير مباشر وجذّاب. بما كشفهُ عن تآمرهم وكيدهم ضدّ الإسلام ورسوله من أوّل يومٍ وحتى تاريخنا المعاصر. فلو كانوا مـُبصرين لـَما كان يـُعقل أن يـُقدموا على مأقدموا عليه حتى الآن. لذلك ينطبق عليهم مـُنطلق قوله تعالى: ﴿**من كان في هذه أعمى فهو**

في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً﴾. كذلك كشف الله تعالى في الوقت نفسه عن صفاء سريرة رسوله الكريم وطهارة فؤاده. هذا الذي أمضى سنواتٍ عديدة يتحنّث خلاها في غار حِراء، في زمن كان أبو جهل ومن وراءه من يهود ومسيحيين يتنعمّون ويُشبِعون ميوهم وشهواتهم ولايشعروُن بشعور أحدٍ من رعيتّهم. كذلك وضح جل شأنه نهج تعامل ربوبيته مع عباده. على اعتبار أنه مُطّلعٌ على سرائرهم ولايجري شيء خلافاً لمشيئته وهو مسبب الأسباب. وبعد أن تسلسل تعالى في عرض هذه الأمور جميعها بأسلوب بلاغيّ معجز يعجز أبلغ الأدباء التعبير عنها بأقلّ من عشرات الصّفحات. لاحظناه تعالى راح يتوجّه بخطابه إلى رسوله الكريم ويأمره ويقول:

الآيــة الـثـامنـــة و الســبعون

﴿ أقم الصـّلاة لدُلُوك الشـمس إلـى غسـق اللـّيل وقـرآن الفجـر ، إنّ قـرآن الفجـر كـان مشهوداً ﴾

وهو جلّ شأنه يكون بذلك الأمر قد أكّد على رسوله الكريم أن يستمر على نهجه، وهو التوجّه إلى إقامة الصّلاة المفروضة عليه في أوقاتها وبشروطها، وجماعةً أيضاً لتستمرّ عمليّة تثبيته في مواجهة هؤلاء الأعداء الأشرار. وعلى شاكلة ماكان ينقطع فيه قبل أن يؤت رسالة ربّه إلى التحنّث في غار حيراء.

وهذا التأكيد على إقام الصلاة في هذا المقام لم يرد دون حكمةٍ بالغة، بل إنّ ماكانت السّنوات التالية تخبّئه لمحمد وأصحابه من أحداث جسام، هو الذي استدعى هذا التأكيد على إقام الصلاة والاستمرار في القيام بالتضرّع بين يدي الله عزوجلّ.

كذلك لتبدو رابطة عجيبةٌ مابين هذه الآية وماسبقها من آياتٍ ركّزت على إظهار عظمة شخصية محمد سيّد المرسلين صلوت الله عليه.

فإن نحن تناولنا أمره تعالى: ﴿**أقم الصّلاة**﴾ فتدبرناه. نلاحظ أن فعل الأمر (أقم) اشتقّ من قام بالأمر داوم عليه. فمعنى ﴿**أقم الصّلاة**﴾ أي داوم يامحمد على أداء الصّلاة المفروضة عليك وعلى المؤمنين من أصحابك بدليل تعريف كلمة صلاة. كذلك وفي مالصلاتك عليك من شروط وحقوق (مفردات الراغب) ونادي أصحابك لتصلّي بهم جماعة (أقرب الموارد).

ولمّا كان جلّ شأنه قد قال في سورة النساء: ﴿**إنّ الصّلاة كـانت على المؤمنـين كتابـاً موقوتاً**﴾. دون بيان أوقاتها. فقد عمد الله جل شأنه هنا لتبيان هذه الأوقات محدّداً إياها بخمس صلوات. وقال، أولاً وبأسـلوبٍ بلاغـي أخـّاذ: ﴿**لدلـوك الشـمس**﴾. والدّلـوك علـى حسـب ماوضحه أصحاب المعاجم له ثلاث دلالات، وتشير إلى ثلاثة أوقات. المعنى الأول دلالة الدّلوك على زوال الشمس عن كَبِدِ السّماء ظهراً وانحرافها نحو جهة المغيب. وهذا المعنى يعيّن للمؤمـن وقت صلاة الظهر، والمعنى الثاني دلالة الدّلوك أيضاً على اصفرار أشعة الشـمس وقـت العصر. وهذا المعنى يعيـّن للمؤمـن وقـت صـلاة العصـر. والمعنـى الثـالث دلالـة الدّلـوك علـى غـروب الشّمس. وهذا المعنى يعيـّن للمؤمن وقت صلاة المغرب. علماً بأن اللاّم في ﴿**لدلـوك**﴾ هـي لام السّبب والأجل.

وبعد أن حدّد الله عزوجلّ الأوقات الثلاثة المذكورة للصلاة، وبأسلوبٍ بلاغيّ فريدٍ من نوعه. أتى بحرف (إلى) الذي يُستعمل لانتهاء الغاية وقال: ﴿**إلى غَسَق اللّيل**﴾. والغسق معنـاه تراكم ظُلمة اللّيل واشتدادها. تقول: غَسَقَت العين، إذا امتـلأت دمعـاً. (محيط المحيـط). أي أنّ الله عزوجلّ، ومن خلال قوله ﴿**إلى غسق الليل**﴾ فقد دلّ بحرف (إلى) على انتهاء الغاية، وهـو تعيين وقت صلاة العشاء وقت تراكُم ظلمة الليل واشتدادها.

وهنا أتى جلّ شأنه، وبعد أن عيـّن للمؤمـن أوقـات صلـوات الظهـر والعصـر والمغـرب والعشاء. أقول: أتى بالواو العاطفة ليضيف موضوع تعيين وقت صلاة الصبح، وقال: ﴿**وقـرآن الفجر**﴾ أي أنّ وقت صلاة الصبح التي يرافقها ترتيل آيـات القـرآن الكريـم بعـد أداء الصـّلاة، يتحدّد وقت أداء صلاة الصّبح عند (الفجر)، وكلمة الفجر مُعرّفة بـالألف والـلاّم تعـني وقـت ظهور حـُمرة ضوء الشمس مختلطة مع سواد الليل. وهذا يحدث في آخر الليـل كالشـفّق يحـدث في أوّله.

وهكذا يكون الله عزوجلّ وبهذا الأسلوب البلاغي المعجز قد عيّن أوقات الصّـلاة الـتي كانت على المؤمنين «كتاباً موقوتاً». فلمـّا انتهى مـن ذلـك أتـى جـلّ شـأنه بحـرف إنّ ليؤكـّد مايضيفه من قوله وهو: ﴿**إنّ قرآن الفجر كان مشهوداً**﴾.

أي أن ترتيل القرآن الكريم الذي يقوم به المؤمن من بعد أدائـه لصـلاة الصـّبح، ﴿**كـان مشهوداً**﴾. ومشهوداً صيغة اسم مفعول من شـهد. تقـول: شـهد المجلس شـهوداً، أي حضـره واطلّع عليه. وتقول شهد الله أي علم به وتقبّله. (أقرب الموارد).

فمعنى ﴿كان مشهوداً﴾ أي أنّ الله تعالى يطلّع على تلاوة عبده الذي يقرأ القرآن بعد صلاة الفجر ويتقبّل تلاوته أيضاً. تنبيهاً إلى أهميّة تلاوة القرآن في الوقت المذكور. وهكذا يتضّح من قوله تعالى: ﴿إنّ قرآن الفجر كان مشهوداً﴾. يتضح معالم درسٍ بالغ الأهمية وموجّهٍ خصيّصاً إلى المؤمنين الذين يتثاقلون عن أداة صلاة الصبح بعد سماع الأذان، كما يخسرون البركات الروحية التي بشرتهم بها هذه الألفاظ القرآنية في هذا المقام.

و لم يكتف جل شأنه بهذا الأمر الذي وجهه إلى شخص رسوله الكريم مباشرة، بل راح تعالى يختّص محمّداً رسول الله (ص) بما لم يختص به أحداً من رسل الله من قبله لذلك أتى عزوجلّ بالواو العاطفة وأضاف يقول:

الآيــة التــاســـعة و الســـبعون

﴿ ومن اللّيل فتهجّد به نافلةً لك، عسى أن يبعثك ربُّك مقاماً محموداً ﴾

قال تعالى: ﴿ومن اللّيل﴾ فحرف (من) يفيد هنا التبعيض. أي ومن بعض ساعات الليل. ﴿فتهجدّ به﴾ الفاء للاستئناف وتهجّد من هجد الرجل أي نام الإنسان وسهر فهي كلمة ضد. والمعنى أن خذ يامحمد نصيبك من النوم أولاً ثم استيقظ واسهر. فإن تساءلت عن الحكمة من أمرنا هذا، فاعلم أننا نأمُرُك بصلاةٍ إضافية تكون ﴿نافلة لك﴾ أي أعطيةً وهبةً لك. تقول نَفَلَ الرجل فلاناً: أي أعطاه نافلةً من المعروف دون طلب ثوابه منه، كما تقول: تنفّل الرّجل أي صلّى النّوافل. والنّفل لغةً هو الهبة والغنيمة والزيادة، على اعتبار أنّ صلاة النافلة زائدة على الصلوات المفروضة. (أقرب الموارد)

ثم إنّ الله عزوجل حين قال ﴿نافلةً لك﴾ فقد أتى بما يُسمّى بلام الاستحقاق ضمن الجار والمجرور (لك) لوقوع هذه اللاّم بين معنى هو كلمة نافلة، وذات وهو كاف الخطاب. ومن ثم يكون معنى قوله تعالى ﴿فتهجّد به نافلةً لك﴾ أي نَمْ من بعد صلاة العشاء، ومن ثم اسهر بعد أن تقوم من نومك ليلاً، وقم بتأدية صلاةٍ زائدةٍ عن صلواتك الخمس المفروضة. وأنا ربّك إذ آمرك. بصلاة التهجّد هذه، أكون قد اختصصتك بأعطيتي الروحية هبةً مني إليك من دون سائر رسلي الذين أرسلتهم من قبلك. وهذه الأعطية لاستحقاق سمّو شخصيتك من بينهم جميعاً بشكل بارزٍ وملحوظ.

فلـما انتهى الله جلّ شأنه من ذلك، أتى بفعل (عسى) الذين يفيد التّرجي في المحبوب والإشفاق في المكروه (محيط المحيط) وقال: ﴿**عسى أن يبعثك ربـُّك مقاماً محموداً**﴾. فكلمة المقام تعني المنزلة. و (محموداً) اسم مفعول من محمّد وهو الإنسان الذي كثرت خصاله المحمودة.

ألا إنّ هذه الفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة وهي: ﴿**عسى أن يبعثك ربـُّك مقاماً محموداً**﴾. تتطلّب ممن يتدبّرها، أن يقف عندها طويلاً ويطرح على نفسه الأسئلة التالية:

السؤال الأوّل: ماعلاقة هذه الأُعطية الروحية أي النّافلة بما مرّ قبلها من فضح لتآمر اليهود والمسيحيين والمشركين عليه؟

السؤال الثاني: ما الرابطة التي تربط نافلة التهجّد بنيل المقام المحمود؟

السؤال الثالث: ماهي حقيقة المقام المحمود؟

السؤال الرابع: وماعلاقة ذلك كلّه بسباق التسلسل الموضوعي وسياقه؟

والذي أراه هو أنّ جواب السؤال الأوّل يكمن في مفهوم كلمة (عسى) المُستهل بها قوله تعالى: ﴿**عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً**﴾، فقد استعمل الله عزوجل كلمة عسى هنا بمعنى الاشفاق في المكروه. وقد شاء ربّنا عزوجل أن يُبرز مدى شفقته على رسوله الكريم الذي كان يُعاني من مكائد اليهود والمسيحيين والمشركين من قومه واستهانتهم بمكانته بينهم والحطّ من منزلته وتوجيه أقذع الإهانات إلى شخصه النبيل. فمن مُنطلق روح الشفقه هذه، فقد لاحظنا كيف أنّه جلّ شأنه فرض على محمد رسول الله فريضة نافلةِ التهجّد آمراً إياه بالتضرّع بين يدي ربّه فيها بأدعيةٍ مخصوصةٍ، إذا استُجيبت يبعثه ربّه مقاماً محموداً، أي يرسله لينال منزلةً محمودةً بين هؤلاء جميعهم، منزلةً مابُعثها أحد من رسُل الله من قبله عليه الصّلاة والسّلام. ذلك أن صاحب (محيط المحيط) نبّه إلى أنّ بعثه معناه أرسله، وليس منحه. والبَعْث والبَعَثُ هو الجيش، تقول كنتُ في بَعْثِ فلانٍ أي في جيشه الذي بُعث معه. فمعنى ﴿**عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً**﴾ أي شفقة من ربّك عليك، وهو الذي يعلم مُصابك في قومك وحولك هؤلاء الأشرار، فسيرسلك ربّك بعد هجرتك إلى المدينة لفتح مكّة لتنال منزلةً محمودةً وأنت في جيشٍ من المؤمنين.

وبألفاظ أخرى فقد اقتضت شفقة الله أن يأمر رسوله الكريم ليداوم على نافلة التهجّد كأعطيةٍ روحية من جانبه عزوجلّ. وهذا على شاكلة مايفعله الملوك في مجالسهم إذا ماحضر

محتاج إلى عطائهم يمتدحهم فالملوك يمنّون عليه بالعطاء. فالله تعالى فتح لمحمد رسول الله (ص) من خلال فريضة نافلة التهجّد هذه باب طلب نجاته ممّا كان يسُعانيه هو وأصحابه المؤمنون، فهذه هي علاقة هذه الأُعطية الرّوحية بما مرّ قبلها من فضحٍ لتآمر اليهود والمسيحيين والمشركين عُمي البصيرة هؤلاء المنحرفون عن دين جدّهم ابراهيم عليه السلام.

أما مايتعلّق بجواب السؤال الثاني، فالذّي أراه هو ضرورة التمهيد للإجابة عليه، وذلك بالتذكير بما أنهى الله تعالى به سورة الفرقان حيث قال: ﴿**وقل مايعبأ بكم ربّي لولا دعاؤكم فقد كذّبتم فسوف يكون لزاماً**﴾. فهذا الخطاب وجّهه الله تعالى إلى من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً. ومراده تعالى من قوله ﴿**مايعبأ بكم**﴾ أي لايبالي بكم ربّي لولا دُعاؤكم. وهذا الخطاب، وإن كان مخصوصاً بمن تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً، إلاّ أنه يتضمّن حقيقة أنّ الدّعاء بين يدي ربّنا هو مُخّ العبادة على حد قول محمد رسول الله (ص)، وعليه تأسست جميع تعاليم الدين. ويفسّره قول ربّنا عزوجلّ في مقام آخر: ﴿**والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبلَنا**﴾.

أي أنّ الله عزوجل جعل الدّعاء مطيّة الهداية ولإحياء النّفوس الميتة ضمن النظام الروحي الذي يقابل نظام عالمنا الماديّ.

فللدعاء مفعوله على شاكلة ما للماء من مفعولٍ حياتّي. ولذلك جُعلت الصلاة الإسلامية عماد الدين الإسلامي. ومن منطلق أنّ الصّلاة تعني لغةً الدّعاء. فمن تركها ترك الدّين. فالصّلاة الإسلامية مطيّة المسلم إلى قرب ربّه عزوجلّ.

وعلى هذا الأساس امتاز الإسلام بفريضة الصلوات الخمس التي فرضها على كل مسلم يدين بهذا الدّين الحنيف القويم. وبهذه الفريضة يمتاز المسلمون روحيّاً على من سبقهم من أتباع الدّيانات السابقين. أولئك الذين لم يكونوا مؤهّلين أصلاً للاستفادة من مثل هذه الأعطية الروحية، لاعقلياً ولاعلمياً ولاحضارياً.

فالمعلوم أنّ محمداً (ص) كان يؤدي فريضة الصّلوات الخمس المذكورة كبقية المؤمنين من صحابته الكرام. وقد زاد الله تعالى في هذه الآية هنا على رسوله الكريم فريضة نافلة التهجّد أي مُنحة وأعطية صلاة التهجّد، ليداوم عليها، لتبلغ أدعيته التي يدعو ربه فيها ربّه ليبعثه المقام المحمود عَنان السّماء. ولتكون وسيلته ومطيّته التي تمثّل شفقة ربّه عليه. وتلك الأعطية جاءت هنا ردّاً على مايلقاه محمد رسول الله (ص) من عَنَاءٍ من جانب هؤلاء الأشرار.

ومانافلة التهجّد في حقيقة أمرها إلاّ حركات وأدعية وتراتيل وتوسّلات فرضها الله تعالى على رسوله الكريم لتستمطر نزول رحمته سبحانه وتعالى على سيد المرسلين (ص). فنافلة التهجّد كانت تمثل أبخرة تلك الآهات المنبعثة من صدر محمد الصادق الأمين. وأبخرة تلك الآهات في النظام الرّوحي شبيهة بأبخرة الماء المتصاعدة من الجداول والبحار وتجمعات المياه في النظام المادي، فمن الأبخرة المائية ينشئ الله تعالى السّحاب الثّقال. ومن أبخره آهات الصّدور يُنشئ الله تعالى تقادير خاصة بالمؤمنين المداومين على هذه التأوّهات. وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿**مايعبأ بكم ربّي لولا دعاؤكم**﴾. فهذه هي علاقة نافلة اللّيل بموضوع نيل المقام المحمود.

أما مايتعلّق بالسؤال الثالث وهو: ماحقيقة المقام المحمود؟ أقول: مادامت كلمة المقام تعني المنزلة. فقد كان المقصود بالمقام المحمود أن يَمُنّ الله عزوجلّ، وكنتيجة لمداومته على مالقّنه إيّاه من أدعية يدعو بها في نافلة الليل، أن يَمُنّ عليه بمنزلةٍ دنيويةٍ ومنزلةٍ أخرويةٍ محمودتين. ذلك أنّه لاقيمة لواحدة من هاتين بدون وجود الأخرى منهما. فلابدّ أن يصبح وجيهاً في الدنيا والآخرة.

فإن نحن تذكّرنا أنّ الإنسان لاتصبح منزلته محمودة إلاّ إذا اتّصف بأسمى الشمائل من جهة، وحمده الحامدون من جرّاء إنعامٍ تلقّوه منه من جهة أخرى. فهذه الحقيقة تعود بذاكرتنا إلى ماتنبّأ به الله عزوجلّ في الآية (٥٢) من هذه السورة وقال: ﴿**يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنّون إن لبثم إلاّ قليلاً**﴾. هذه الآية الكريمة التي أنبأ فيها جل شأنه عن فتح مكّة وعن موقف العفو والتسامح الذي سيقفه محمد رسوله الكريم (ص) من أهل بلدته مكّة. ذلك الموقف الذي وقفه (ص) بعد فتحه لمكة وقال: ﴿**اذهبوا فأنتم الطّلقاء، لاتثريب عليكم اليوم**﴾. فقد كان موقفه ذاك عديم المثال وهو الذي مسح من أفئدة المكيّين نظرتهم الشريرة التي كانوا ينظرون بها إلى شخصيّة محمد (ص)، ودفعهم إلى تقبُّل دينه الإسلام الحنيف بصورة جماعية.

ففي تلك الآية الكريمة التي أوردناها، كان قد أنبأ تعالى عن فتح مكة المكرّمة من بعد الهجرة منها إلى المدينة المنوّرة. هذا من جهه، ومن جهة أخرى، راح جل شأنه في هذه الآية الكريمة التي نحن بصددها يأمر رسوله الكريم بأداء فريضة نافلة التهجّد كأعطية روحية، لتستمطر مااحتوت عليه هذه النافلة من أدعية رحمةَ ربّه إليه وتأييده وعونه ولتحقيق ماأنبأ الله

تعالى به من قبل، فيحدث هذا التحوّل العجيب في مواقف هؤلاء الأعداء، وليحمدوا محمداً على مامنحهم إياه من إنعامِ عفوهِ عنهم وبصورة جماعية، وينال محمد (ص) بالتالي المقام المحمود دنيوياً.

أمّا حقيقة المقام المحمود الذي سيناله محمد سيد المرسلين (ص) في الحياة الآخرة. فتلك الحقيقة أشارت إليها الآيات (٢٥٢ ـ ٢٥٥) من سورة البقرة، حيث وضّح جل شأنه هناك مااختُصَّ به كلّ رسولٍ مبعوث قبل محمد (ص) من فضائل. ومن ثم توجه الله تعالى بخطابه في الآيتين الأخيرتين من تلك الآيات يخاطب المؤمنين بقوله تعالى: ﴿**ياأيها الذين آمنوا أنفقوا ممّا رزقناكم من قبل أن يأتي يومٌ لابيعٌ فيه ولاخِلّةٌ ولاشفاعةٌ، والكافرون هم الظالمون. الله لاإله إلاّ هو الحيّ القيّوم، لاتأخذه سِنَةٌ ولانوم، له مافي السموات ومافي الأرض، من ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه، يعلم مابين أيديهم وماخلفهم، ولايُحيطون بشيءٍ من علمه إلا بماشاء، وسع كرسيّه السموات والأرض، ولايؤوده حفظهما، وهو العليّ العظيم. الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظّلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطّاغوت يُخرجونهم من النّور إلى الظّلمات، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾.

فالله عزوجلّ نبّه أذهاننا في هذه الآيات الكريمة، وبصورة هي في مُنتهى اللّطافة إلى حقيقة توقّف طلب السعي ماديّاً في الحياة الآخرة (لابيع فيه). وإلى حقيقة انفصام عُرى الصداقات الدنيوية هناك مهما كانت حميمة (ولاخِلّة). وإلى حقيقة انعدام الوساطات والشفاعات الدنيوية أيضاً (ولاشفاعة). علماً بأنّ معنى شفع له إلى فلان شفاعة: طلب أن يُعاونه (محيط المحيط)

أي لايعود يتجرّأ أي نبي ورسول يوم القيامة أن يتوسّط لأحدٍ من البشر عند الله عزوجلّ، تابعاً كان أو غير تابع. لكنّه جل شأنه قد استثنى من ذلك، وبأسلوبٍ بلاغي مُذهل محمداً سيّد المُرسلين، وبطريق الإشارة، وقال: ﴿**من ذا الذين يشفع عنده إلاّ بإذنه**﴾. وهذه الإشارة تضمّنها حرف الاستثناء (إلاّ) في هذا المقام. فلم يُصرّح جل شأنه بإسم محمد (ص) هنا بسبب أنّه لم يحن أوان ذلك. وقد جاء جل شأنه يُعلن ذلك في سورة الإسراء هنا حيث قال مخاطباً هذا الرسول العظيم: ﴿**عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً**﴾. فكلمة (عسى) للإشفاق في المكروه. وقد علمنا من كتب السيرة والتاريخ كيف أنّه ماأوذي نبيّ قبل محمد خاتم النبيّين (ص). على قدر ماأوذى نفسه (ص) وهو الذي لم تضارعه شخصيتّه نبيّ أو

رسول بُعث من قبله فيما اشتملت عليه من شمائل وصفاتٍ نبيلة حتى لُقّب في قومه بالصّادق الأمين. فمحمدٌ (ص) لاتضارعه شخصيّة أي نبي بعثه الله تعالى قبله من حيث صفاء سريرته وطهارة فؤاده، واندفاعه بكلّ جوانحه للإحاطة بحقائق الوجود.

ثم إنّ من المتفّق عليه أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً. حيث تأتي عناصر الموضوع القرآني الواحد مُتفرّقةً هنا وهنا وتبعاً لموقعها من التّسلسل الموضوعي لسور القرآن الكريم. وهذا الأسلوب في طرح المواضيع قد تميّز به هذا الكتاب السّماوي من دون جميع كتب السماء والأرض. فنحن إذ كُنّا لاحظنا الإشارة إلى إمكانية شفاعة أحدٍ بين يدي الله عزوجلّ في الآيات من سورة البقرة، لاحظنا هنا هذا التّصريح بصاحب الشّفاعه الفائز بالمقام المحمود.

ولاينبغي لمؤمن أن يغفل عن أنّ فريضة نافلة التهجّد، مخصوصة بذات محمد صلوات الله عليه. لتقييدها بالجار والمجرور (لك) وقوله تعالى ﴿**نافلةً لك**﴾ أي أنّ هذه الفريضة التي اختصصناك بها من دون المؤمنين، إنّما هي أُعطيةٌ روحية من جانب ربّك تستحقّها شخصيّتك النبيلة. لكنّ هذا لايمنع أن يتأسّى المؤمن برسول الله، فيتهجّد بنافلة اللّيل، ويُكثر فيها من الدّعاء لنفسه وللمؤمنين، إنّما على سبيل الظلّية والتأسّي، وليس على سبيل الفرض المُلزم إياه بأدائه. وليغترف بالتالي من بركات هذه الأعطية الروحية التي تحمل الخير العميم. فهذه هي حقيقة المقام المحمود.

أما مايتعلّق بالسؤال الرابع والأخير، وهو ماعلاقة ذلك كُلّه بسباق التسلسل الموضوعي وسياقه؟ فسيتوّضح ذلك للقارئ بعد أن آتي على شرح الآيات التي تأتي بعد هذه الآية الكريمة. وستتبيّن هذه العلاقة على صورة لانعود بعدها إلى توضيحها وبيان معالمها.

فها أنّ الله عزوجلّ، وبعد أن بشّر بنيل المقام المحمود دنيوياً وأخروياً، كنتيجة لأداء محمد (ص) نافلة التهجّد بالمواظبة عليها. فقد راح جلّ شأنه يُعلّم رسوله الكريم الأدعية الواجب عليه التركيز على الدعاء بها في نافلة الليل هذه، ليستجيب له أدعيته ويجعله يفوز بالمقام المحمود دنيوياً بصورة مبدئية.

فها أنّه علّمه أن يدعو وبصورة خاصة:

الآيــة الثمـــانــون

﴿ وقل ربّ أدخلني مُدخل صدقٍ، وأخرجني مُخرج صدقٍ، واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾

فأتى الله جلّ شأنه بالواو العاطفة ليعطف ماسيُعلّم رسوله الكريم من دعاء على ماأمره به من فريضة نافلة التهجّد. كما أتى بفعل الأمر (قل) بمعنى وادع، كما أتى بكلمتي ﴿**مُدخل صدق**﴾ هذان اللفظان اللّذان يعنيان إدخالاً مُتّسما بالصّدق أي ليحكموا على شخصي حُكماً مطابقاً للواقع (محيط المحيط) وقال: ﴿**وقل ربّ أدخلني مُدخل صدق**﴾.

وأوّل مايتبادر للذهن هنا سؤال وهو: لماذا حذف الله تعالى مفعول أدخلني في هذا الشطر من الدُّعاء فلم يأمره أن يدعو أدخلني مكّة مثلاً؟ وجوابي هو أنّه جل شأنه أقدم على حذف مفعول أدخلني لأسبابٍ منها أولاً أنه مادام قد بشّره سابقاً بفتح مكة المكرمة وأمره بالهجرة إلى المدينة، فرسول الله (ص) يتبادر إلى ذهنه مفعول (أدخلني) بصورةٍ تلقائية. فهو (ص) يدرك بالبداهة أنّ ربّه عزوجلّ يعلّمه أن يدعوه ليمكّنه من فتح مكّة في هذا الشّطر من الدّعاء. هذا من مُنطلق إدراك هذا الرّسول دور الدّعاء الذي يلعبه لتحقيق بشارات الله عزوجلّ تبعاً لوحي ربّه الذي أوحاه إليه وقال فيه: ﴿**مايعبأ بكم ربّي لولا دعاؤكم**﴾ فالدّعاء كعنصرٍ روحي في عالم الرّوح، يشبه إلى حدٍ ما الماء كعنصرٍ مادي في عالمنا المادي.

وكأنّ الله تعالى قد علّم رسوله الكريم من خلال ﴿**أدخلني مُدخل صدق**﴾ أن يارب إنّي مهاجرٌ إلى المدينة نزولاً عند أمرك إيّاي بالهجرة إليها. وأنت يارب وعدتني أن تعيدني إلى مكّة فاتحاً، ليتقبّل أهل مكّة دعوتي ويحمدونني بعد كلّ هذا الإيذاء الذي آذوني به. لذلك فأنا أدعوك ياربّ أن تُحقّق وعدك هذا في أقرب فرصة ممكنةٍ فتدخلني مكة (مُدخل صدق)، أي إدخالاً يوقظ هؤلاء من غفوتهم، فيعودون ينظرون إليّ نظرة حمدٍ وثناءٍ مطابقةً لما أحمله من شمائل وصفات. خصوصاً وأنّي لست حاقداً عليهم بحالٍ من الأحوال مهما كانوا قد واجهوني بالعداء. فهذا هو معنى ﴿**أدخلني مُدخل صدق**﴾ في هذا المقام.

وقد علّم الله عزّوجلّ رسوله الكريم أن يدعو أيضاً: ﴿**وأخرجني مُخرج صدق**﴾. وهذا الشّطر من الدّعاء انطوى على قرارٍ إلهي آخر، قراره أن تظلّ المدينة المنورة عاصمة هذه الخلافة الأرضية التي بُعث بها محمد بن عبد الله (ص).

وكأنّ الله تعالى قد علّم رسوله الكريم من خلال ﴿**وأخرجني مُخرج صدق**﴾، أن ياربّ إنّ قلبي تعلّق بالذّين يؤيدونني ويناصرونني من أهل المدينة، هؤلاء الذين قدّرت أن تجعلهم أركان في الجيش الذي سأفتح به مكة المكرمة. لذلك لاتدعني أميل لاتّخاذ مكّة عاصمة لدولة

الإسلام التي قدّرت إنشاءها، بل أخرجني من مكة ثانية إنّما مُخرجٍ صدق أيضاً. فلا ينقلب أهل مكة من بعد ذلك يؤذونني كالسّابق بل أن تتبتهّم على حمدي وفقاً لما أحمله من صفات.

فهذا هو معنى ﴿**وأخرجني مخرج صدقٍ**﴾ في هذا المقام وهو تفسيرٌ من واقع الأحداث التاريخية الماضية انطلقت فيه من دلالات ألفاظه لغوياً، ومن مُجريات الأحداث التي أعقبت تعليم الله تعالى رسوله الكريم هذا الدّعاء. أي أنني تقيّدت في تفسيري هذا بأصول تفسير آيات هذا الكتاب العزيز.

هذا وإنّ الذي يقلّب صفحات التاريخ يستنطقها تحقُّق ماذهبت إليه من معانٍ لهذه الآيات تخبره أن الأمور سارت وفق هذا الترتيب الموضوعي لهذه الآيات من سورة الإسراء. فالذي حدث بعد فتح محمد (ص) مكّة المكرّمة وعفوه عن أهلها وتسامحه معهم إلى آخر مَدىً ممكن، وقد كان قادراً على الانتقام منهم. وهو الموقف الذي لم يعرف التاريخ له نظيراً.

ففي تلك اللحظات استفاق الأنصار من غفوتهم، وراحوا يتهامسون فيما بينهم فيما سيتّخذه رسول الله (ص) من موقف بعد الفتح أيستقرّ في بلدته مكّه ويتخذّها عاصمة لدوته وهذا الأمر كان في نظرهم أقرب إلى الواقع عاطفياً. أم سيعود مع الأنصار إلى المدينة المنّورة فلا يستبدلها بمسقط رأسه، وهو الأمر الأقرب إلى مصلحة الدّين من الوجهة العقلانية. فالأنصار تهامسوا بهذا الظنّ وتلك الاحتمالات، وكانت أفئدتهم العامرة بحبّ محمد رسول الله (ص) تجيش اضطراباً. فهم الذين دفنوا أحقادهم التي كانت دائرة بين أوسٍ وخزرج. وهم الذين آووه بعد هجرته، وهم الذين قاسموا الذين هاجروا معه من صحابته أموالهم وحتى زوجاتهم. وهم الذين افتدوه بأرواحهم.

وبينما كان الأنصار يتهامسون فيما بينهم بهذا الظنّ فقد أنبأ الله عزوجلّ رسوله الكريم (ص) بما دار في خَلَدِ الأنصار وبما تهامسوا به. فانتبه رسول الله إلى هذه الحقيقة في الوقت المناسب. وحينئذٍ لاحظ جميع من حضر ذاك الموقف، لاحظوا رسول الله (ص) يتوجّه إلى جنده من كتيبة الأنصار، يخاطبهم ويقول وبصوت جهوريّ: يامعشر الأنصار ربّما ظننتُم أنّي رأفت بعشيرتي، ورغبت بالإقامة في مكّة؟ فأجابوه بصوت واحد وجهوريّ أيضاً: بلى يارسول الله، فهذا هو ماكُنّا نتهامس به فيما بيننا. فقال لهم رسول الله (ص) أتتناسون أنّي عبد الله ورسوله ـ وأنّ ربّي هو الذي علّمني دُعاء ﴿**وأخرجني مخرج صدق**﴾.

فلا والله لا أترككم وأذهب إلى سواكم. فأنتم الذّين ضحيّتم بأرواحكم يوم كان الإسلام في أضعف أيّامه. فالله ربّي هو الذي أمرني بالهجرة إليكم لتؤيّدوني وتنصروني. فلا والله لن يحدث ماتخشونه أبداً. فمعاذ الله ألاّ يقترن محياي ومماتي بمحياكم ومماتكم.

فلّما سمع الأنصار ماخاطبهم به رسول الله (ص)، فاضت أعينهم بدموع الفرح والسّرور، وأثلج كلامه (ص) صدورهم للذّي شاهدوه من برّه ووفائه ومحبّته لهم. وسارعوا يعترفون بين يديه أنّهم ظنّوا به ظنّ السّوء، وصاحوا: يارسول الله تا الله لقد ظننّا بك ظنّ السّوء، بدافع أن لاقِبَلَ لنا بفراقك ولافراق مدينتنا أيضاً. وهنا ردّ عليهم رسول الله يقول: ألا إنّ الله ورسوله يَعْذِرانكم فيما تهامستم به وظننتموه، ويُصدّقان ماختم به الآن عني الملأ من محبّةٍ وولاء.

فعلى هذه الصورة تحقق هذا الشّطر الثاني من الدُّعاء الذي هدى الله عزوجلّ رسوله الكريم ليدعو به في نافلة تهجده أن ﴿**وأخرجني مخرج صدق**﴾، وثبت بذلك صحّة ماذهبت إليه من تفسير لهذا الدعاء. أي أنّ الله تعالى علاّم الغيوب، الفعّال لما يريد، هذا الإله الذي توكّل عليه هذا الرسول الكريم. أثبت لرسوله أنّه تعالى هو حسبه، وهو الذي سبّب من الأسباب مايوصل محمّداً (ص) إلى المقام المحمود الذي وعده به. وها أنّ الله تعالى قد جعل لكل شيءٍ قدراً.

فردّ كيد اليهود والمسيحيين والمشركين إلى نحورهم، ودفعهم ليتناقضوا في موقفهم الجديد مع أنفسهم ويؤمنوا برسوله وماأوحاه به المنذرين بها إليه، فهل يعتبر يهود ومسيحيوا زماننا بما حدث البارحة كيلا يواجهوا كارثة «الواقعة» وهم على حالهم من كيد المكائد ضدّ الإسلام؟

ثم إنه جلّ شأنه أتى بالواو العاطفة للمرّة الثانية في هذا الدّعاء وعلّم رسوله الكريم أن يدعو أيضاً: ﴿**واجعل لي من لدُنك سلطاناً نصيراً**﴾. فما معنى هذا الشّطر الأخير من الدعاء؟

لقد ذهب ذهن المفسّرين الذين لم يحيطوا علماً بما بيّنته من معاني الدعاء حتى الآن من أمورٍ تجلّى من خلالها ترابطاً وإحكاماً موضوعياً مدهشاً بين هذه الآيات. ذهب ذهنهم إلى ماقاله صاحب الكليّات من أنّ كل سُلطان في القرآن فهو بمعنى الحجة والدّليل (محيط المحيط). فلم يفطنوا إلى أنّ قوله هذا المتمثل من هذا الشطر من الدعاء يمثّل اجتهاد محمّد الشخصي. فقد أورد أصحاب المعاجم لكلمة سلطان معاني عديدة وليس الحجّة والدليل وحسب. فمن معاني كلمة سلطان دلالته على التسلُّط وقُدرة المُلك. وهو المعنى الذي يناسب الأخذ به في هذا

المقام. وهذا مايقتضيه تسلسل الأحداث التاريخيّة. فالمدينة المنّورة وُجد فيها منافقون من أتباع عبد الله بن سلّول، هذا الذي كان مرشّحاً قبل هجرة رسول الله (ص) إلى المدينة ليُنصّب ملكاً عليها كما هو معلوم تاريخياً. وقد كان مُمكناً جدّاً أن يجهد هذا المنافق ويعمل على زلزلة الحكم الإسلامي في غياب جيش المسلمين الذي ذهب لفتح مكّة المكرمة. فعلى أساسٍ من هذا الفهم التاريخي، ينبغي علينا أن نفهم هذا الشّطر الأخير من هذا الدّعاء وهو ﴿**واجعل لي من لدُنك سُلطاناً نصيراً**﴾. أي أنّ الله عزوجلّ علّم رسوله أن يطلب من ربه إضافة لِما مرّ من فقرات الدّعاء، أن يطلب منه عزوجل أن يجعل له (ص) قدرة على التسلُّط على ملك المدينة المنورة، فلا يفلت من يديه زمامها بسبب مايدبّره المنافقون من بعده لذلك انطلق لسانه بهذا الشّطر من الدعاء.

فبهذا المعنى تستقيم الآية وتترابط أجزاؤها، وتتواصل مع سباقها وسياقها موضوعيّاً، والحقّ أنّ الله تعالى الذي علّم رسوله أن يطلب منه أن يمنحه القدرة على ذلك، لتزيد هذه القدرة في نصرته على أداء رسالته أي أن يجعل له سلطاناً نصيراً، نلاحظ أنّه تعالى قد استجاب لرسوله الكريم ماتضمّنه هذا الشّطر من الدعاء وصان الحكم الإسلامي من أيّ زلزالٍ كان.

ولاينبغي لنا أن نظنّ أنّ الله عزوجلّ قد علّم رسوله الكريم هذا الدّعاء، فقط. كلاّ، بل أمره أن يُعلن أيضاً دنو زمن تحقق مضمون هذا الدعاء. لذلك أتى جل شأنه بعد ذلك بالواو العاطفة آمراً إيّاه أن يعلن قائلاً:

الآيـة الحـاديـة والثمـانـون
﴿ وقل جاء الحقّ وزهق الباطل ، إنّ الباطل كان زهوقاً ﴾

فهو جل شأنه أتى بالواو العاطفة، وبفعل الأمر (قل) بمعنى بلّغ. وبفعل الماضي (جاء) بمعنى ظهر نحو ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم**﴾ أي ظهر بينكم (محيط المحيط). كما أتى جل شأنه بكلمة (الحق) بمعنى الأمر المقضي والصدق والعدل (محيط المحيط). وأضاف آمراً رسوله الكريم أن يعلن: ﴿**وقل جاء الحقّ**﴾ بمعنى أن يامحمد بلّغ هؤلاء الأشرار وأعلن لهم بجُرأتك الإيمانية المعهودة أنّه حين يستجيب الله تعالى لي هذا الدّعاء الذي علّمني إياه آنفاً أن أدعو به في نافلة التهجُّد، فإنّ استجابة الله تعالى لدعائي هذا ستسفر عن ظهور الحقّ الذي بعثني ربّي به وقضاه.

ثم أتى جل شأنه بالواو العاطفة، وبكلمتي (زهق الباطل) بمعنى اضّمحل وهلك وأضـاف جل شأنه آمراً رسوله الكريم أن يعلن أيضاً: ﴿**وزهق الباطل**﴾ أي وبلـّغ يـامحمد أيضـاً هـؤلاء الأشرار الذين يؤذونك وأعلن لهم بجرأتك الإيمانية المعهودة أنـّه حين يستجيب الله تعالى في هـذا الدعاء الذي علـّمني إياه آنفاً، فـإنّ استجابته تلـك ستؤدي إلى بـدء تـاريخ زوال واضمحـلال وهلاك عقائد هؤلاء الباطلة، العقائد الباطلة التي يواجهون بها الصّدق والحقّ الذي أنزله عليـك. علماً بأنّ الزهوق لغة يزيد على معنى الهلاك معنى الزّوال تدريجيـّاً (محيـط المحيـط) الأمـر الـذي يجلـّي دقـّه دلالات الألفاظ القرآنية.

وتأكيداً لهذه الدّلالة راح جل شأنه يلفت ذهن القارئ إلى مـايدلّ عليـه المنطق التـاريخي وهو أنـّه ماحدث يوماً أن قـُضي على الباطل دفعة واحـدة. فهـذا ماعبـّر عنـه جـلّ شـأنه مـن خلال قوله تعالى: ﴿**إنّ الباطل كان زهوقاً**﴾. فأصل الزهوق الخروج بصعوبـة (محيـط المحيـط). فهذه هي سنة هذا الكون الماديّ، أنّ الباطل يضمـّحل على مرّ الأيام ولكن بصعوبة وليس دفعـة واحدة.

فلـّما انتهى جلّ شأنه من إصدار أمره المذكور إلى رسـوله الكريـم ليـُعلن هـذا الإعـلان ويبلـّغ هذا التبليغ. لم يدع الله تعالى المؤمنين الذي تحمـّلوا مع رسوله الكريم مثل ماتحمـّل (ص) من إيذاءات دون أن يـُهدّئ من روعهم ودون أن يشملهم بخطابه. لذلك أتى جلّ شـأنه بـالواو العاطفة وأضاف يخاطبهم ويقول:

الآيـــة الثـــانيـــة والثمــــانــون

﴿ وننـزّل من القرآن ماهو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين، ولايزيد الظالمين إلاّ خساراً ﴾

فالواو عاطفة. وفعل التّنزيل من نزل وعلى عكس أنزل. ففـي حـين يعـني التّنزيل نـزول وحي الله تدريجيـّاً ومـُنجّماً. فإن الإنزال يعني نزول الوحي بكامله ودفعـة واحـدة، وهـو تعالى وقد قال (ونُنزّل)، فقد اقتضى معنى التّدريج أن يأتي بعده بحرف الجـرّ (مـن) وبمعنـى التبعيـض لذلك قال ﴿**وننزّل من القرآن**﴾ أي أننا ومن خلال ماتحمله هذه الآيات الكريمـة مـن نبـوءات التي شكلّت هذه الآيات المنزلة نُنزل ﴿**ماهو شفاءٌ**﴾، فحرف (ما) نكرة موصوفـة، وجملـة (هـو شفاء) في موضع نعتٍ لها ومـُبتدؤها محـذف وجوبـاً، وتقديـره شـيء عظيـم أو نحـوه. والشـفاء

بمعنى الدّواء ثم إنّ قوله (ورحمة للمؤمنين) الرحمة تفيد التعطّف والتلطُّف ومغفرة الذّنوب. (محيط المحيط)

وعليه فمعنى قوله تعالى: ﴿**وننزّل من القرآن ماهو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين**﴾. أي أننا نزّلنا هذه الآيات القليلة الآنفة الذكر، والتي هي بعضٌ من هذا القرآن العظيم. فماذا فعلنا ذلك؟ إننا فعلنا ذلك لتبشير رسولنا باستجابتنا لأدعيته وأنّه سيحظى بهذه المنزلة المحمودة بعد فتح مكّة المكرّمة، ولتشكّل هذه البشارات أيضاً شفاءً لصدور المؤمنين ودواءً ناجعاً يشفيهم ممّا لَحِقَ بهم من إيذاءات اليهود والمسيحيين والمشركين خلال هذه السّنوات الأولى من نزول هذا القرآن العظيم. بل ورحمةٌ أيضاً بهم أي ظاهرة تعطُّفنا عليهم وتلطُّفاً من جانبنا ومغفرةً لكلّ ماارتكبوه من أخطاءٍ غير مُعتمدّة. علماً بأن لفظي الشفاء والرحمة وردا هنا بصيغة المصدر.

ثم أتى جلّ شأنه عقب قوله هذا بالواو العاطفة وأضاف يقول: ﴿**ولايزيد الظّالمين إلاّ خساراً**﴾. أي أنّ طريقتنا هذه المتعلقة بتنزيل هذا القرآن العظيم، من حيث أسلوبها البلاغي وصياغتها المعجزة وماحملته من بشارات تؤديّ لنا غرضين: الأول أن نضمّد جراحات أفئدة رسولنا وصحابته ممّا عانوه من هؤلاء الكفار فتكون لهم بَلْسماً يستبشرون بها ويُرحَمُون. والغرض الثاني هو أن يزداد هؤلاء الأشرار الفاسقين المتجاوزين ضلالاً وخسراناً.

وبعد أن تتجلّى لقارئ ومتدبّر آي الذكر الحكيم هذه المعاني والدلالات، يتساءل بالبداهة عن المصير الذي ينتظر اليهود والمسيحيين بعد فتح مكة المكرمة وتقبّل جميع أهلها الإسلام ديناً. خصوصاً وأنّ سورة الإسراء يدور موضوعها أصلاً حول اليهود خاصّة.

فقد أخذ الله عزوجلّ هنا هذا التساؤل البديهيّ بعين اعتباره وأجاب عليه بأسلوب هو في غاية الإيجاز، والإعجاز. فلم يتوسّع في إجابته تلك بسبب أنّه جل شأنه قد خصّص سورة الكهف للتوسّع في هذا الأمر. من منطلق ارتباط مصير اليهود بمصير المسيحيين ارتباطاً عضوياً يوم تقع «الواقعة» التي ستزيلهم من الوجود جميعهم. لذا أَوْجَز تعالى إجابته وأضاف قائلاً:

الآيــة الثــالثــة والثمــانــون

﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه، وإذا مسّه الشرُّ كان يؤوساً ﴾

فأتى جلّ شأنه بالظرف إذا الذي يفيد المستقبل. كما أتى بفعل (أنعمنا) من نَعِمَ الرجل نعمةً: رَفِهَ وطاب عيشةً ولان واتّسع. وأنعم الله النعمة عليه وأنعمة بالنعمة أي أحسن وأوصلها إليه.

ونعمة الله ما أعطاه الله تعالى للعبد ممّا لايتمنّى غيره أن يُعطيه إيّاه (محيط المحيط). كما أتى تعالى بفعل (أعرض) أي أضرب وصدّ. وأعرض الشيءُ: ظهر وبرز. تقول عرضته فأعرض أي أظهرته فظهر وبرز. مثل قولك كبيتُه فأكبّ. وهما من النّوادر على حسب ماوضحه صاحب محيط المحيط.

كما أتى جلّ شأنه بفعل (نآى) أي بَعُد عنه. وبالجار والمجرور (بجانبه) الباء للالصاق فهي أفضت معنى فعل (نآى) إلى الاسم جانبه.

أقول أتى جلّ شأنه بهذا كله ويدور حول الإنسان. فمن هو هذا الإنسان؟ الجواب هو اليهود والمسيحيّون الذين سيبقون على دينهم بعد فتح مكة واسلام أهلها فهؤلاء حول التسلسل الموضوعي. بدليل تعريف كلمة إنسان بالألف واللام العهديتين هؤلاء الذين تساءل قارئ ومتدبّر الآيات السّالفة الذكّر عن مصيرهم بعد أن يتقبل أهل مكة الإسلام، وليشير جلّ شأنه من خلال هذه الكلمة إلى اعتزاز هؤلاء أنّهم أهل كتاب، وأنّهم وحدهم المتحضرون وذلك إثر دور نهضتهم الأخير الذي توسّع الله تعالى في شرحه في سورة الكهف.

وعليه يكون الله عزوجلّ قد أجاب على التساؤل المذكور بأسلوبٍ هو في غاية اللّطافة حين قال: ﴿**وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونآى بجانبه**﴾ من أن اليهود والمسيحيين لن يعتبروا بهذا التبّدل الجذري الذي سيحدث في حياة أهل مكّة، ولا بالمنزلة المحمودة التي سينالها محمد عندما دعاهم محمد (ص) بدعوة الإسلام فهم قد فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون.

يقول جل شأنه إذا نحن أمهلنا هؤلاء اليهود والمسيحيين، وأنعمنا عليهم في دورهم المقبل الذي سنفتح عليهم فيه أبواب الرّفاه وطيب العيش وسعة الرزق لنلقي عليهم حُجتّنا الأخيره وننظر ماذا يفعلون. فاعلم ياقارئ هذه الآيات من كتابنا العزيز أنّ الواحد من هؤلاء سينآى يومئذٍ بجانبه، ويعود لايفكر إلاّ بتفكيرٍ مادّيٍ محض متناسياً أننا نحن الذين أمهلناه وأنعمنا عليه. حال أننّا ننبئ عن مصير هؤلاء منذ الآن. وفي وقت لايخطر ببال أحد من اليهود والمسيّحيين أنّ حالهم سيؤول إلى ماذكرناه وأنبأنا عنه.

ثم أتى جلّ شأنه بالواو العاطفة وراح يعطي قارئ القرآن علامة بارزةً تؤكّد صدق ماينبئ به وقال: ﴿**وإذا مسّه الشّر كان يؤوساً**﴾. أي أنّ من علامة أحدهم أنّه إذا مسّه يومئذٍ مسٌ من الشرّ، اختباراً وامتحاناً من جانبنا إيّاه، لايلتجئ إلينا وقت الشدّة هذه، لبعده عن خالقه وبسبب أنّه عاد يفكّر بتفكيرٍ ماديّ محض. بل ﴿**كان يؤوساً**﴾ أي قنوطا من رحمتنا، وذلك على شاكلة مافعله جدّه إبليس، يوم بعثنا إليه آدم عليه السلام فأبلس وقنط ممّا أنزلنا عليه من وحي مُفعمٍ بالبركات.

فلـّما انتهى جلّ شأنه من إجابته الموجزة والبليغة هذه، توجّه إلى رسوله الكريم يخاطبه ويقول لهؤلاء اليهود والمسيحيين خاصّة:

الآيــة الرابعــة والثمــانــون
﴿ قل كُلٌ يعمل على شاكلته، فربكّم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً ﴾

فأتى جل شأنه بكلمة ﴿**شاكلته**﴾ بمعنى نيـّته وطريقته ومذهبه (محيط المحيط) وقال: ﴿**قل كُلٌ يعمل على شاكلته**﴾. أي أنّ نيـّة الإنسان وطريقته في الحياة ومذهبه الفكري، يشكّلون دوماً نهج الإنسان الحياتي اليومي. وعليه فلا تستغرب يامحمد ماسيؤول إليه حال هؤلاء اليهود والمسيحيين في دورهم القادم المشؤوم، ذلك أنّ ربّك الذي هو ربّهم أيضاً هو الذّي سنّ هذا القانون الحياتي، وهو مطّلع على سرائر كل إنسان منكم جميعاً. فهو أعلم بنواياكم وبطريقة كلٍ منكم التي يسلكها في حياته، وبمذهبه الفكري أيضاً فكلٌّ منكم يعمل على شاكلته هذه.

وهنا أتى جل شأنه بفاء الاستئناف ليستأنف أمراً جديداً انطلق واستند إلى هذا القانون الآنف الذكر وقال: ﴿**فربكّم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً**﴾. أي أنّ ربكّم غير محتاج ليزعم هؤلاء اليهود أمامه أنّهم شعب الله المختار، ولاهو بحاجة ليزعم المسيحيون عقب نهضتهم الأخيرة أنهم وحدهم المتمدّنون من بين الناس جميعهم. ﴿**فربكّم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً**﴾. على أساس أنّ كلاً من الفريقين يعمل على شاكلته، ووفق نواياه وطريقته في الحياة ومذهبه الفكري. هذا من جهه. ومن جهة أخرى فإنّ الأمور بعواقبها، لذلك كتبنا للمؤمنين بالإسلام الأتقياء منهم عاقبة حسنة، كما كتبنا عليكم أيها اليهود والمسيحيون أن نقضي عليكم

«بالواقعة» التي هي على الأبواب التي ستقضي عليكم نهائياً ليعلم كل امرئ ينجو منكم أنّ ربكّم هو أعلم بمن هو أهدى سبيلاً.

فكم هي بليغة وفي منتهى الإيجاز هذه الإجابة المؤثرة. فهل يعتبر بها هؤلاء اليهود خاصة الذين دأبوا على المكر ضدّ هذا الدّين الذي أتى به هذا الكتاب العظيم؟ فقد حسمت هذه الآيات الكريمة موضوع ماسيصير إليه اليهود والمسيحيون بعد اعتناق أهل مكّة هذا الدّين الحنيف.

والذي يتوجّب على مفسّر القرآن هنا أن ينقّب تراثنا الإسلاميّ، ليقدّم من خلاله الأدلة الكافية التي تثبت أنّ اليهود والمسيحيّن كانوا قبل فتح محمد (ص) لمكة المكرمة يؤزّون المكيّين أزّاً ويحرّضونهم ضدّ محمد (ص) وضدّ جماعته المؤمنين. ذلك لأنّ الآيات السّالفة الذكر لم تقدّم للقارئ مثل هذا الدّليل الواجب تقديمه في هذا المقام.

والحق أننا إذا طالعنا جميع التّفاسير كتفسير الرازي وابن كثير وتفسير البخاري والطبري وابن جرير والطبرسي نعثر في التفاسير المذكورة جميعها على روايات وروايات، وجميعها من هذا القبيل الذي نطالب بتقديمه. فمن هذه الرّوايات مانصت على أنّ اليهود كانوا يدفعون قريشاً ليسألوا محمداً رسول الله (ص) أسئلة القصد منها تعجيزه والحطّ من مكانته في قومه. ومنها أسئلة كان المشركون أنفسهم يقصدون اليهود والمسيحيين مطالبين إيّاهم منهم تزويدهم بمثلها. ليطرحوها على محمد بن عبد الله (ص) الصّادق الأمين.

وأنا من جانبي أنآي بنفسي عن الخوض في تفاصيل مانقلته إلينا هذه الروايات الكثيرة. لكنّ الذي لايسعني إنكاره والإعراض عنه هو ذاك الإجماع الذي أجمعت عليه كلّ هذه الرّوايات من أنّ معاداة محمد وايذاءه تشارك في أمر القيام به اليهود والمسيحيون والمشركون معاً وفي آنٍ واحد دونما أي جدال. ذلك أنه لايُعقل أن توجد مثل هذه الروايات الكثيرة، ولايكون لها من أساس من الواقع، إذ من المعروف والمسّلم به أنه لايوحد دخانٌ بلا نار.

أعود أتابع تفسير الآيات الكريمة وأقول: وهل يُعقل أن نُطالِبَ نحن البشر بالأدلة التي تثبت أن المسيحيين واليهود كانوا قبل فتح مكّة المكرمة يؤزّون المشركين من أهل مكة ضد محمد وأصحابه أزّاً وكانوا يحرّضونهم ضدّه وضدّ عصبته من المؤمنين، ويسكت كتاب الله العزيز الحكيم عن تقديم نماذج ممّا كان يفعله هؤلاء الأعداء الألداء؟

لذلك أرى أنه جلّ شأنه راح يقدّم لنا نمـاذج مـن تلـك الأدلـّة المطلوبـة، وشـرع يقـدّم أهمـّها وهو الأمر الذي أجمعت عليه جميع الروايات التي نقلها إلينـا أصحـاب التفاسـير القديمة، أقول راح جل شأنه يُلفت نظرنا إلى أهم تلك الأسئلة التي كان الأشرار المذكورون يطرحونهـا على محمد رسول الله (ص) لتعجيزه، وأضاف يقول:

الآيـة الخامسـة والثمـانـون
﴿ ويسألونك عن الرّوح، قل الرّوح من أمر ربّي، وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً ﴾

ففعل (يسألونك) أورده جل شأنه بمعنـى يستفسـرون منـك ويسـتخبرون لتعدّيـه بحـرف (عن). أي أنـّه جل شأنه حين استهل هذه الآية الكريمة بقوله **﴿ويسألونك عـن الـروح﴾** فقـد راح يؤيـّد جميع الروايات المرويّة في التفاسير عمـّا كان يفعله اليهـود خاصـة. وخاصـّة دفعهـم المشركين ليستفسروه عن الرّوح.

والسؤال هنا: ما الذي كان قد دفع اليهـود المشـركين ليسـألوا هـذا السـؤال؟ ثـم مـاهو المقصود من كلمة روحٍ في هذا المقام؟

أقول جواباً على الشق الأول من هذا السّؤال أنّ الباحث الذي يستعرض تواريخ الأمـم، وتاريخ بني اسرائيل خاصـّة يُلاحظ أن التّوراة التي يتداولها اليهود المعاصرون لاتنصّ علـى بعثـة أيّ نبيّ بعد سفر (ملاّخي). وهو النّبي الذي بعثه الله تعالى قبل بعثة عيسى الناصري بقليل.

فاليهود كذّبوا المسيح الناصري كما هو معلـوم. فلـو كـان تكذيبهـم إيـاه لـه وجـهٌ مـن الصـّحه. فما معنى أن ينقطع الوحي السماويّ عن بني اسرائيل من بعد بعثة المسيح النـاصري.؟ فلا يعود يبعث الله تعالى أيّ نبيّ آخر بعده من بينهم وتتوقـّف أسفار التـوراة بذلـك عنـد سـفر (مَلاخي)؟

ثم إنـّه من غير المعقول أنّ لاينتبـه كهنـة اليهـود أنفسـهم إلى هـذه الظـاهرة. وأنـّهم إن كانوا اعتقدوا أنـّهم على حقّ فيما فعلوه بحقّ المسيح النـاصريّ، سيحاولون التقـرُّب إلى ربـّهم بشتّى الطرق والأساليب ليثبتوا بذلك أنـّهم على صلةٍ بربـّهم عزوجلّ، ويميلـون في هـذه الحـال إلى القيام بمختلف أنواع الرياضيات الرّوحيـة لعلـّهم يفـوزون بمثـل هـذا اللـّقاء. علـى شـاكلة مايفعله متصوّفة زماننا من المسلمين ينكبـّون على فعل رياضياتٍ روحيـّةٍ متنوعـّة ظناً منهم أنـّها

موصلتهم إلى ربّهم، فلا يتحسّسون غضب الله النازل على هذه الأمة التي أعرضت عن التمسّك بحبل الله والاعتصام به جميعاً، والتي تفرّقت إلى شيعٍ وأحزاب ماأنزل الله تعالى بها من سلطان. أي أن الأمّة التي ينقطع عنها وحي الله تعالى وكلامه، تعود تظهر فيها ظاهرة هذا النّوع من التصوّف الجافّ المرتكز إلى رياضياتٍ روحيةٍ بعيداً عن التقيّد فقط بما أنزل الله في كتابه من أحكامٍ وعبادات. وضرورة الانتهاء عمّا ورد فيه من منهيات.

أي أنّ الذي يغفل عن مشيئة ربّه ويتمسّك بالقشور دون اللّباب يصير حاله إلى ماصار إليه بنو اسرائيل بعد أن غضب الله تعالى عليهم، فلم يعد يكلّم أحداً منهم، وفقدوا بذلك ماء الحياة الرّوحية، وآلوا إلى زوال.

وبألفاظٍ أخرى أقول: إن كلّ أمّة ينقطع وحي الله تعالى عنها، يكثر بين أفرادها بعدئذٍ مايسمُّونه بالعلوم الخفيّه من سحرٍ إلى تنجيمٍ إلى تحضير أرواحٍ إلى تصوُّف جاف. فهذه الأمور عادت تظهر بين اليهود بعد أن باؤوا بغضبٍ من الله عزوجلّ. فلمّا بعث الله تعالى محمداً بن عبد الله رسولاً ونبيّاً. كان اليهود القاطنون في شبه جزيرة العرب قد تفشّى بينهم السّحر والتنجيم وعملية تحضير الأرواح وهذا التصّوف الجاف. أي أنهم كانوا يستلهمون عطاءات الأرواح، مخالفين بذلك ماأوصاهم به موسى وهم في بريّة سيناء، وصيّته التي تضمّنها سفر التثنية الاصحاح ١١/١٨ والذي قال لهم فيها: (متى دخلت الأرض التي يُعطيك الرّب إلهك إيّاها، فلا تتعلّم أن تصنع مثل قبائح تلك الأمم. لايكن فيك من يُحرق ابنه أو ابنته بالنّار، ولامَنْ يتعاطى عِرافةً ولامتكهّن ولاساحر، ولامَنْ يشعوذ ولامن يستحضر الأشباح أو الأرواح ولامَن يستشير الموتى، لأنّ كُلّ من يصنع ذلك هو قبيحة عند الرّب. وبسبب تلك القبائح سيطرُدُ الرّب إلهُك تلك الأمم من أمامك). الكتاب المقدس المطبوع عام ١٩٨٩ في بيروت لبنان دار المشرق.

فبالرّغم من وجود هذه الموعظة الموسوية فقد انتشر بين يهود شبه جزيرة العرب السّحر والكهانة والتنجيم وعمليّة تحضير الأرواح والثيوصوفية (Theo Sophists) أي مايشبه اليوكا المنتشرة بين البوذيين المحرومين من مكالمة ربّهم عزوجل أيضاً. فالمؤرخ اليهودي المشهور جوسيفوس (Gosephus) أتى على ذكر طائفة الأستينيين (The essenes) التي أشتهر أفرادها بانهماكم في القيام بهذه الرياضيات الروحية آنفة الذّكر فاتقنوها وبأسلوب الابتعاد عن الملاذ الدنيوية.

والذي يؤكّد حالة الانحطاط هذه التي آل إليها حال اليهود بعد انقطاع وحي الله عنهم هو ما أوردته الأناجيل المعاصرة من إشارات وتلميحات إلى ذلك. فقد ورد في انجيل متى ٣٤/٩: (وفيما هما خارجان إذا إنسان أخرس مجنون قدّموه إليه - أي إلى يسوع المسيح - فلّما أخرج الشيطان تكلّم الأخرس. فتعجب الجموع قائلين: لم يظهر قطّ مثل هذا في اسرائيل. أما الفّريسيّون - وهم طائفة يهودية - فقالوا: برئيس الشّياطين يُخرج يسّوع الشياطين). كذلك ورد في انجيل مرقس ٣٢/٣: (وأمّا الكتبة الذين نزلوا من أورشليم فقالوا: إنّ معه - أي مع يسوع الناصري - بعلزبول. وإنّه برئيس الشياطين يخرج الشياطين. فدعاهم يسوع وقال لهم بأمثال: كيف يقدر شيطان أن يُخرج شيطاناً؟ وإن انقسمت مملكةٌ على ذاتها، لاتقدر تلك المملكة أن تثبت.. الحقّ أقول لكم.. من جدّف على الرّوح القدس فليس له مغفرة إلى الأبد.. لأنهم قالوا إنّ معه روحاً نجساً). كذلك ورد في انجيل لوقا ١٤/١١: (وكان - يسوع - يُخرج شيطاناً وكان ذلك أخرس. فلّما أخرج الشيطان تكلّم الأخرس، فتعجّب الجموع. وأمّا قوم منهم فقالوا: ببعلزبول رئيس الشياطين يخرج الشياطين..) أي أنّ كهنة اليهود كانوا يقيسون مايصدر عن المسيح الناصري على أنفسهم إذ كانوا غارقين في هذه الأمراض الروحية التي ذكرناها سابقاً.

وقد ورد في انجيل يوحنا أيضاً ١٩/٧ أنّ المسيح الناصري قال لليهود: (لماذا تطلبون أن تقتلوني؟ أجاب الجمع وقالوا: بك شيطان). وأمثال ذلك من الأقوال.

ثم إنّ الذي يراجع موسوعة دائرة المعارف البريطانية وما أوردته تحت لفظ (بعلزبول) يدرك أنّ هذا اسم أحد آلهة الكنعانيين المُسمّى الإله (بل) الذي كان هؤلاء اليهود معتقدين أنّه كان رئيساً للعالم السّفلي. هذا وإنّ اليهود زمن بعثة المسيح الناصري اعتقدوا بالسّحر الأسود، وبوجود الشياطين وبالسّحر الأبيض المتعلق باسم الله الأعظم. وكان اليهود يحاولون إبداء مثل تلك العجائب التي نسبوها إلى المسيح الناصري.

والذي يهمُّنا من ذلك كلّه هو أن ندرك أنّ اليهود الذين عاصروا بعثة محمد (ص) كانوا مبتلين بهذه الأمراض الرّوحية. وهذا الأمر جعلهم يدفعون المشركين ليستفسروا من محمد رسول الله (ص) عن مدى صلته بهذه الأمور الروحيّة، ظنّاً من جانبهم أنّ لمحمد (ص) اتّصال ببعلزبول أو بسواه من أرواح الشياطين، وأنّه مُتعلّمٌ خفايا السّحر الأسود وتحضير الأرواح.

فالله عزوجلّ راح يشير إلى الحقيقة الـتي ذكرناها آنفاً، وباختصارٍ شديد، وبأسلوبٍ بلاغيّ معجزٍ، وقال: ﴿**ويسألونك عن الرّوح**﴾. علماً بأنّ القرآن الكريم قد استعمل كلمة (روح) بمعاني عدّيدة: بمعنى القرآن قوله تعالى ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا**﴾ شورى (٥٢) وبمعنى الوحي: ﴿**ينزل الملائكة بالرّوح من أمره على من يشاء من عباده**﴾ النّحل ٢ ـ وبمعنى الملك جبريل: ﴿**نزل به الرّوح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين**﴾. شعراء ١٩٣ ـ وبمعنى النّفخ الرّوحاني: ﴿**فإذا سّويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين**﴾ ص٧٢. وبمعنى مابه حياة الأنفس أيضاً، وعلى مايقابل الأجساد (أقرب الموارد ومحيط المحيط).

أي أنّ الله تعالى أجاب عمّا دفع اليهود ليسألوا هذا السؤال. إستوفى بذلك الشقّ الأول من السؤال المطروح. لذلك نأتي إلى الشقّ الثاني من السؤال وهو: ما المقصود من كلمة الرّوح في هذا المقام؟

أقول: لقد ذهب ذهن المفسّرين وعلى حسب ماوضّحه الفخر الرازي في تفسيره الكبير إلى أنّ كلمة الرّوح في هذا الموضع وردت بمعنى القرآن لوقوع هذه الآية الكريمة مابين ﴿**ننزّل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين..**﴾ ومابين ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لايأتون بمثله..**﴾. فقد ورد في المجلّد ١١ ص٣٨ مايلي: (فلّما كان ماقبل القرآن، حتى تكون آيات القرآن كلُّها مُتناسبة متناسقه. وذلك لأنّ القوم استعظموا أمر القرآن فسألوا أنّه من جنس الشّعر أو من جنس الكهانة؟ فأجابهم الله تعالى بأنه ليس من جنس كلام البشر وإنّما هو كلامٌ ظهر بأمر الله ووحيه وتنزيله، فقال: ﴿**قل الرّوح من أمر ربّي**﴾ أي القرآن ظهر بأمر ربّي وليس من جنس كلام البشر).

والذي أراه أنّ حُجّة المفسّرين هذه لم تُعْطَ العناية الكافية. فلو كان المراد من كلمة الرّوح في هذا الموضع القرآن بأكمله، فلا يستقيم معنى الآية الكريمة وبالتالي يختلّ التّسلسل الموضوعي. خصوصاً وأنّ تعالى أنهى الآية بقوله: ﴿**وماأوتيتم من العلم إلاّ قليلا**﴾. فهل أوتي اليهود قليلاً من علم القرآن؟ حاشا ثم حاشا.

فالموضوع إذن موضوع علمٍ بعينه، وليس هذا الكلام متعلّق بالقرآن كوحدة قائمة بذاتها والسؤال بالتالي: أيّ علمٍ كان المقصود بكلمة الرّوح في هذه الآية الكريمة؟

الجواب يستنبط من كلمة (يسألونك) بمعنى يستخبرونك، من قبيل الاختبار. ولايختبر أحدٌ غيره إلاّ ممّا يحمله من علم. الذي أثبتّه فيما سبق من الكلام وكشفته عن حال اليهود زمن بعثة محمد (ص) أنـّهم كانوا مرضى بالتلـّهي بعلوم السحر الأسود والسحر الأبيض ومحاولة التعرّف إلى إسم الله الأعظم، وبالتنجيم والعرافة وعلم تحضير الأرواح. هذه الأمور التي تعود كلّ أمـّة متخلـّفة تتلـّهى بها بعد أن ينقطع عن رجالاتها وحي السّماء.

فاليهود كانوا غائصين في هذا المستنقع الموحل، وحاولوا دفع مشركي مكـّة ليستخبروا من محمد رسول الله (ص) عن مدى إلمامه بعلم حقيقة الرّوح الخفيـّة التي كانوا اعتقدوا امكانية الاستعانة بها والاستمداد منها أخبار الغيب وماشاكلها. والدّليل على صحـّة ماذهبت إليه يكمن في استعماله تعالى كلمتي «الروح والعلم» مُعرّفتين هنا بالألف واللاّم العهديتين. أي أن استخبارهم تعلـّق بما كان معهوداً من علم الروح في أذهان هؤلاء السّائلين اليهود.

فقوله تعالى: ﴿**ويسألونك عن الروح**﴾ أي يستخبرون منك عن حقيقة هذه الرّوح الخفيـّة التي يحاولون الاستعانة بها بطريقٍ من الطـّرق السّالفة الذكر: السّحر والعرافة والتنجيم وتحضير الأرواح.

وهو جلّ شأنه إذ أنهى الآية بقوله: ﴿**وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً**﴾، يكون قد اتفـّق مع هؤلاء السّائلين بشأن وجود هذه الطـّرق السّالفة الذكر إلى حدٍ ما. لكنـّه نبـّه في الوقت نفسه إلى تفاهة مايتوصـّل إليه المستعينون بهذه الطـّرق من علمٍ غيبيّ. فكلمة (قليلاً) تفيد الأقرب إلى المعدوم (محيط المحيط).

ألا إنّ اليهود، وقد كانوا أهل كتاب سماوي، كان يأخذهم العجب كلّ العجب ممّا كان يفاجيء به محمد رسول الله (ص) قومه من وحيٍ قرآني مليئٍ بأمور الغيب. وقد ذهب ذهن كهنتهم إلى أنّ محمداً (ص) هو على شاكلتهم، قد أتقن العلوم الخفيـّة المتعلـّقة بالرّوح. لذلك يمكنـّه ذلك من الإيتاء بهذا الكمّ الوافر من أنباء الغيب.

وقد دحض الله عزوجلّ مادار في خلد هؤلاء الأشرار، وذلك من خلال ﴿**قل الرّوح من أمر ربـّي**﴾. أي أنّ مايأتي به رسولنا الأمين من علوم غيبيـّة. خصوصاً هذه الأنباء الأخيرة المتعلقة بفتح مكـّة وإيمان أهلها وبالمنزلة المحمودة التي تنتظره، إنّ أنباء الغيب هذه لم يحصل عليها رسولنا الأمين بطريق علوم السّحر والكهانة والعرافة والتنجيم وتحضير الأرواح. بل إنّ هذه العلوم الغيبيـّة تشكـّل في حدّ ذاتها ظاهرة قرارات إلهيّةٍ مُتخذّة لصالح هذا الرسول الكريم. فهي

أوامر صادرة من قبل ربّه مُسبّب الأسباب، لإفشال ماتؤذونه به وماتُـحرضّون بـه عليـه. فهـذا هو معنى ﴿**قل الروح من أمر ربي**﴾.

ثم إنّ الله عزوجل وقد أنهى هذه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿**وما أوتيتُم من العلـم إلاّ قليلاً**﴾. فدلالته على أن قل يامحمد لهؤلاء المستخبرين عن الرّوح. أنّ علوم الرّوح الخفيـة الـتي تمارسونها، يستحيل أن تزوّدكم بشيء قليل من علم هذه المقـرّرات المتـّخذة في السّـماء لصـالح هذا الرسول الكريم.

ولم يكتف جلّ شأنه بردّه هذا على هؤلاء الأشرار المسـتخبرين مـن اليهـود. بـل أضـاف دليلاً آخر وقال:

الآيــة الســادســة والثمــانــون
﴿ ولئن شئنا لنذهبنّ بالذي أوحينا إليك، ثم لاتجد لك به علينا وكيلاً ﴾

أي أنّ أمر إلغاء هذه القرارات السماوية المتخذة لصالح محمد رسول الله (ص)، يعود لله الذي أصدر هذه القرارات، ومشيئته فقُل يامحمد لهؤلاء أنـّك ترضخ لحكومتنا السماويـّة وليـس لجهة غيرها. فلو شئنا لأزلنا ما اتخذناه من مقرّرات أوحينا بهـا إليـك. ثـم لاتجـد لـك بـه علينـا وكيلاً ممّا يزعم وجوده هؤلاء الأشرار.

وهنا أتى جلّ شأنه بإلاّ كحرف استثناء مُنقطع، ليقطع كلامه فيستدرك أنّ مـا اتـّخذه من قرارات بحقّ رسوله الكريم، يستحيل إلغاؤهـا، بسـبب أنـّها اتـُّخذت بحقٍ مـن هـو صـافي السريرة وطاهر الفؤاد، وطيب الشمائل وهو محمد بن عبد الله (ص). ولذلك راح تعالى يؤكـد استحقاق هذا الرسول بقاء تلك القرارات الصادرة بحقّه (ص)، وقال:

الآيــة الســابعــة والثمــانــون
﴿ إلاّ رحمةً من ربـّك، إنّ فضله كان عليك كبيراً ﴾

فحرف (إلاّ) استعمل هنا بدلالتـه علـى الاسـتثناء المنقطـع. وكلمـة (رحمـةً) بمعنـى رأفـة وتعطـُّفاً ومغفرة. والحرف (من) لابتداء الغاية. ويكون معنـى: ﴿**إلاّ رحمـةً مـن ربـّك**﴾ أي أنّ

ربّك اتّخذ هذه القرارات بحقّك يامحمد، من لدنه وليس من طرف آخر سواه، رحمة أي رأفة بك وتعطُّفاً على حالك، ومغفرةً لأخطائك لاستحقاق شخصك هذه الرحمة والإكرام.

وهنا أتى جل شأنه بحرف إنّ للتأكيد وقال: ﴿**إنّ فضله كان عليك كبيراً**﴾. ولفظ الفضل يفيد الابتداء بالإحسان بلا علّة له على حسب قول صاحب التعريفات. أمّا صاحب الكليّات فقال: يستعمل الفضل في الخير لمطلق النّفع (محيط المحيط). ويصبح معنى هذا الشّطر من الآية الكريمة أنّ الله عزوجل راح يمّن على رسوله الكريم مذكّراً إيّاه من أنّه تعالى لم يرحمه فقط عن طريق هذه القرارات التي اتّخذها لصالحه، بل كان محمد مشمولاً بفضل ربّه وإحسانه منذ نعومة أظفاره، بفضلٍ كبير لم يسبق أن تفضّل الله تعالى كمثله على أيّ نبي بعثه من قبله، لاستحقاق محمد (ص) لهذا الفضل الكبير من ربّه.

ولم يقف جلّ شأنه عند هذا الحدّ من الإجابة عن سؤال اليهود عن الروح الخفيّة التي يزعمون وجودها. ولا بالدّليل الذي قدمه لإثبات صحّة إجابته، بل لاحظناه جل شأنه أنّه راح يأمر رسوله الكريم أن يتحدّى هؤلاء اليهود، والذين وراءهم من المشركين وغيرهم، ويأمره:

الآيـــة الثـامنـــة والثمـــانـــون

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لايأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهراً ﴾

فأتى جل شأنه بفعل (اجتمعت) ضدّ تفرّقت. من جامع فلانا على أمر: اجتمع معه ووافقه. والاجتماع مصدر اجتمع. كما أتى بلفظ (الإنس) بمعنى البشر ومستعملاً إيّاه في هذا الموضع مقابل لفظ (الجن) هذا المشتقّ من جُنّ الشيء عنه: أي استتر. وكناية عن دلالة كلمة الرّوح التي استخبر عنها اليهود. كما أتى جلّ شأنه بكلمة (مثل) وهي كلمة تستعمل على ثلاثة أوجه: الأوّل بمعنى الشّبه. والثاني بمعنى نفس الشيء وذاته. والثالث تستعمل زائده. وقد استعملت كلمة (مثل) هنا بالمعنيّين الأولين وهي التحدي أن يأتي هؤلاء مجتمعين بما يتّصف به هذا القرآن، وبما يتضمّنه من علوم أي كذاته. فالتحدّي كائن في أمر الصيّاغة والمضمون معاً وفي آنٍ واحد. أما (الظّهير) فبمعنى المعين. أي أنّ الله عزوجل راح يأمر رسوله الكريم أن يتحدّى هؤلاء الذين يسألونه عن الرّوح التي يزعمون وجودها وليقول: ﴿**لئن اجتمعت الإنس**

والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لايأتون بمثله﴾. أي لاحاجة بكم أيّها اليهود أن تتهّموني بمؤاخاة الجنّ أصحاب هذه الروح الخفية التي تزعمون.

فهيّا تكاتفوا أنتم مع هؤلاء الجنّ لتأتوا بمثل هذا القرآن صياغةً ومضموناً أي بما يماثله. لكني أتحدّاكم وأقول لكم منذ اللحظة أنّ ربّي بشّرني بهزيمتكم وقال: ﴿**لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً**﴾.

ثم إنّ الله عزوجلّ لم يدفع رسوله الكريم ليتحدّى هؤلاء اليهود بهذا التحدّي وحسب، بل أتى بلام الإبتداء فأدخلها على حرف قد الذي يفيد التحقيق وأضاف يصف ماتضمنه كتابه العزيز وقال:

الآيـــة التـاســـعـة والثمــانــون
﴿ ولقد صرّفنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ مَثَل، فأبى أكثر النّاس إلاّ كفوراً ﴾

وأمست هذه الآية في أيدينا دليلاً قاطعاً على نفي وجود هذه الرّوح الخفيّة التي يُسميها الذّين يجهلون ماأتى به كتاب الله العزيز جنّاً. علماً بأنّ كلمة الجنّ استعملت في هذا القرآن، ليس بهذا المعنى وحسب، بل بمعاني عديدة لامكان لتعدادها في هذا المقام. وبإمكان القارئ مراجعتها في كتاب «الجنّ حقيقة أم خيال»؟

المهمّ أنّ الله عزوجل أتى بالواو العاطفة وبلام الابتداء مُدْخِلاً إيّاها على حرف قد الذي يفيد التحقيق واليقين، وقال: ﴿**ولقد صرّفنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ مَثَل**﴾، فأتى بفعل (صرّفنا) بصيغة المبالغة المشتق من صرفنا. تقول صرفت الكلام: إذا اشتققت بعضه من بعض.

كما أتى بكلمة (مَثَل) التي تفيد الشّبه والنّظير (محيط المحيط) وقدّم كلمة النّاس على قوله تعالى (في هذا القرآن) مُدخلاً على كلمة النّاس هذه لام التعليل، ومُعللا بذلك الغاية من إنزال كتابه العزيز أي هذا القرآن وليحصُرها في منفعة النّاس وحدهم من دون خلق الله جميعاً. فلم يشمل معهم (الجنّ) الذين زعم اليهود وجودهم كأرواح خافية عن الأنظار. وإن كان الله جلّ شأنه قد استعمل لفظ الجنّ في مقامات أخرى بدلالاتها اللفظيّة وليس بالمعنى المذكور. خصوصاً وأنّه عزوجلّ نبّه أذهاننا إلى هذه الحقيقة في آخر سورة من كتابه العزيز وهي سورة النّاس. فأتى فيها بحرف (من) التّفسيرية وقال: ﴿**الذي يُوسوس في صدور الناس.**

من الجنّة والناس﴾. أي لايذهب ظنّكم إلى وجود أرواح خفيّة يسمّونها «الجنّ». فالجنّ الذين أوردت ذكرهم في كتابي العزيز هذا هم فريقٌ من النّاس ليس إلاّ. فهذه الحقيقة لفت الله تعالى أنظارنا إليها من خلال تفسيره كلمة النّاس في سورة الناس بقوله: المؤلفين من الجنّة والنّاس. ولو لم يكن حرف (من) هنا تفسيري، لكان كافياً لله تعالى أن يقول: **﴿الذي يوسوس في صدور الجنّة والناس﴾**.

فالله عزوجلّ علّل الحكمة من إنزاله هذا القرآن، وحصرها في فائدة الناس وحدهم من دون بقيّة مخلوقاته، موضّحاً أنّه جلّ شأنه قد أتى بمضامين كتابه هذا ومحتوياته مُصرّفة.

أي أنه جل شأنه لم يدع بحثاً في السّياسة والطبيعة والأخلاق والتمدن والاقتصاد والاجتماع والأحكام والعبادات والتوحيد وعلم الكلام وغيرها من العلوم إلاّ وأتى بها مُفصّلةً في هذا القرآن. فهذا هو معنى: **﴿ولقد صرّفنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ مَثَل﴾**.

وهنا أتى جلّ شأنه بفاء الاستئناف وأنهى هذه الآية الكريمة وقال: **﴿فأبى أكثر الناس إلاّ كفوراً﴾**. أي أنّه وبالرغم من احتواء هذا القرآن على كلّ علمٍ من العلوم، فإنّ أكثرية الناس لاتطلب الحقيقة وترفض إلاّ أن تكون جاحدة بأنعم ربّها عزوجلّ وخاصة منهم هؤلاء اليهود الأشرار. فهذا هو معنى **﴿فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾**. ذلك أنّ لفظ (الكفور) دلالته على جحود نعمة الله عزوجلّ وسترها عن أعين المُبصرين.

فلمّا استوفى الله جل شأنه الإجابة عن «الرّوح»، راح يعرض لنا نماذج أخرى من طلبات اليهود التي كانوا يؤُزّون المشركين ليطالبوا رسول الله (ص) بتحقيقها لهم إن كان من الصّادقين في نبوّته، فأضاف يقول:

الآية التسعون
﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجُر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾

أي أنّ جملة طلبات اليهود التي طالبوا بها رسولنا الكريم قولهم **﴿لن نؤمن لك﴾** أي لن نخضع لك وننقاد وراءك **﴿حتّى تفجُر لنا من الأرض ينبوعاً﴾**. وكلمة (تفجُر) أتت من فجر الماء بجسه وفتح له طريقاً وجعله ينفجر. وقولهم (لنا) أي لصالحنا وفائدتنا وحدنا فاللاّم هنا تفيد التمليك.

وقولهم (من الأرض) أي ضمن الأرض التي استعمرناها. بدليل تعريف كلمة الأرض هنا بالألف واللاّم العهديتين، وقولهم (ينبوعاً) تسمية النبّع بالمصدر من نبع الماء إذا خرج من العين التي يطالبون بتفجيرها (محيط المحيط).

وكأن الله عزوجلّ قد أعاد إلى الذاكرة هنا مافعله أجداد هؤلاء اليهود مع نبيّهم موسى عليه السّلام. هذا الفعل الذي أوردته التوراة المعاصرة في الإصحاح ٢/١٧ من سفر الخروج الذي ورد فيه: (ثمّ ارتحل كلّ جماعة بني اسرائيل من بريّة سين.. على موجب أمر الرّب ونزلوا في رفيديم. ولم يكن ماءٌ هناك ليشرب الشّعب. فخاصم الشّعب موسى وقالوا: اعطونا ماءً لنشرب. فقال لهم موسى: لماذا تُخاصموني؟ لماذا تجرّبون الرّب؟ وعطش هناك الشّعب إلى الماء. وتذمّر الشّعب على موسى، وقالوا: لماذا أصْعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشينا بالعطش. فصرخ موسى إلى ارّب قائلاً: ماذا أفعل بهذا الشّعب؟ بعد قليلٍ يرجموني. فقال الرّب لموسى.. ها أنا أقف أمامك هناك على الصخرة في حوريب، فتضرب الصّخره، فيخرج منها ماء ليشرب الشعب. ففعل موسى هكذا أمام عيون شيوخ اسرائيل).

فهذا هو ما أورده سفر الخروج عن هذه الحادثة، والتي صوّرت الله عزوجلّ وكأنه لايدري احتياج قوم موسى إلى الماء في صحراء سيناء. على حين أنّ الله عزوجل أورد هذه الحادثة في الآية (٦٠) من سورة البقرة وقال: ﴿**وإذ استسقى موسى لقومه، فقُلنا اضرب بعصاك الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، قد علم كُلّ أناسٍ مَشْربهم، كلوا واشربوا من رزق الله، ولاتعثوا في الأرض مفسدين**﴾. فهو تعالى وضّح في هذه الآية الكريمة أنّ موسى هو الذي استسقى لقومه، وبدافعٍ من قيادته لهم، فلم يك من الغَباء إلى درجةٍ يضطّر قومه ليثوروا عليه طالبين تأمين المياه لإرواء عطشهم.

والمهمّ هو أنّ الله عزوجلّ، وقد أورد لنا مطالبة اليهود التي طالبوا بها محمداً رسول الله (ص) أن يفجُر لهم من أرضهم ينبوعاً. فقد ذكّر هؤلاء اليهود بطريقٍ غير مباشر بما فعله أجدادهم مع نبيّهم موسى في صحراء سيناء وفق ماتذكره توراتهم خلافاً للحقيقة فقد خاصموه وعجّزوه بمطالباتهم المادية، ضاربين عرض الحائط بكل ماجاءهم به من بركاتٍ روحية. فها أنّ أحفاد بني إسرائيل يشابهون أجدادهم. فلا يبالون بما أنزله الله عزوجلّ على محمد (ص) من وحيٍ وبركات. ويحتجّون عليه قائلين: لن نخضع لك يامحمد ولن ننقاد وراءك

حتى تبجس في أرضنا التي استعمرناها بجواركم والتي لانشكو فيها من العطش أن تبجس لنا فيها يُنبوعاً من الماء.

وراح تعالى يورد للقارئ مُطالبة ثالثة طالب اليهود محمداً أن يُحققها لهم وهي:

الآيــة الحــاديــة والتســــعون
﴿ أو تكونَ لك جنّةٌ من نخيلٍ وعنبٍ، فتُفجّرُ الأنهار خلالها تفجيراً ﴾

فأتى جل شأنه بالحرف أو بمعنى الواو العاطفة لاختلاف هذه المطالبة عن سابقتها. مضيفاً قولهم: ﴿**أو تكونَ لك جنّةٌ من نخيـلٍ وعنب**﴾. وكلمة الجنّة في هذه المطالبة تعني الحديقة ذات النخل والشجر والبستان. قيل لها ذلك لسترها الأرض بظلالها. والعرب تُسمّي النّخل الطوال جنّة. كما تُطلق الجنّة على الفردوس الأرضي والسّماوي أيضاً (محيط المحيط).

إنّ هذه المطالبة أوردتها سورة الإسراء، وهي السورة التي أنزلها الله تعالى في مكّة المكّرمة. وهذه قرينة تميل بي للاعتقاد أنّ اليهود طالبوا هنا أن يُوجد لهم فردوساً أرضيّاً يفجّر خلاله الأنهار، وليس حديقة ذات نخيل وعنب. وبألفاظٍ أخرى فإن اليهود طالبوا محمداً (ص) في مكّة أن تكون له دولة عامرة اقتصادياً تفيض لبناً وعسلاً. مذكّرين بذلك أنّ موسى وعدهم في مصر بأرض كنعان التي تفيض لبناً وعسلاً، ولتكون لهم دولة فيها عامرة اقتصاديّاً.

فاليهود طالبوا بهذه المطالبة، وراحوا يؤزّون قريشاً ليطالبوا محمداً (ص) بنفس مطالبتهم، ليثبتوا لهم، هو عجز أن يحقّق لهم مطالبتهم هذه، أنّه لاصلة له بربّ بني إسرائيل الذي منّ عليهم بأرض كنعان. وهذه المطالبة ومثيلتها هي التي استشارت غيرة الله عزوجلّ على رسوله الكريم ففرض عليه نافلة التهجّد ليهبه المقام المحمود ويؤسّس على يديه دولة الإسلام التي امتدّ ظلّها إلى أقاصي المعمورة.

وراح تعالى يورد للقارئ مطالبتين أُخريتين طالب اليهود محمداً (ص) أن يحقّقها لهم، فأضاف يقول:

الآيــة الثــانيــة والتســــعون
﴿ أو تُسقِطَ السّماء كما زعمت علينا كِسَفاً، أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ﴾

وفعل (تُسقط) من سقط: أي وقع على الأرض. وكلمة (كِسفاً) جمع كِسْفَه وهي القطعة من الشيء. (محيط المحيط). هذا وإنّ مُطالبة اليهود محمداً رسول الله بهذه المطالبة أي ﴿تُسقط السّماء كما زعمت علينا كِسفاً﴾ وردت بدافع توعُّد سورة الإسراء إيّاهم بمثل هذا النوع من العذاب. فاليهود يؤمئذٍ شاكلوا أعداء الأنبياء السابقين واستعجلوا محمداً (ص) أن يدعو ربّه ليُنزل بساحتهم العذاب الذي توعّدهم به من قبل ضمن آيات عدّة خصوصاً قوله تعالى: ﴿وإذ قلنا لك إنّ ربّك أحاط بالناس، وماجعلنا الرؤيا التي أريناك إلاّ فتنةً للناس والشّجرة الملعونة في القرآن، ونخوّفُهم، فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾.

ومن ثم أتى جل شأنه بحرف العطف (أو) ليضيف مطالبةً خامسة كان اليهود قد طالبوا محمداً (ص) بها، وضمّنها قوله تعالى: ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾. وهي مُطالبةٌ طالبوه بها من باب الهُزء به والسُّخرية بمزاعمه. أي إن كُنت في جميع ماتزعمه صادقاً، فهيّا إئت بالله والملائكة الذين يأتمرون بأمره جهاراً وعَيانا في مقابلتنا. وهو معنى كلمة قبيلاً. وهم ولاشكّ قد شابهوا أعداء الأنبياء السابقين في مطالبتهم هذه، متناسين ماطالب به أعداء نوح وابراهيم وسواهم أنبياء الله الكرام من مطالبات تشبه هذه المطالبات، مع أنهم أهل كتاب.

وراح الله جلّ شأنه يورد للقارئ مطالبتين أخريتين إضافة إل هذه المطالبات الخمسة التي حاولوا تعجيز رسوله الكريم بما تضمّنته من أمورٍ سخيفةٍ فأضاف:

الآيــة الثــالثــة والتســـــعون

﴿ أو يكونَ لك بيتٌ من زُخـرفٍ، أو ترقـى في السّماء، ولـن نؤمـن لرقيـك حتـى تـُنزّل علينا كتاباً نقرؤه، قل سبحان ربي هل كنت إلاّ بشراً رسولاً ﴾

إنّ كلمة زُخرف تعني الذهب على حسب ماورد في (محيط المحيط). ويصبح قوله تعالى: ﴿أو يكونَ لك بيتٌ من زخرف﴾. أي أنّ اليهود الذين سألوا عن الرّوح الخفيّه التي يعتقدون بوجودها وأنّ لها قُدرات عجيبة، أضافوا يطالبون رسول الله (ص) له بيتٌ من ذهب بالاستعانة بتلك الرّوح. وتدليلاً من جانبه على صدق مايدّعيه. فهذه مطالبة سادسة عبّر عنها ﴿أو يكونَ لك بيتٌ من زخرف﴾.

أما المطالبة السّابعة فقد تضمّنها قوله تعالى: ﴿**أو ترقى في السّماء، ولن نؤمن لرقيك حتى تُنزّل علينا كتاباً نقرؤه**﴾ أي أنّ اليهود طالبوا محمداً رسول الله(ص) أيضاً أن يصعد في الهواء بغير أجنحة ولا وسيلة ركُب. منطلقين في ذلك من قُدرة الجنّ على حمله في الهواء.

وقد أضافوا الى ذلك قولهم: ﴿**ولن نؤمن لرقيّك حتى تنزّل علينا كتاباً نقرؤه**﴾ أي إن كان ما يوحي إليك ينزل من عند الله تعالى، فهيّا اصعد أمام أعيننا الى السّماء وائتنا بكتاب غير القرآن نقرؤه، مادمت تزعم نزول وحيك القرآني من السّماء. فإن فعلت مانطلبه منك، تكون قد قدّمت لنا دليلاً محسوساً يثبت منه صدق ماتزعمه.

أقول: إنّ الله عزوجلّ قد جمع لنا بين هذه المطالبات التعجيزية التي كان اليهود يطالبون رسوله الكريم أن يُحققّها من أجلهم وذلك تدليلاً من جانبه جلّ شأنه على صدق ماذكره في مُستهل بحثه وهو: ﴿**وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره، وإذاً لاتّخذونك خليلاً**﴾.

أي أن الله عزوجلّ راح بهذا الأسلوب أيضاً يعطي القارئ فكرةً واضحةً عن حال تخلّف اليهود آنذاك فكرياً ودينياً، زمن بعثة محمد بن عبد الله (ص) رسولاً ورحمة للعالمين. فمن خلال ذلك يكون جلّ شأنه قد وضّح في الوقت نفسه، تجاهُل اليهود لنبوءة سفر التثنية ١٨/١٨ الواردة في التوراة المعاصرة التي هي بين أيديهم، هذه النبوءة التي تنبّأ بها موسى وبإشارةٍ من ربه عزوجلّ، والتي جاء فيها: (أُقيم لها نبيّاً من وسط إخوتهم، مثلُك، وأجعل كلامي في فمه. فيكلّمهم بكلّ ما أوصيه به. ويكون أنّ الإنسان الذي لايسمع لكلامي الذي يتكلّم به بإسمي، أنا أطالبه. وأمّا النّبي الذي يطغى، فيتكلّم بإسمي كلاماً لم أوصه أن يتكلّم به، أو الذي يتكلّم بإسم آلهة أُخرى فيُقتل ذلك النبي. وإن قلت في قلبك: كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلّم به الرّب؟ فما تكلّم به النبيّ بإسم الرّب، ولم يحدث، ولم يصر، فهو الكلام الذي لم يتكلّم به الرّب. بل بطغيانٍ تكلّم به النبيّ، فلا تخف منه).

فالعلامات التي حدّدها ربّ موسى له بما يتعلّق بظهور مثيله المذكور، وعلى حسب ماتضمنته هذه النبّوءة: أولاً: أن يكون هذا المثيل نبيّاً مشرعاً. ثانياً ـ ﴿**لاينطق عن الهوى**﴾ وهذا هو معنى (أجعل كلامي في فمه). ثالثاً ـ لايتقوّل على ربّه شيئاً من الأشياء. وهذا هو معنى (فيكلّمهم بكلّ ماأوصيه به). رابعاً ـ أن هذا النبيّ المثيل يمتاز بأنه يجعل البسملة (بسم الله

الرحمن الرحيم) شعار كتابه ودينه. وهذا هو معنى (يتكلّم به باسمي). سادساً: وأنّ هذا النبي المثيل يأتي بنبوءاتٍ سماويةٍ تتحقّق. فإن لم تتحقق (فبطغيان تكلّم به النبي، فلا تخف منه).

وقد كان من واجب اليهود الذين عاصروا بعثة محمد رسول الله (ص) أن يتفحّصوا انطباق هذه العلامات الستّة على شخصيته، ومدى انطباقها على إدعائه النّبوة. وليس أن يتجاهلوا هذه العلامات، ويعمدوا إلى استفزازه وتعجيزه بالمطالبات التي جمعها لنا الله تعالى في الآيات السّالفة الذكر.

فموسى عليه السّلام لم يدفع هؤلاء اليهود ليؤذوا محمداً مثيله، ولا أن يفتنوه عن دينه. وعليه فشتّان مابين تعليم موسى عليه السلام، ومابين هذه المطالبات الشريرة التي كان اليهود يطالبون بها محمداً عليه السلام، ومع ذلك فاليهود ينسبون أنفسهم إلى موسى عليهم السلام.

فهذه الحقيقة أشير إليها هنا من خلال تجميع مُطالبات اليهود التي راحوا يطالبون بها محمداً رسول الله (ص) ويؤُزّون المشركين ويدفعونهم ليطالبوه بمثلها. ذلك ليثبت الله عزوجلّ من خلال ذلك أنّ اليهود لم يكونوا طُلاّب حقيقةٍ في وقتٍ من الأوقات، وماكان سلوكهم يمتّ إلى تعاليم موسى بصلةٍ من الصّلات.

ولنُلاحظ كيف أنّ الله جل شأنه أوصى رسوله الكريم أن يجيب على هذه المطالبات إجابةً جدّ مختصره، ومن صلب التعاليم الدينية، فأمره أن يردّ ويقول: ﴿**قل سبحان ربي هل كنتُ إلاّ بشراً رسولاً؟**﴾ وهي نفس ماتضمّنه قوله تعالى في الآية السادسة من سورة فصّلت ﴿**قل إنّما أنا بشرٌ مثلكم يوحي إليّ أنّما إلهكم إلهٌ واحدٌ**﴾.

أي مالكم أيها اليهود الأشرار تطالبونني بهذه المطالبات، ظانينّ أنّ لي صلة بالجنّ أي بالرّوح الخفية التي تحاولون ربط أنفسكم بها. فلِمَ لاتعودون إلى مانصّت عليه توراتكم من تعاليم يثبت منها وجود إله واحد هو الذي بعث نبيّكم موسى وبعثني، من دون أن تكون لكلينا أيّة علاقة بروحٍ خفيّة تزعمون وجودها. فسبحان ربي أي تنزّه ربّي عما تطالبونني به. وعن أن يكون قد أوجد مثل هذه الرّوح التي تزعمون وجودها، وتنزّه عن أن يحقّق على أيدي رسله الكرام مثل هذه الطلبات المادية، فجميع هذه المعاني دلّ عليها قوله تعالى ﴿**فسبحان ربّي**﴾ فهو تعالى أتى بكلمة سبحان مجرّده لنُصرّفها إلى جميع ماذكرته من دلالات.

ثم إنّ قوله: ﴿هل كنتُ إلا بشراً رسولاً﴾ توضّح بما لامجال للمحاورة فيه، أنّ رُسُلَ الله الكرام إنما يبعثهم الله تعالى ليقوموا بما يوحيه إليهم ربُّهم فيبشّرون وينذرون ويفعلون مايؤمرون.

وقد راح الله جل شأنه ينبّه ذهن القارئ بهذه المناسبة إلى أنّه يستحيل عليه أن يصطفي رسولاً من البشر يكون عرّافاً أو مُنجّماً أو يعمل على تحضير الأرواح. كيلا تلتبس الحقيقة على عباده، فلا يعود باستطاعتهم التفريق بين رسولٍ صادق بعثه الله تعالى، وبين مُدّعٍ كذّاب. ولذلك أمر الله تعالى رسوله الكريم أن يجيب على طلبات اليهود ويقول: ﴿سبحان ربّي هل كنت إلاّ بشراً رسولاً﴾. كذلك أضاف جلّ شأنه يوضّح هذه الحقيقة الآنفة الذكر وقال:

الآية الرابعة والتسعون

﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهُدى إلاّ أن قالوا: أبَعَث الله بشراً رسولاً؟ ﴾

فهو جلّ شأنه أتى في هذه الآية الكريمة بالواو العاطفة ليعطف موضوع توضيح هذه الحقيقة، على إجابته السّابقة. كما أتى بالحرف (ما) كاسم موصول ومعرفة تامّة مقدّره بقولك الشيء. لأنّه لم يتقدّمها إسم، فهي وعاملها صفة له في المعنى، كما أتى بفعل (منع) بمعنى حرم وكفّ عن الشيء. كذلك أتى في وسط الآية الكريمة بحرف الاستثناء (إلاّ) كحرف زائد في هذا المقام. (محيط المحيط)

أتى جل شأنه بهذا كلّه ليعود تقديرنا لهذه الآية الكريمة كمايلي: أنّ الشيء الذي حَرَمَ الناس أن يؤمنوا برسالات الأنبياء السّابقين إذ جاءهم الهدى على أيديهم، هو أنّهم أن عمدوا إلى الإعتراض على الدّوام وقالوا: ﴿أبعث الله بشراً رسولاً؟﴾. فكان تساؤلهم واعتراضهم هذا بدافع أمراضهم النفسية كالحسد والكبرياء والغرور. هذه الأمراض النفسية التي كانت تحول بين أصحابها وبين تسليمهم برسالات بشرٍ مثلهم بل وأقلّ منزلة اجتماعية منهم. فلا يدركون النقطة المحورية التي كانت تشكّل اصطفاء الخالق لرساله. ومادامو كانوا لايرون في أنفسهم نقصاً، ولايرون في رسل الله طاقات شخصيّة تفوق مايحملونه أنفسهم من طاقات. إنّ كل هذه الأمور كانت تدفعهم ليقولوا: ﴿أبعث الله بشراً رسولاً؟﴾.

ألا لقد كان هنالك لله عزّوجل مقصداً وحكمةً بالغة عندما لفت نظر القارىء الى هذه الحقيقة التي وضّحتها، وهو التّنبيه الى أنّ الناس ينظرون الى هذه المسألة نظرة سطحيّة، فلا

يسبرون أعماقها وبواطنها. فالله عزوجل عندما اصطفى آدم ونوحا وابراهيم وموسى وعيسى ومحمداً وغيرهم من أنبياء الله ورسله الكرام. لم يصطفيهم من بين الوجهاء والأثرياء، ولا من بين العرّافين والمنجّمين ومُحضّري الأرواح، ولالامتيازٍ في ألوانهم أوأشكالهم أو ألسنتهم. بل إنّ الله تعالى اصطفى أولئك الرّسل نظراً لما انطوت عليه سرائرهم من صفاءٍ وطهارة ونظافة سلوك يوميّ. فهذه هي الأمور المحورية التي تشكّل المعيار الحقيقيّ لاصطفاء الخالق لأحد مخلوقاته البشر لتحميله رسالته الى الناس. ذلك أنّ الله تعالى من أسمائه القُدّوس، ولايصطفي القدّوس إلاّ بشراً طاهر السّريرة قُدّوساً. وهذا المعيار قد توفّر في شخص محمد بن عبد الله الصادق الأمين. أي أنّ الله عزوجل قد غمز جانب اليهود من خلال قوله المذكور، جانب اليهود الذين كانوا متخلّفين فكرياً ودينياً زمن بعثة محمد(ص). فوضّح لهم هذه الحقيقة، وبهذا الأسلوب البلاغي. وكأن الله تعالى قد قال لهؤلاء اليهود بألفاظ أخرى: إنّكم تناسيتم معايير اصطفاء الله تعالى الأنبياء، لذلك كذّبتم رسالة محمد بن عبد الله(ص)، وبالتالي فقد جئتم تطالبونه بهذه المُطالبات. أفلا تدرون أنكم والحال هذه، تكونون قد أقدمتم على تكذيب موسى وهارون، وأنتم تنسبون أنفسكم إليهما وتدينون بتعاليمها؟ فنحن اصطفينا موسى وهارون وهما من البشر، وأرسلناهما ﴿**إلى فرعون وملئه، فاستكبروا وكانوا قوماً عالين. فقالوا أنؤمن لبشرين مِثلنا وقومهما لنا عابدون. فكذّبوهما، فكانوا من المُهلكين**﴾. المؤمنين ٤٥/٤٧. أي أنّ فرعون وملئه فعلوا مثل ماتفعلونه مع محمد رسول الله (ص)، وطالبوه بمثل طلباتكم غير آخذين بعين اعتبارهم معايير اصطفاء الله أنبياءه ورسله.

ولم يكتف الله جل شأنه بتوضيح هذه الحقيقة الآنفة الذكر، بل أضاف عليها يقول:

الآيـــة الـخامســـة والتســـعون
﴿ قل لو كان في الأرض ملائكةٌ يمشون مطمّئنين، لنزّلنا عليهم من السّماء مَلَكاً رسولاً﴾

فأتى جلّ شأنه بكلمة (الملائكة) جمع مَلَك المشتق من أَلَك بين القوم ترسّل. واستألك حمل رسالته. والأَلُوك: الرّسالة والرسول. وأصله مألك ومعناه: مُرسل. ولأك إلى فلانٍ أبلغه عنه. تقول ألكني إلى فلانٍ أي أبلغه عنّي. فكلمة الملك اشتُق أيضاً من الألُوكه بمعنى حمل الرّسالة. وأصله مألك، فحذفت الهمزة للخفّة، فصار مَلَك على وزن فَعَل. كما وصف تعالى

الملائكة بقوله (يمشون مطمئنين). فيمشون من مشى أي مرّ وسار على رجليه سريعاً كان أو غير سريع. أما كلمة (مُطمئنين) فمن طُمأنينة النفس وسكونها وأمانها.

وعليه فإنّ الله عزوجلّ ومن خلال قوله: **﴿قل لوكان في الأرض ملائكةٌ يمشون مُطمئنين،﴾** يكون قد أمر رسوله الكريم أن يضيف على الحقيقة التي كان قد وضّحها في الآية السّابقة، أنه يضيف معلومةً جديدةً، يبلّغها لهؤلاء اليهود المتخلّفين، ولبيان هذه المعلومة، فقد أتى جلّ شأنه بحرف (لو) الذي إن دخل على ثبوتين، كما هو وارد في هذه الآية الكريمة، يقلبهما نفيين، ومن هنا سُميّت (لو) حرف امتناع لامتناع.

أي أن الله تعالى أمر رسوله الكريم أن يقول لهؤلاء اليهود: افرضوا وجود ملائكة عوضاً عن البشر يسكنون سطح هذه الكرة الأرضية، وأنّ هؤلاء الملائكة لايهدّدهم أيّ خطرٍ كان، فهم يسيرون على الأرض جيئةً وذهاباً مطمئنين الأنفس وبأمان.

وهنا أتى جل شأنه باللاّم التي تقع جواب حرف (لو)، وراح يوضّح المعلومة التي شاء توضيحها وبيانها، وقال: **﴿لنزّلنا عليهم من السّماء مَلَكاً رسولاً﴾**. أي أنّ الله عزوجلّ، ومن مُنطلق كونه خالق هؤلاء الملائكة. فلا يدعهم يمشون في الأرض مطمئنين آمنين ساكني الأنفس. ذلك لأنّه جل شأنه لم يخلقهم لهذا الغرض الممكن توفيره بجهودهم.

بل لابدّ أن ينزّل الله تعالى عليهم ملكاً من السّماء، ومن جنسهم، مهمتُّه أن يوضح لهم الغاية من خلقهم، فيعرّفهم إلى ربّهم الذي خلقهم ويهديهم سبيل تحقيق ذلك كلّه. من مُنطلق أنّ حياتهم الدّنيا ماهي في نظر خالقهم إلاّ الطور الأوّل على طريق حياة الخلود.

هذا وإنّ الله ربّ العالمين إن أحجم عن فعل ذلك، يكون قد أثبت بالتالي أنّه لم يخلق هؤلاء الملائكة إلاّ لهواً وعبثاً. وهكذا يكون الله عزوجل، ومن خلال هذه المعلومة المُضافة قد وضّح تعالى لهؤلاء المُعاجزين اليهود أنّه لايكفيكم أن تنسبوا أنفسكم إلى موسى وتعاليمه.

وتتفاخرون من جراء ذلك على محمد وقومه على أنكّم أهل كتاب. فإنّ حال تخلّفكم الفكري والديني الذي بلغتموه، والتغيّرات الطارئة المستجدّة، اقتضت هذه الأحوال جميعها نسخ توراتكم وإنزال كتاب جديد هو هذا القرآن الذي يتنزّل مُنجّماً. هذا وإنّ الله تعالى يحقّق ذلك كلّه على أيدي هذا الرسول الأمين الذي اصطفاه ربّه لكونه بشراً من جهة، ولطيب فؤاده وصفاء سريرته وحسن سيرته أيضاً.

فإن اتّعظتم بهذه المعلومة واهتديتم تنقذون أنفسكم من العـذاب المقدّر لإزالتكم نهائيـاً من هذا الوجود.

وبعـد أن عـدّد الله جـلّ شـأنه مطالبـات اليهـود غـير المنطقيـّة، والمنافيـة لتعـاليم دينهـم أنفسهم، وبعد أن كشف عن وجه تخلّفهم فكرياً ودينيـاً، وبعـد أن لفـت أنظـارهم إلى معايـير صدق نبّوته، تلك المعايير التي تضمّنتها النبوءة التوراتية الواردة في الاصحاح ١٨/١٨ من سـفر الخروج. عاد جل شأنه يخاطب رسوله الكريم ويأمره ليقول هؤلاء اليهود:

الآيـــة الســـادســـــة والتســـــعون

﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم، إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾

وفعل الأمر (قل) استعمل هنا بمعنى أنذر هؤلاء اليهود وبلّغهم، وفعل (كفى) من كفـى الشيء: أي حصل به الاستغناء عن غيره. وأُدخلت الباء بعد قوله تعالى (كفى) على اسم الجلالة الله، وهو في محل رفع فاعل لتأكيد اتصاله برسوله الكريم وإسناد فعل الكفاية والشهادة إلى الله عزوجلّ. ثم إنّ كلمة (شهيداً) أي حكماً عدلاً. وقد أوردها تعالى بصيغة التمييز ليمنح شهادته وحكمه امتيازاً يفوّق ماسواه من أحكام. كما أتى جل شأنه بالظرف (بين) بمعنى وسط وليفيـد بها التّنصيف ومشاركة الطرفين جانب الله وجانب هؤلاء الأشرار. وهو تعالى لم يقل (بيننـا)، بل كرّر الظرف بين وقال بيني وبينكم وأتى بينهما بالواو كيلا يفيد هذا الظرف معنى الوحدة.

وعليه فإنّ الله تعالى، ومن خلال أمره هذا الموجّه إلى رسوله الكريم: ﴿**قل كفـى بـالله شهيداً بيني وبينكم**﴾ يكون قد أمر رسوله الكريم بعد إنزاله سورة الإسراء هذه، يكون قد قرّر مصير اليهود دنيوياً وأُخرويّاً بشكل قاطعٍ ونهائي، لذلك أمره أن يكفّ بعد ذلك عن الدخـول معهم في جوارات غير منطقية من هذا القبيل الذي أورده تعالى للقارئ آنفاً.

وليركّز بالتّالي على نافلة التهجّد وعلى الأدعية التي علّمه إياها، تاركاً أمر الفصل بينـه وبين هؤلاء الأعداء إلى حكم ربّه عزوجل. وكأنه تعالى أمر رسوله الكريم ليقول لهـم هـا أنـي ألقيت حجـّة ربـّي عليكم وكفى به حكماً بيني وبينكم، وأفوّض بالتالي أمري إلى الله عزوجلّ.

وهنا أتى جلّ شأنه بحرف إنّ للتوكيد وأنهى هذه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿**إنـّه كـان بعباده خبيراً بصيراً**﴾. أي، قل يامحمّد وكيف لا أفوّض أمري إلى الله ربـّي وهـو الـذي كـان بعباده أي بما أفعله وتفعلونه (خبيراً) أي عليماً عارفاً بأسرارها وحقيقتها، وعلى خبرة تامّة بها.

(محيط المحيط). و (بصيراً) أي كان يبصر ويرى مانفعله جميعاً أيضاً فهو كان يرى مدى انحرافكم عن تعاليم نبيّكم موسى، وكيفيّة تحريضكم قريشاً ضدّي. كما كان يرى ويبصر كيف أنني أُبلّغ رسالته عزوجلّ بكل أمانة وصدق بعيداً عن أمور العرافة والتنجيم وتحضير الأرواح.

فلّما انتهى جلّ شأنه من إصدار أمره المذكور، أتى بالواو العاطفة وأضاف يقول:

الآيــة الســابعــة والتســـعون

﴿ ومن يهد الله فهو المـُهتد، ومن يَضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ، ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم، عُمياً وبكْماً وصُماً، مأواهم جهنّم كلّما خَبَت زدناهم سعيراً﴾

أي راح الله جلّ شأنه يؤكّد لهؤلاء أنّه كان خبيراً بصيراً بما يفعلونه، لذلك أضاف يقول هنا: ﴿**ومن يهد الله فهو المهتدِ**﴾ بمعنى أنني وأنا الخبير بالعباد، لو تبيّن لي ميلاً لمعرفة الحقيقة في أنفس هؤلاء اليهود الأشرار، واندفاعاً حقيقيّاً للعمل على تعاليم موسى لكنت هديتُهم ووفّرت عليك يامحمّد ماتُلاقيه من جانبهم من عَناء.

ومن ثم أتى جلّ شأنه بالواو العاطفة ثانيةً وأضاف: ﴿**ومن يُضلل، فلن تَجِدَ لهم أولياء من دونه**﴾ أي ومادام ربّك الخبير البصير قد قرّر إضلال قلوب هؤلاء اليهود الأشرار بسبب ما انطوت عليه أنفسهم من ظُلمة وشرّ، فلن تعثر يامحمد عمّن يهدونهم من دون ربّك الخبير البصير. وهكذا يتّضح من مُعطيات الألفاظ أنّ تُحّولاً قد جرى بعدها في سلوك محمد رسول الله (ص) تجاه هؤلاء اليهود يقيناً وذلك حدث في السنوات الثلاث الأخيرة في مكة المكرمة وقبل الهجرة إلى المدينة المنورة.

وهذا الشطر من القرار الإلهي المُتّخذ بحق اليهود كان متعلّقاً بأمور هذه الحياة الدّنيا. وإنّ الإنسان يتساءل هنا بداهةً عمّا أعدّ الله تعالى لهؤلاء اليهود الأشرار من عقابٍ وعذابٍ ينتظرهم يوم القيامة، وقد راح جلّ شأنه يكشف عن الشّطر الآخر من قراره المذكور المتعلق بالحياة الآخرة وأضاف يقول: ﴿**ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم**﴾.

أقول إنّ المفسّرين القدماء الذين كانوا يجهلون مانصّ القرآن الكريم عليه من أصولٍ ينبغي على القارئ المفسّر أن يلتزم بها. فسّروا قوله تعالى المذكور على صورةٍ مشينةٍ بفعل الله عزوجلّ الذي سيُقدم عليه.

فقد نقل الفخر الرازي رحمه الله في تفسيره الكبير وعلى سبيل المثال من القول المأثور: (روى أبو هريرة: قيل يارسول الله كيف يمشون على وجوههم؟ قال: إنّ الذي يُمشيهم على أقدامهم، قادرٌ على أن يُمشيهم على وجوههم). كما روى الرازي عمّا تضمّنته شروحات الفلاسفة دون تعيين أسمائهم ولاذكر أسماء كُتُبهم وأضاف: (قال حُكماء الإسلام: الكُفّار أرواحهم شديدة التعلّق بالدّنيا ولذّاتها، وليس لها تعلُّقٌ بعالم الأبرار. وحضرة الإله سبحانه وتعالى فلمّا كان وُجوه قلوبهم وأرواحهم متوجّهةٌ إلى الدنيا. لاجرم كان حشرُهم على وجوههم).. المجلد الحادي عشر ص٦٠.

فهذه هي خلاصة ماذهبت إليه أذهان المفسرين القدماء، هذا وإنّ مافهموه يتضارب ومعطيات البسملة كأحد أصول التفسير، وكمفتاحٍ لفهم مضامين الآيات الكريمة التي تتكلّم عن عالم مابعد الموت. وسيجد القارئ مثالاً يوضّح ماذكرته، وذلك في المبحث الثالث من مؤلّفي (الله جلّ جلاله) وقد استقيت المثال المذكور ممّا تضمّنته سورة الحاقّة من مضامين متعلقة بعذاب اليوم الآخر.

والذي يَهُمنُّا قوله هنا بسبيل بيان دلالة قوله تعالى: ﴿**ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم**﴾، أنّه لاينبغي للقارئ المفسّر أن يؤخذ بدلالات الألفاظ المتبادرة لذهنه لأسباب:

الأوّل: من هذه الأسباب ضرورة مراعاة معطيات البسملة فيحذر أن يحدث بين المعنى المُتبادر للذّهن وبين دلالة صفتي «الرحمن الرحيم» تضاربٌ وتضادّ.

الثاني: من هذه الأسباب أن يأخذ بعين اعتباره كون آيات القرآن الكريم، قد صيغت بإعجازٍ بلاغيٍ لغة ومضموناً، في مواجهة أهل لغة الضّاد.

الثالث: من هذه الأسباب أنّ كل لفظٍ من ألفاظ لغة الضّاد هذه يحتمل أكثر من دلالة ومعنى. منها مايتبادر لذهن القارئ، ومنها ماهو بحاجةٍ لاستقصائه في معاجم اللّغويّن.

فلنتناول كلمة (وجوههم) الواردة في قوله تعالى ﴿**ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم**﴾ فالمعنى الذي يتبادر لذهن القارئ منها هو دلالتها على مايبدو للنّاظر من بدن الإنسان. لكننا، وبالرجوع إلى (محيط المحيط) مثلاً. يتبيّن لنا أنّ من دلالات كلمة الوجه دلالتها

على نفس الشيء وحقيقته أيضاً. وهو المعنى الذي أرى الأخذ به في هذا المقام خصوصاً وأنّه لايتضادّ ودلالة الرحمن الرحيم. ويُجمع الوجه على وجوه وأوجه.

فالله عزوجل إذ قال: ﴿**ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم**﴾ نبّه أذهاننا إلى أنّ قراره الذي اتّخذه بحق المصير الأخروي لهؤلاء اليهود الأشرار، انطلق فيه من موازينه المقرّرة لإخراج نتائج الأعمال. فالله تعالى يُظهر كُلّ إنسانٍ يوم الحشر على وجهه الحقيقي الذي كان عليه في حياته الدّنيا من حيث صفاته التي كان يحملها في نفسه ومن حيث سلوكه أيضاً.

وكأنه تعالى يقول إننّا لن نظلم هؤلاء اليهود الكتابيين الأشرار يوم الحشر، بل سنحشرهم يوم القيامة على وجوههم الحقيقية التي كانوا يُخفونها عن أهل مكّة حين يؤزّونهم ضدّ إبنهم الصّادق الأمين. وإنّ حشرنا لهم المذكور على وجوههم انطلقنا فيه من كوني أنا الله بعبادي وبهم خاصّة، وفي حياتهم الدنيا هذه ﴿**خبيراً بصيراً**﴾.

ومن ثمّ راح جلّ شأنه يوضّح للقارئ الوجوه الحقيقية التي كان يتّصف بها هؤلاء اليهود وقال: ﴿**عُمياً وبكُماً وصُمّاً**﴾ أي أنّ هؤلاء الأشرار حقيقتهم وهم يعاجزون رسولنا محمداً (ص) أنهم كانوا عُمي البصيرة، فلم يُؤْتوا أعيناً روحيةً بسبب سوء سلوكهم وسوء نيّاتهم.

كما أنهم كانوا (بُكماً) أي بُخلاء لاينطقون ولايعترفون بالحقائق التي أتاهم بها رسولنا الكريم (ص) لذلك لم نؤتهم لساناً روحياً لكيانهم الباطني. كذلك كانوا (صُمّاً) أي كانوا يصمّون آذانهم عن سماع الحقائق والبيّنات التي أتاهم بها هذا القرآن الذي لايوازي ماتضمّنته من حقائق وبينات ماعندهم من أمورٍ توارثوها في هذه التوراة المعاصرة التي هي بين أيديهم. فهذه هي دلالة: ﴿**عُمياً وبكماً وصُمّاً**﴾ وهي ألفاظ لاتعني أنّ الله تعالى سيحشرهم كذلك، بل هي ألفاظٌ وضحت دلالة كلمة وجوههم في هذا المقام.

والذي يؤكّد المعنى الذي ذهبت إليه هو أنّ الله تعالى قال بعد ذلك ﴿**مأواهم جهنّم**﴾ وكلمة جهنم على حسب ماوضّحت ذلك عند تفسير الآية (٣٩) من هذه السورة تعني أسفل سافلين. فهي علمٌ لدار العقاب، بعيدة القعر، من وقع فيها هلك على حدّ قول الحماسي، وجيء بكلمة جهنّم من قولهم بئرٌ جهنّام أي بئر بعيدة القعر. (محيط المحيط)

فقوله تعالى هنا ﴿**مأواهم جهنّم**﴾ يعني أننّا قرّرنا ألاّ نرقيّهم روحياً فنحرمهم بالتّالي من شرف قربنا ومحبّتنا ورضواننا، ونميتهم وهم في أدنى دركات سُلّم العروج الروحاني الذي

هو أسفل سافلين، فهذا هـو حالهم الذي هو مأواهم الذي يأوون إليه يوم القيامة بسبب اتّصافهم بهذه الصّفات الباطنية في هذه الحياة الدّنيا. أي أنّهم سيحيون يوم الحشر في حريق نارٍ مستعرة حُزناً من جانبهم على مافرّطوا به من نعماء وماجحدوا من حقائق تجلّت زمن بعثة محمد رسول الله (ص).

والمرء يتساءل هنا بداهةً: وهل أنّ للمصير الأخرويّ المصرّح به بشأن هؤلاء اليهود من آخر؟ ويجيب الله عزوجلّ على هذا الخاطر ويقول: ﴿**كُلّما خَبَتْ، زدناهم سعيراً**﴾.أي أنّ ضمير هؤلاء اليهود سيستيقظ بعد حشرهم يوم القيامة، ويشتعل ناراً تؤنّبهم وهم في الدرك الأسفل من النار التي هي جهنّم. فكلّما جنت هذه النار التي هم فيها وسكن ضميرهم عن تعذيبهم لطول المُدّة ولاعتيادهم على تلك الحال، ﴿**زدناهم سعيراً**﴾ أي عُدنا فحرّكنا فيهم تصوّراتهم عمّا فعلوه ضدّك يارسولنا الأمين فزدناهم بذلك سعيراً أي ناراً مُلتهبة. علماً بأنّ كلمة (خبت) أي أطفئت وسكنت. كذلك فمعنى كلمة (سعيراً) تشير إلى النّار ولهبها. من سعّر الحرب والنّار هيّجها وأشعلها. وفي سورة النساء قوله تعالى: ﴿**وكفى بجهنّم سعيراً**﴾ أي ناراً مُشتعلة (محيط المحيط).

فهذا هو المعنى الحقيقي المقصود من هذه الآية الكريمة، فلم تكن المعاني المتبادرة لأذهاننا من خلال تلاوتها لأوّل مرّة، هي المقصود هنا. وذلك لتضادّ معانيها المتبادرة للذّهن مع مفتاح السّورة، وهو البسملة بسم الله الرحمن الرحيم التي تعني أننا نبدأ بتلاوة سورة الإسراء باسم الله ومعونته ومن منطلق دلالات صفتيه الرئيسيتين «الرّحمن الرحيم»، ومحاولين فهم مضمون آيات سورة الإسراء هذه، بما لايُخالف دلالات هاتين الكلمتين: الرّحمن الذي أعطى كلّ شيء خلْقه من دون مقابل. والرّحيم الذي يجزي المرء على عمله وبأكثر من استحقاقه، أي لايُضيع الله عمل عاملٍ، ويخرج لهذا الإنسان كتاباً يمثّل نتائج كسبه وعمله وذلك يوم القيامة يوم يبعث الله تعالى هذه النفوس البشرية من قبورها، فنار العذاب يصدر يوم القيامة من داخل نفس الإنسان، وليس من خارجها، كما هو الحال الذي سيكون عليه هؤلاء اليهود الأشرار. فتنزّه الله جلّ جلاله عمّا ألصقه المفسّرون القدماء رحمهم الله تعالى من أفعالٍ إلى ربّهم وخالقهم هو بريء منها. هذا وإنّ رحمة الله تعالى وسعت كلّ شيء. فلن يدوم عذابٌ إلى مالا نهاية. وسيأتي على جهنّم زمانٌ تُصفّق الريح أبوابها على حسب ماورد عن رسول الله (ص) قوله نفسه. وهو الأمر الذي لامحلّ للتبسّط فيه وشرحه في هذا المقام.

فلـّما انتهى الله جلّ شأنه من بيان الشّطر الثاني لقراره الذي اتّخذه بحقّ هؤلاء اليهود الأشرار الذين آذوا رسوله محمداً (ص)، راح تعالى يعرض علينا حيثيّات قراره المذكور. ذلك أنّ لله تعالى أسلوبه الخاص المتميّز المغاير لأسلوب المشرّعين والمعاصرين الذين يقدّمون ذكر حيثيّاتها. بينما أخرّ جلّ شأنه توضيح هذه الحيثيّات في هذا المقام، وقال:

الآيــة الثـامنــة والتســعون

﴿ ذلك جزاؤهم، بأنّهم كفروا بآياتنا، وقالوا: أإذا كنّا عظاماً ورُفاتاً أإنّا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾

فهو جلّ شأنه استهلّ هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿**ذلك جزاؤهم**﴾ أي أنّ هذه العقوبة التي اشتملت على أقصى مايستحقّونه من عقوبة، ودون أيّ تخفيفٍ منها، هي جزاؤهم ويستحقّونها، وبسببين رئيسيين، وهنا أتى جل شأنه بباء السببيّة فوضّح السبب الرئيسي الأول وقال: ﴿**بأنّهم كفروا بآياتنا**﴾. و (آياتنا) جمع آية وتعني (العلامة) في المحسوسات والمعقولات، كما تعني الأمارة والعبرة (محيط المحيط). أي أنّ السّبب الرئيسيّ الأوّل لقرارنا هذا، هو لبُخل هؤلاء اليهود ولإبائهم الاعتراف بما أبديناه من علامات محسوسة ودلائل معقولة وعِبراً استقيناها من تاريخهم أنفسهم.

ومن ثم أتى جلّ شأنه بالواو العاطفة ليوضّح السّبب الرئيسي الثاني وأضاف يقول: ﴿**وقالوا أإذا كُنّا عظاماً ورفاتاً أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً؟**﴾. وقد أعاد تعالى من خلال ألفاظه هذه إلى ذاكرة القارئ ماأورده في الآية (٤٩) من هذه السّورة، من أنّ اليهود كانوا يحرّضون قريشاً ضدّ محمد الصادق الأمين قائلين لهم انظروا كيف يزعم محمّد أننا إذا متنا وأمسينا عظاماً وحُطاماً مُفتتّا مُكسّراً، يزعم أن ربّه سيعيد تركيبنا وينشرُنا من قبورنا خلقاً جديداً. أي أنّ هؤلاء اليهود كان يفعلون ذلك وهم يخالفون بذلك تعاليم نبيّهم موسى الذي كان أخبرهم عن وجود عالم مابعد الموت وجود عالم الحساب والنّشور.

فلـّما فرغ جلّ شأنه من توضيح حيثيّات قراره المذكور، لم يبخل على اليهود ولا على القُرّاء بتقديم الأدلة التي يثبت منها وجود يوم القيامة وبعث الأنفس وحشرها. بل راح تعالى فأدلى بدليلين لاثبات ذلك وليس بدليل واحد. كان الدليل الأول دليلاً فلسفياً عقلياً. وكان الدّليل الآخر مُستقبليّاً محسوساً. وراح تعالى يقول:

الآيــة التـاســعــة والتســــعون

﴿ أولم يروا أنّ الله الذي خلق السموات والأرض قادرٌ على أن يخلُق مثلهم، وجعل لهم أجلاً لاريب فيه ، فأبى الظّالمون إلاّ كفوراً ﴾

وقد عبّر الله جلّ شأنه عن دليله الفلسفي العقلاني بقوله تعالى: **﴿أَوَلم يـرَوْا أنّ الله الذي خلق السموات والأرض قادرٌ على أن يخلُق مثلهم﴾**، أي أو لم يمعن هؤلاء اليهود الأشرار في أمر الله الذي له من العلم والقُدُرات ماامكّنه ذلك من أن يخلق هذه السموات والأرض من حولهم، فالإله الذي تكون له مثل هذا العلم وهذه القدرات فلايستبعد ولايعسر عليه أن يعيد إنشاء كيانٍ جديد مشابه لكيانهم. فهذا دليل فلسفي استنتاجيّ تستسيغه عقول المتفكّرين.

ومن ثمّ عبّر الله جلّ شأنه عن دليله المُستقبلّي المحسوس بعد أن أتى بالواو العاطفة وأضاف قائلاً: **﴿وجعل لهم أجلاً لاريب فيه﴾** أي مادام الله عزوجلّ قد قرّر القضاء على هؤلاء الأشرار في المستقبل، وحدّد أجلاً لتنفيذ ذلك، وهو الأمر الذي ذكره تعالى في أكثر من موضع من كتابه العزيز، فمن واجب هؤلاء الأشرار، إذا أصرّوا على عملية تغشية ماقدمناه لهم من حقائق، من واجبهم أن ينتظروا مجيء هذا الأجل المقرّر الذي لاريب ولاشكّ في حدوثه في المستقبل. فإن مرّت العلامات التي أنبأنا عنها و لم تحدث عند الأجل المقرّر، فسيكون في أيديهم يومئذٍ الدليل الحسّي على كذب ماجاءهم به محمّد بن عبد الله الصّادق الأمين. أو تحدث يومئذٍ، فيكون قد فات أوان تقبلُّهم لهذا الدّين الحنيف.

فلما فرغ جل شأنه من تقديم هذين الدليلين الهامين، وبهذا الأسلوب البلاغي المُعجز، أتى بعدهما بفاء الاستئناف وأنهى هذه الآية الكريمة بقوله تعالى: **﴿فـأبى الظـالمون إلاّ كُفوراً﴾**. أي أنّ هؤلاء الظالمين من اليهود لم يُؤثّر فيهم ما اتّخذناه بحقّهم من قرار يتعلّق بمصيرهم الدنيوي والأخروي. ولا أثّر فيه هذان الدّليلان الآنفا الذكّر. فرفضوا أن يتزحزحوا عن مواقفهم ونهجهم الشرّير، وأصرّوا **﴿إلا كفوراً﴾** أي إلاّ أن يثبتوا على وضعية جحود نعماء ربّهم وتغشية ماقدّمه لهم رسولنا الأمين من دلائل وبيّنات.

لذلك لاحظنا أنّه جلّ شأنه عاد فتوجّه إلى رسوله الكريم آمراً إيّاه أن يكشف لهؤلاء الماكرين الجاحدين أنّ الله الخبير البصير بحقيقة أنفسهم محيطٌ بصفة البُخل المُترسّخة فيهم طوال تاريخهم الطويل. وراح يقدّم لهم فرضيّةً مستحيلة الوقوع تؤكّد حقيقة مايقول. فقال تعالى:

الآيـة المـائـة

﴿قل لو أنكم تملكون خزائن رحمة ربّي، إذاً لأمسكتم خشية الانفاق، وكان الإنسان قتوراً﴾

فأتى جل شأنه بحرف (لو) لتقديم هذه الفرضيّة المستحيلة الوقوع، وبمعنى (إنْ)، فعل ذلك ليقلب فعل المضارع (تملكون) إلى معنى المُضيّ. كما اعقب حرف (لو) بضمير المخاطب (أنتم) ليخاطب به هؤلاء اليهود الظّالمين ضمن هذه الفرضيّة. كما أتى بفعل (تملكون) من ملكه أي احتواه، وأمسى قادراً على الاستبداد به (محيط المحيط). وبكلمة (خزائن) ومفردها خزينة، وهي مكان خزن الدّراهم وغيرها من الأشياء التي تُدّخر. كذلك أتى بكلمة (رحمة) الدّالة على إرادة إيصال الخير ودفع الشّر وترك عقوبة من يستحقُّ العقوبة. (محيط المحيط). وراح آمراً رسوله الكريم: **﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربّي﴾** أي بفرض أنّكم أمسيتم تملكون خزائن رحمة ربّي، أي بفرض أنكم أمسيتم قادرين على الاستبداد بإرادة إيصال الخير لمستّحقيه، ودفع الشّر عن المقرّبين، وإرادة ترك عقوبة من يستحقّ العقوبة، وماهو في أيدي ربّي. **﴿إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق﴾** أي أنّ مادة البُخل المستأصلة في أنفسكم يامعشر اليهود الأشرار، كانت ستدفعكم إلى احتباس خير هذه الخزائن عمّن يستحقون إيصال خيرها إليهم، خشية نفاذها من جرّاء ماتنفقون منها، مُتناسين أنّ خزائن ربّي لاتعرف النّفاذ من جرّاء الإنفاق منها. فهذه خزائن الإله القائل: **﴿وسعت رحمتي كل شيء﴾**.

وبعد أن أمر الله تعالى رسوله أن يقدّم هذه الفرضية التي يستحيل تحققّها على أيدي هؤلاء. أتى جل شأنه بالواو العاطفة وليكتشف عن حقيقة نفوس هؤلاء اليهود، ومن منظار كونه الخبير البصير بحقيقتهم وما انطوت عليه سرائرهم، وأضاف قائلاً: **﴿وكان الإنسان قتوراً﴾**. أي لاتغرّكم يامعشر قريشٍ ظواهر هؤلاء اليهود الذين يؤزونكم ضدّ رسولنا الكريم. لأن البُخل المستأصل في أنفسهم هو الذي يدفعهم لتغطية وتمويه دلائل صدق محمد بن عبد الله الصّادق الأمين هذه الدلائل التي يقدمها في هذا القرآن العظيم. هذا على اعتبار أنّ الألف

واللاّم المعرف بهما كلمة (إنسان) جيء بهما ليشير تعالى بهما وبكلمة (الإنسان) إلى هؤلاء اليهود دارت حولهم مضامين جميع ما أورده الله عزوجلّ حتى الآن من آياتٍ كريمة ضمن سورة الإسراء هذه.

ولم يكتف الله جلّ شأنه بالكشف عمّا استأصل في نفوس هؤلاء اليهود من بُخل، بل راح يقارن بُخلهم المذكور ببُخل نفس فرعون الذي لم تنفعه الآيات التّسع البيّنات التي سبق أن أظهرها الله جلّ شأنه على أيدي موسى، تدليلاً من جانبه تعالى على صدق رسوله موسى الذي هو مرجع هؤلاء اليهود، حيث راح فرعون صاحب هذه النّفس البخيلة يُغشّي مايبديه ربّ موسى من آياتٍ بيّنات، ليُضلّ اتباعه عن سبيل الله عزوجلّ. لذلك يُلاحظ القارئ كيف أنّ الله تعالى أتى بالواو العاطفة وبلام الإبتداء مُدخلاً إيّاها على الحرف (قد) الذي يفيد اليقين، وأضاف يقول:

الآيـــة المـــائـــة وواحـــد

﴿ ولقد آتينا موسى تسعَ آيات بيّنات، فسأل بني اسرائيل إذ جاءهم، فقال له فرعون: إنّي لأظنّك ياموسى مسحوراً ﴾

فأتى جلّ شأنه بالواو العاطفة كما ذكرت، وقال: **﴿ولقد آتينا موسى تسعَ آياتٍ بيّنات﴾**. أي أنّ التوراة المعاصرة التي يؤمن بها هؤلاء الأشرار، عدّدت تسع آيات بيّنات أعطيناها لموسى وأظهرناها على يديه ليبدو من خلالها صدق رسالته وحقيقة صنته بالله عزوجلّ. ولم يكن من المناسب تعداد هذه الآيات التّسع في هذا المقام، ولامن المناسب مقارنة ما أوردته التوراة المعاصرة مع ماقصّه علينا هذا الكتاب العزيز. والسّبب في ذلك أنّ الله عزوجلّ يذكّر اليهود أنفسهم بهذه الآيات التّسع في هذا المقام. وتأكيداً من جانب ربّنا عزوجلّ لهذا الأمر فقد أتى بعد ذلك بفاء الاستئناف وقال مخاطباً قارئ القرآن وقال: **﴿فاسأل بني اسرائيل إذ جاءهم﴾** أي هاكم بني اسرائيل وهؤلاء اليهود خاصة الذين يبخلون فلا يعترفون بما آتاهم محمد الصّادق الأمين من آياتٍ بيّنات، فاسألهم ياقارئ القرآن أينما كنت وفي أي زمن تواجدت فيه. فاسألهم عمّا يخصّ هذه الآيات التّسع البيّنات يوم بعث الله تعالى موسى لإنقاذهم من ظلم فرعون ومن استعباده إيّاهم. فهذا معنى **﴿إذ جاءهم﴾**.

ثم أتى جل شأنه بفاء الاستئناف ثانية وقال: ﴿**فقال له فرعون إنـي لأظنـك ياموسى مسحوراً**﴾ أي أنّ صفة البُخل التي كانت مستأصلة في نفس فرعون، والتي شابهت صفة بُخل هؤلاء اليهود الأشرار وإمساكهم عن البوح بما يرونه من آياتٍ بيّنات يأتيهم بها رسولنا الأمين. إنّ صفة البخل هذه دفعت فرعون من قبل ليجحد بتلك الآيات البيّنات، كما دفعته ليتّهم موسى بنفس مايتّهم به هؤلاء اليهود الأشرار محمداً الصادق الأمين.

من أنّ روحاً خفيّةً مسيطرة على ملكاته العقلية. ففرعون أتّهم موسى بنفس اتّهامهم المذكور ﴿**فقال فرعون إنّي لأظنّك ياموسى مسحوراً**﴾.

فكم هو عظيمٌ هذا الدّرس وكم هي عظيمة موعظته، هذا الدرس الذي ألقاه علينا ربنّا نحن الذين آمنّا بصدق محمد سيد المرسلين (ص) وكُنّا على دينه الإسلامي الحنيف. فهو درس دفعنا الله تعالى به للإيمان بمجدّد أصلاً لمجدّد هذا الزّمان الذي أظهر الله تعالى على يديه عجائب الآيات البيّنات الدّالة على وجود الله الذي بعثه مجدّداً، وأثبت بذلك صدق مابعثه الله تعالى لتحقيقه. وكم هو ممسكٌ وقتورٌ كلّ من وصلته أخبار ذلك المجدّد وأنكره وظلّ بعيداً عن ركابه. فحقيقة البخل تتمثل في الإمساك سواء أأمسك هذا البخيل عن الإحسان مادّياً. وسواءً أمسك هذا البخيل عن الإقرار بما ينزله الله تعالى ويظهره من آياتٍ بيّنات على أيدي مُقَرّبيه من عباده الصالحين.

فهذا درسٌ عظيم وعظةٌ، لاتُنسى لأن الذي ينساها من المؤمنين ولابُدّ أن يؤول حاله، إلى ماآل إليه حال فرعون في حياة موسى، وماسيؤول إليه حال يهود زماننا، إذا ماحلّ أجل نهايتهم الذي لاريب فيه فهو آت.

فلا ينبغي لنا أنّ نظنّ أنّ فرعون لم يُتهم من قبل ربّه عزوجلّ إلاّ بقوله: ﴿**إنـي لأظنـك ياموسى مسحوراً**﴾. بل اتّهمه القرآن الكريم بجملة اتهامات أوردها وفقاً لمناسباتها. ولم يستدع ذكر هذا الإتهام إلاّ سباق الكلام وتسلسله الموضوعي. كذلك لاينبغي لنا الظنّ أنّ مانقله الله جلّ شأنه لنا في هذه الآية الكريمة التي سنتعرّض لشرحها، يشتمل على الجواب الذي أجابه موسى على اتّهام فرعون الآنف الذّكر.

بل ومن مُنطلق أنّ القرارات الإلهية كان يتلقّاها موسى شفهياً، فلم تكن تحملها آيات وحيٍ لفظيٍ على شاكلة الوحي القرآني، بل إنّ ألفاظ الآية التي سنتعرّض لشرحها صاغت القرار الإلهي المُتخّذ بحق فرعون والمنزل شفهياً بأسلوبٍ بلاغي يتبادر للذهن منه أنّه جواب

موسى نفسه على فرعون. لكننّا إذا تدبّرنا الآية حقّ التدبّر، فسنكتشف أنّ الله عزوجلّ يخبرنا بما اتّخذه من قرارٍ بحقّ فرعون وأنّه تعالى يوجز في هذه الآية هذا القرار الإلهيّ، وعلى شاكلة مانقله موسى إلى فرعون أيضاً شفهيّاً، ومُقدّماً ذكر حيثيّات قراره المذكور، فالله عزوجلّ وضّح ماذكرناه وقال:

الآيـــة المـــائـــــة وإثنـــــــان

﴿ قال لقد علمتَ ما أنزل هؤلاء إلاّ ربّ السّموات والأرض، بصائر، وإنّي لأظنّك يافرعون مثبوراً ﴾

والذي يتدبّر ما استُهلت به هذه الآية الكريمة أي (قال لقد) يُدرك صحّة ماذهبت إليه. فلو أنّها تضمّنت جواب موسى على فرعون. لكان ينبغي أن تُستهلّ هذه الآية بالألفاظ التي توحي بذلك كأن تُسهتل بالقول: فأجاب موسى، أو فقال موسى أو ردّ عليه موسى وقال. فما كانت هنالك من ضرورة لإدخال لام الابتداء على الحرف قد. هذه العملية اللغويّة التي تفيد بدء مضمون جديد.

أقول: إنّ الله عزوجلّ لخّص حيثيّات قراره المُتخذّ بحقّ فرعون ضمن الشّطر الأوّل من هذه الآية الكريمة ومن خلال قوله: **﴿قال لقد علمتَ ما أنزل هؤلاء إلاّ ربّ السموات والأرض، بصائر﴾** أي أنّ موسى بلّغ فرعون أنّ ربّه قد أطلعه على أنك يافرعون قد تيقّنت أنه لايُعقل إلا أن يكون الذي فعل ذلك هو ربّ السموات والأرض لهيمنة حكومته على هذه السموات والأرض. خصوصاً وأنّ الله تعالى قد أظهر هذه الآيات لتكون (بصائر) ليهتدي بها من يشاهدها. فكلمة بصائر جمع بصيرة وهي مايَستدِلُّ به الإنسان من خلال محاكمة هذه الأمور في عقله ليستنتج حقيقة ماغاب عن ناظريه وهو ذات الله تعالى الذي أنزل هذه الآيات التّسع البيّنات. (محيط المحيط)

فمن خلال مضمون هذا الشطر الأول من الآية الكريمة تتضّح حيثيّات القرار الإلهي المُتخذّ بحقّ فرعون. والحكمة من تقديم حيثيّات قراره تعالى هنا تقديمه على ذكر القرار نفسه الذي يقوم موسى بتبليغه إلى فرعون، هو شعار القارئ أنّ الله تعالى كان ولايزال لايتّخذ قراراته بشكلٍ اعتباطيٍ بل يتخّذها استناداً إلى حيثيّاتٍ ودواعي تستوجب اتخاذ هذه القرارات الإلهية.

فلمّا فرغ جل شأنه في هذا الشطر من الآية الكريمة من تضمينها حيثيّات قراره بحقّ فرعون، وهو أنّ فرعون بعد أن تيقّن وعرف أنّ الذي انزل هذه الآيات التسع البيّنات لابد إلاّ وأن يكون هو ربّ السموات والأرض، راح فعتّم على هذه الحقيقة التي تيقّنتها نفسه، كما راح يتّهم موسى أنه كان مسحوراً وبعلاقته بالرّوح الخفيّة التي يعتقد بوجودها منجّموه وعرّافوه ومحضّروا الأرواح لديه.

أي أنه تعالى راح بعد عرضه لتلك الحيثيات، فأتى بواو العطف ليعطف على الحيثيّات ماترتّب عليها من قرارٍ إلهي اتّخذه بحقّ فرعون، وأضاف يقول: ﴿**وإني لأظنُّك يافرعون مثبوراً**﴾. وقد أتى هنا بأن للتوكيد. كما أتى جلّ شأنه بلام التبليغ التي تجلب نظر السّامع إلى ماوراءها من قرارٍ مُتخذٍ بحقّ فرعون ويقوم موسى بتبليغ فرعون إيّاه. فأدخل لام التبليغ هذه على الفعل (أظنك) المشتقّ من ظنّ أي علم واستيقن في هذا المقام (محيط المحيط) وليصبح الفعل (لأظنُّك) يافرعون. أي أنّك قد علمت بالقرار المُتخّذ بحقّك من قبل ربك وبلغت في علمه حق اليقين فاستيقنت أنّه صادر عن ربّ السموات والأرض، ثم أتى جل شأنه بعد قوله هذا بالكلمة المتضمنّة هذا القرار الإلهي المذكور وهي (مثبوراً) والتي تعني هالكاً على حسب ماوضحّه الزّجاج. كما تعني الملعون المحبوس عن الخير على رأي الفرّاء. والثّبور لغة هو الهلاك كما أورده صاحب (محيط المحيط).

وبألفاظ أخرى فإن من خلال دلالات كلمة (مثبوراً) اتّضحت معالم القرار الإلهي المُتخذ بحق فرعون هذا القرار الذي راح موسى فبلّغه إلى فرعون بقوله: ﴿**وإنّي لأظنّك يافرعون مثبوراً**﴾. الأمر الذي يكشف لنا عظمة صياغة ماذكرناه فكلام الله تعالى صيغ بمنتهى البلاغة والإعجاز في دلالةً، وبمنتهى الإيجاز في صيّاغةً أيضاً.

ولم يكتف الله جل شأنه بتذكير اليهود الأشرار بما فعله فرعون، وبالقرار الذي اتخذه ربُّهم من جراء ذلك قراراً لإهلاكه. بل راح الله تعالى ينبّه هؤلاء اليهود إلى واسع رحمته التي تقتضي دوماً ألاّ يُقدِمْ الله تعالى على تنفيذ مُقرّراته فوراً. فها هو جل شأنه ترك فرعون، بعد أن بلّغه قراره بشأن إهلاكه تركه لينظر هل يتعّظ بقرار ربّه فيهتدي، أم يستمرّ في طغيانه، فيأمر ربه بإهلاكه. وحكمه هذا البيان هنا ولتنبيه أذهان اليهود إلى أنهم إن لم يتعّظوا بحال فرعون، فلابدّ أن يهلكهم الله تعالى إذا ماحلّ الأجل الذي لاريب فيه كما أهلك فرعون من قبل، لذلك أتى جل شأنه بفاء الاستئناف، ليستأنف كلامه المتعلّق بالحلقة الأخيرة من حياة

فرعون وقال:

الآيـــة المـــائـــة وثـــلاثـــة
﴿ فأراد أن يستفزَهم من الأرض، فأغرقناه ومن معه جميعاً ﴾

فأتى جل شأنه بفاء الاستئناف، مستأنفاً ماشاء بيانه، كما أتى بفعل أراد بمعنى شاء، وبالحرف (أنْ) المصدريّ وهو الحرف الذي يُؤتى به بعد فعلٍ دالٍ على غير اليقين، وهو هنا فعل أراد، وليصبح الفعل منصوباً بأن، وفي موضع رفع. كذلك أتى جل شأنه بفعل (يستفزّهم) المنصوب بأن، والمشتق من استفزّ فلاناً أي أزعجه وأخرجه من داره. وقال (من الأرض) أي أن فرعون راح يستفزّ موسى وقومه، ويسعى لطردهم من الأرض التي كان الفرعون السّابق اقتطعها لهم أيّام يوسف عليه السّلام. فقد كانت قريبة من قصر فرعون على شكل مستعمرة أخافت فرعون على نفسه من وجودها بمقربةٍ من قصره. وهذا الأمر وضّحته التوراة المعاصرة في سفر التكوين الاصحاح ٥/٤٧ الذي جاء فيه: (فكلّم فرعونُ يوسفَ قائلاً: أبوك وإخوتُك جاؤوا إليك. أرض مصر قُدّامك. في أفضل الأرض أَسْكِن أباك وإخوتك. ليسكنوا في أرض جاسان ـ وهي الأرض المجاورة لقصر رعمسيس.. فأسكَنَ يوسف أباه وإخوته، وأعطاهم مُلكاً في أرض مصر، في أفضل الآرض، في أرض رعمسيس، كما أمر فرعون ١١/٤٧).

ومن ثمّ أتى جلّ شأنه بفاء الاستئناف من جديد، مستأنفاً وقال: **﴿فأراد أن يستفزّهم من الأرض﴾** أي أنّ فرعون لم يرتدع بعد سماعه القرار الإلهي الصادر بحقّه، والذي بلّغه إيّاه موسى عليه السلام والمتعلّق بمآله ومصيره. وشاء فرعون أن يزعج موسى وقومه ويطردهم من أرضهم المُقتطعة لهم منذ أيّام جدّهم يوسف عليه السلام، ويبعدهم بذلك عن قصره.

ثم أتى جلّ شأنه بفاء الاستئناف ثانيةً، واستأنف كلامه وقال: **﴿فأغرقناه ومن معه جميعاً﴾**. فأشار جلّ شانه بذلك إلى أنّه نفّذ حينذاك قراره المُتخّذ بحق فرعون والمؤجّل لرؤية تأثير القرار على فرعون، وقال **﴿فأغرقناه﴾** أي أننّا جعلناه يغرق ومن معه جميعاً عند لحاقه بموسى وقومه الفاريّن من ظلمه إلى أرض كنعان، نزولاً عند أمر ربّهم عزوجلّ. فلم نترك لفرعون ومن معه سنحةً للنّجاة من الغرق في مياه البحر المُتاخم لأرض سيناء، والفاصل بين مصر وسيناء. فقد أوردت التوراة المعاصرة هذه النهاية التي آل فرعون وجنوده إليها في سفر الخروج ١٩/١٥ حيث جاء فيه: (فإنّ خَيْلَ فرعون دخلت بمركباته وفُرسانه إلى البحر. وردّ

الرّبُ عليهم ماءَ البحر. وأمّا بنوا اسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر. فأخذت مريمُ البنيّة أختُ هارون الدّف بيدها. وخرجت جميع النّساء وراءها بدفوفٍ ورقص. وخاطبتهم مريم: رنّموا للرّب، فإنّه قد تعظّم. الفرس وراكبه طرحهما الرّب في البحر. ثم ارتحل موسى باسرائيل من بحر سوف وخرجوا إلى بريّة شور).. وهي أرض سيناء. راجع المخطّط الملحق بالكتاب المقدس المطبوع في بيروت عام ١٩٨٩م.

فإلى هنا يكون الله جلّ جلاله قد قارن موقف اليهود الذي وقفوه من محمدٍ (ص) حين راجوا يستفزّونه في مكّة المكرمة ويدفعون أهلها ليطردوه من داره التي كان فيها.

فقد قارن تعالى موقفهم المذكور بموقف فرعون الذي راح يستفزّ موسى وقومه بعد أن بلّغه موسى قرار ربّه المُتخذّ بحقه. كذلك يكون تعالى قد وضّح أوجه الشبّه مابين قراريه بحق فرعون وبحقّ هؤلاء اليهود الأشرار. كذلك يكون تعالى قد وضّح للقارئ كيف أن هذين الفريقين فرعون وهؤلاء اليهود، لم يردعهما ما اتّخذه الله تعالى بشأن مآلهم وعاقبتهم من قرارات. ولمّا كانت هذه المعلومات جميعها مجتمعةً تدفع القارئ ليتساءل عن هذا المآل والمصير المحتوم المقرّر للقضاء على هؤلاء اليهود وعن موعده.

فقد أخذ جلّ شأنه التساؤل المذكور لهذا القارئ بعين اعتباره في هذا المقام، فأتى بالواو العاطفة، وأضاف يقول وبأسلوب جذّاب وبليغ:

الآيــة المــائــة وأربعــة

﴿ وقلنا من بعده لبني اسرائيل اسكنوا الأرض، فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً ﴾

أي ليعلم هذا القارئ أننا بعد أن أغرقنا فرعون ومن كان معه، وبعد أن نجّينا موسى ومن كان معه واحتضنتهم أرض سيناء **﴿قلنا من بعده لبني اسرائيل﴾** أي أننا توجّهنا من بعد هذه الأحداث كلّها بتفضُّلاتنا نحو بني إسرائيل فأمرناهم أن **﴿اسكنوا الأرض﴾** أي توجّهوا نحو الأرض كنعان التي كنّا وعدنا نبيّنا موسى بها وعداً مشروطاً بالعمل على أوامري واحكامي، فاستوطنوها وأقيموا بها. ففعل اسكنوا من سَكَنَ الأرض استوطنها وأقام فيها (محيط المحيط).

وبعد أن أوجز الله تعالى ماحدث لبني اسرائيل بعد غرق فرعون ومن معه، أقول أوجز تعالى حلقات تاريخهم المذكور غاية الإيجاز، متجّنبا الدّخول في أيـّة تفاصيل. ومن مُنطلق أنّ الله تعالى اكتفى بما أورده من تاريخهم حتى تلك اللحظات فيما سبق من آيات. أتى جل شأنه بفاء الإستئناف ليستأنف كلامه فقط عن الحلقة الأخيرة من تاريخ بني اسرائيل، والمرتبطة بالسؤال المُفترض موضوعيّاً، وقال: ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة**﴾ فأتى في هذه الفقرة بالظرف (إذا) المتضمن معنى الشرط والدّال على المستقبل والمختصّ بالدخول على الجملة الفعلية، (محيط المحيط). كما أتى بكلمتي (وعد الآخرة) علماً بأنّ كلمة الوعد يستعمل في الخير والشرّ. وكلمة الآخرة مُؤنّث الآخر ويستعمل في مقابل الأوّل، وخصوصاً الأشدّ تأخُّراً بالذكر. كما أنّ مدلول الآخر لغةً يختصّ بجنس ماتقدّمه (محيط المحيط). ويصبح المقصود من (وعد الآخرة) هنا هو الوعيد الذي توعّد به الله تعالى اليهود بمايتعلّق بآخر حلقة آتية من حلقات تاريخهم وفي مقابل مامضى من حلقات تاريخهم المذكور والذي اختصرها الله تعالى وكان أشار إليها بقوله تعالى: ﴿**وقلنا من بعده لبني اسرائيل اسكنوا الأرض**﴾ وكان قد أورد سابقاً تفصيلاتها فيما مضى من حلقات. وبهذا الأسلوب الجذّاب والبليغ المعجز وجه الله تعالى ذهن السّائل إلى ما ستكون عليه آخر حلقة من حلقات التاريخ اليهودي حين يُنزل بهم ماأنزله من عذاب على فرعون ومن كان معه. فيقضي عليهم نهائياً ويزيلهم من على سطح هذا الكوكب الأرضي.

وأرى من المناسب، قبل التّوسع في الشرح أن أورد هنا مافهمه المفسرون القدماء رحمهم الله تعالى من مضمون هذه الآية الكريمة. فقد قال الفخر الرازي في تفسيره الكبير المجلد الحادي عشر صفحة٦٦ مايلي: (أراد فرعون أن يخرج موسى من أرض مصر، لتخلُص له تلك البلاد. والله تعالى أهلك فرعون، وجعل مُلك مصر خالصة لموسى ولقومه، وقال لبني اسرائيل اسكنوا الأرض خالصةً لكم خاليةً من عدوّكم. قال تعالى: ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة**﴾ يريد القيامة.

﴿**جئنا بكم لفيفاً**﴾ من هاهنا وهاهنا. واللّفيف الجمع العظيم من أخلاطٍ شتّى من الشّريف والدّنيء والمطيع والعاصي والقوي والضّعيف. وكلُّ شيء خلطته بشيءٍ آخر فقد لففته ومنه قيل لفقت الجيوش إذا ضربت بعضها ببعض. وقوله التفّت الزّحوف. ومنه: ﴿**التفّت السّاق بالسّاق**﴾ والمعنى جئنا بكم من قبوركم إلى المحشر أخلاطاً. يعني جميع الخلق: المسلم والكافر والبرّ والفاجر).

فهذا هو ما أورده الفخر الرّازي في تفسيره المذكور. أما ابن كثير فقد أورد في تفسيره مايلي: (﴿**وقلنا من بعده لبني اسرائيل اسكنوا الأرض، فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً**﴾ أي جميعكم أنتم وعدّوكم. قال ابن عباس ومجاهد وقتاده والضّحاك: لفيفاً أي جميعاً). و لم يزد ابن كثير على هذه الأقوال ضمن تفسيره أي قولٍ آخر.

أقول إنّ الرازي رحمه الله تعالى بالرغم من سعة تفسيره وعلمه فهو قد أخطأ أولاً حين قال: (وجُعل مُلْكُ مصر خالصةً لموسى وقومه. وقال لبني اسرائيل اسكنوا الأرض خالصةً لكم خاليةً من عدّوكم). فلو صحّ قوله هذا لكان من واجب موسى أن يعود بمن معه إلى مصر بعد أن أغرق الله تعالى فرعون ومن معه ليقطنوها خالصةً لهم خاليةً من عدّوهم، على حسب ماقال:

ثانياً ـ وأخطأ الرازي خطأ ثانياً حين كتب يفسّر قوله تعالى: ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة**﴾ أنه جلّ شأنه يريد يوم القيامة. فلا يصحّ إطلاق كلمتي (وعد الآخرة) لغةً على يوم القيامة.

ثالثاً ـ وأخطأ الرازي خطأً ثالثاً حين فسّر قوله تعالى: ﴿**جئنا بكم لفيفاً**﴾ أي جئنا بكم من هاهنا وهاهنا على اعتبار أن معنى اللّفيف هو الجمع العظيم من أخلاطٍ شتّى: من الشريف والدنيء والمطيع والعاصي والقوي والضعيف). والمعنى الأصحّ لكلمة (لفيفاً) هو ماوضّحه صاحب محيط المحيط، وهو مااجتمع من الناس من قبائل شتّى، أي ما اجتمع من الناس من جنسيّاتٍ مختلفة.

أمّا ابن كثير رحمه الله فلم ألاحظ أنّه أصاب في أيّ شيء أورده في تفسيره فيما يتعلق بقوله تعالى: ﴿**وقلنا من بعده لبني اسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً**﴾.

أعود إلى تفسير الآية وأقول لامحلّ في هذه الآية الكريمة للكلام عن يوم القيامة لأكثر من سبب :

السبب الأول من هذه الأسباب ماوضحته في سباق هذه الآية الكريمة ، وهو أنّ الله عزوجلّ راح في هذه الآية الكريمة ينبئ عن الحلقة الأخيرة من تاريخ بني اسرائيل، المتعلقة بمصيرهم المشابه لمصير فرعون المشؤوم.

والسّبب الثاني هو أن (وعد الآخرة) مُصطلح قرآني يتضمّن الإشارة إلى البعثة الثانية للإسلام. أفلم نقرأ قوله تعالى في سورة الضّحى: ﴿**وللآخرة خيرٌ لك من الأولى**.﴾؟ فكلمة الآخرة استعملت في مقابل الأولى التي هي بعثته الأولى أي بعثة الإسلام الأولى.

فالمقصود بلفظ الآخرة في هذه الآية الكريمة الإشارة إلى بعثةٍ إسلامية آخرة يوم يتخلّف المسلمون، ويضيّعون وحدتهم، الفكرية والسّياسية، وتُهيمن عليهم أمم المسيح الدّجال خلال نهضة العالم المسيحي الأخيرة التي أنبأت عنها سورة الكهف كما هو وارد في تفسير (في ظلال دلالات سورة الكهف) وليس ماذهب إليه ذهن العلامة الرازي رحمه الله من أنّه (يوم القيامة).

فكلمة وعدٌ المذكور على حسب ماوضّحه (محيط المحيط) تستعمل للخير والشرّ. فهي وردت هنا بمعنى الشرّ أي (وعيد الآخرة) أي الوعيد الإلهي الذي توعّد به الله عزّ وجل اليهود به وهو الوعيد الذي سيتحقق ليتحقّق زمن البعثة الثانية للإسلام وليس المقصود بلفظ الآخرة هنا يوم القيامة .

والسّبب الثالث أن اليهود سيكونون شتاتاً موزّعين على مختلف أقطار العالم عند ظهور المجدّد المُقدّر على أيديه قيام بعثة الإسلام الثانية. فالله عزوجلّ حين قال هنا مخاطباً هؤلاء اليهود الأشرار ﴿**حتى إذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً**﴾ أراد أنه سيجمع اليهود عند حلول الأجل الذي لاريب فيه والمتعلّق بمصير اليهود الأخير زمن قيام بعثة الإسلام الثانية، سيجمعهم من مختلف أقطار العالم (لفيفاً) أي من جنسياتٍ مختلفة وقبائل شتى أي من نسل الأسباط الاسرائيلية الشّتات التي انتشرت في مختلف دول العالم سابقاً.

وعليه، فمادام جلّ شأنه قد تكلّم في الآية (٩٧) عن العقاب الأخروي الذي أعدّه لهؤلاء اليهود، حيث قال هناك: ﴿**ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عُمياً وبُكماً وصُمّاً، مأواهم جهنّم، كُلمّا خبت زدناهم سعيراً**﴾. فهذه قرينة تمنع الأخذ بمعنى يوم القيامة تفسيراً لوعد الآخرة.

ثم إننا لاحظنا كيف أنّ الله تعالى وفي الآية (٩٩) كان قدّم لهؤلاء اليهود دليلاً مستقبلياً محسوساً من خلال قوله تعالى: ﴿**وجعل لهم أجلاً لاريب فيه**﴾، وهذا الأجل بحاجةٍ إلى تعيين زمانه. فقد لاحظنا كيف حدّد جل شأنه زمنه هنا واصطلح له ﴿**وعد الآخرة**﴾ لارتباط نهاية اليهود ببعثة الإسلام الثانية التي تتحقّق على أيدي المجدد ذو القرنين كما هو واضح من سورة الكهف.

واستناداً إلى جميع ماوضحته أقول والأسف يعتصر فؤادي، إنّ قولـه تعـالى: ﴿**فـإذا جـاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً**﴾ قد تضمـّن هـذا الوحـي الإلهـي الإنبـاء عمـّا يجـري في القـرن العشرين بالذات. فها أنّ أمم المسيح الدّجال والمقصود بها أمم الغرب وأمريكا التي هيمنت على العالم، ها قد ساعدت شتات اليهود المجموعين من جنسـياتٍ مختلفـة علـى العـودة إلى فلسـطين العربية أصلاً وبمعونةٍ من وعد بلفور وغيره. فتحقـّق بذلك صدق ما أنبأنا الله تعالى عنه في هـذا الشطر من الآية وهو قوله تعالى: ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً**﴾.

ولربّ سائلٍ يسألني: وكيف غابت هذه الحقيقة عن أفهام المسـلمين المعـاصرين؟ فأجيبـه وأقول له : قد غابت هذه الحقيقة عن أذهان هؤلاء المسلمين المعاصرين لسببين رئيسيّين: السبب الأوّل أنـّهم اتـّكلوا منذ قرون على هذه التفاسير التي هي بين أيديهـم، وأنتـم لابـد تبينتم تلك الأخطاء التي وقع فيها المفسرون السابقون رحمهم الله تعالى في هذا المجال.

والسّبب الثاني هو أنّ المسلمين بعد أن انتشرت جيوشهم هنا وهناك، واستتبّ لهم الأمـر في كل مكانٍ بلغوه. خلف من بعدهم خلف فرّطوا في أمر ماتوارثوه. وخصوصـاً مـايتعلق بـأمر اليهود الذين حذّرهم منه كتاب الله العزيز. وبشأن أرض كنعان على وجه الخصوص.

فلو أننـّا استعرضنا كتاب الصّلح الذي كتبه الخليفة الرّاشد عمر بن الخطـاب رضـي الله عنه يوم تحقـّق على أيديه فتـح مدينـة القـدس. وهـو الكتـاب المشـهور تاريخيـّاً، بكتـاب صلـح (إيلياء) أي القدس. هذا الكتاب الذي قطعه عمر بن الخطاب للبطريرك صفرونيوس الذي كـان بطريقاً للقدس في التاريخ المذكور. فلو أننا استعرضنا محتويات كتاب الصلح المذكـور. للاحظنـا أنّ عمر بن الخطاب اشترط فيه قائلاً: (ولايسكن بإيلياء معهم أحدٌ من اليهود) (والمرجع في هذا النصّ كتاب «الطريق إلى دمشق» (فتح بلاد الشام) للمؤلـّف أحمد عال كمال. صـادر عـن دار النـّفائس بيروت).

فلولا أن كان الصّحابي عمر بن الخطاب يفهم مافهمته أنا من مضامين ودلالات سورة الكهف، فما كان له من مبـّررٍ أن يشترط في كتاب الصّلح المذكـور (ولايسكن بإيليـاء معهـم أحدٌ من اليهود). لكنّ الأمر المؤسف هو أن العـرب المسـلمين تناسـوا هـذا الشـرط مـع الأيـّام وتركوا اليهود يتسللّون بعد ذلك إلى القـدس وأرض كنعـان واحـداً بعـد الآخـر، إلى أن عـادوا فأوجدوا موطئ قدمٍ لهم فيها. ومن ثـم ظهـر المسيح الدّجـال وهـي هـذه الأمـم الغربيـة الذيـن واستعمروا فلسطين وقاموا بدعم هجرة اليهود غـير الشـرعية إلى فلسـطين فـأدخلوا مـايزيد عـن

السبعين ألفاً من المهاجرين اليهود غير الشرعيّين وتحقّق بذلك حديث رسول الله (ص) من أنّ المسيح الدّجال يأتي معه بسبعين ألف من اليهود. وكان ماكان.

والأمر المبشِّر فيما جرى هو أنّ الله تعالى علاّم الغيوب، لم يتنبّأ إعادة هؤلاء اليهود لفيفاً من أجل سواد أعينهم على حسب القول السّائر. بل إنه تعالى أنبأ عن جمع هؤلاء اليهود في سياق إنبائه عن مصيرهم المأساويّ الذي سيصيرون إليه. وهو عمليّة القضاء عليهم إذا ماوقعت " الواقعة " التي ليس لوقعتها كاذبة. ﴿**خافضةٌ رافعة**﴾، وهي نبوءات آيات سورة الواقعة المنزلة في مكّة أيضاً، وليرجع إلى التفصيلات من يشاء في (فن الاختزال ص٢١٦).

وزبدة الكلام هو أنّ مضمون الآية هذه: ﴿**وقلنا من بعده لبني اسرائيل اسكنوا الأرض، فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً**﴾.. هذا المضمون قد ربط مابين النّهاية التي آل إليها فرعون ومن معه ومابين النهاية التي سيؤول إليها هؤلاء اليهود الأشرار، ربطاً موضوعياً وبأسلوبٍ بلاغيٍ معجزٍ يخلب الألباب.

ولنلاحظ أنّه تعالى راح بعد ذلك يؤكّد أنّ (وعد الآخرة) سيتحقق في المستقبل، والمتعلّق بالأجل المغروب للقضاء على اليهود، والذي لاريب فيه. فهو تعالى أضاف يقول:

الآية المائة وخمسة

﴿ **وبالحقّ أنزلناه، وبالحقّ نزل، وما أرسلناك إلاّ مبشّراً ونذيراً** ﴾

فأتى جلّ شأنه بالواو العاطفة ليعطف مضمون الآية على (وعد الآخرة). كما أتى بباء الاستعانة وأدخلها على كلمة (الحق) مـُعرّفة بالألف واللاّم العهديتّين، إشارةً إلى أنّ وعد الآخرة هو وعدٌ وحقّ. أي أنّ حكم القرار الذي تضمّنه وعد الآخرة يُطابق واقع هؤلاء اليهود، وهو عدلٌ وأمرٌ مقضيٌّ لامحاله. كذلك أتى تعالى بفعل (أنزلناه)، الضمير فيه يرجع أيضاً إلى وعد الآخرة المذكور. ويصبح معنى: ﴿**وبالحقّ أنزلناه**﴾ أنّ قرار وعد الآخرة المذكور اتّخذناه مطابقاً لواقع هؤلاء اليهود، وعادل وثابتٌ لارجعة عنه.

ثم أتى جل شأنه بالواو العاطفة ليضيف قائلاً: ﴿**وبالحقّ نزل**﴾ أي أنـّه قرار حقّ هذا القرار الذي اتخذناه بحق اليهود الأشرار والذي تضمّنه كتاب الله العزيز فنحن لم نبلّغ محمداً قرارنا المذكور بطريقٍ شفهيٍ، على شاكله مافعلناه مع نبيّنا موسى من قبل بل أنزلنا قرارنا المذكور بالحقّ ضمن آيات هذا الكتاب العزيز.

ثم أتى جل شأنه بالواو العاطفة للمرة الثالثة، وليبرّر الله تعالى ماذكره وقرره بحقّ هؤلاء اليهود والأشرار فأضاف قائلاً: ﴿**وما أرسلناك إلا مبشّراً ونذيراً**﴾. أي أنّ هذا الاختلاف في أسلوب تبليغ القرار الإلهي حدث بسبب أننّا لم نـُنزل على نبيّنا موسى كتاباً لفظيّاً، بل كلّمناه تكليماً. على حين أننّا أنزلنا على خاتم النبيّين كتاباً جميع ماتضمّنه أنزلناه لفظاً ومعنى. ذلك لأن من مهمّة خاتم النبيّين أننّا أرسلناه للنّاس كافة مبشّراً المؤمنين ومنذراً كلّ من يكفر من اليهود والمسيحيين وغيرهم بما أنزلنا على رسولنا محمد (ص) من أحكام وتعاليم ومبشّرات وانذارات.

وليست هذه هي حدود رسالة محمد سيّد المرسلين (ص)، بل وله مهمةٌ أخرى عبّر عنها جل شأنه وأضاف قائلاً:

الآيــة المــائـــة وســتــة
﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على النّاس على مُكثٍ، ونزّلناه تنزيلاً ﴾

فأتى جلّ شأنه بالواو العاطفة ليعطف هذه المهمّة الأساسية الأخرى على الأولى. ثم أتى جلّ شأنه بكلمة (قرآناً) المشتق من قرأ الكتاب قرآنا: إذا تلاه. والقرآن مصدر قرأ، وسُمّيّ بهذا الإسم لكونه مقروء آناء اللّيل وأطراف النّهار. وهو على وزن فَعْلان الدّال على سعة عطائه، فهو بحرٌ من العلوم والمعارف والأحكام. كذلك لكلمة قرآن اشتقاقٌ آخر من القرء أي الجمع. لأنّه كتاب جمع مابين أكثر من مائة سورة. ثم إن قوله تعالى (فرقناه) فمن فرق بينهما أي فصل بعضهما عن بعض. وذلك شبيه قوله تعالى في الآية (٥٠) من سورة البقرة: ﴿**وإذ فرقنا بكم البحر..**﴾ أي فصلنا بعضه عن بعض بخاصيّة الجذر القمرية، ثم أتى جل شأنه بلام التعليل مُدخلاً إيّاها على فعل (تقرأ) وأصبح (لتقرأه على الناس) أي لتُبلّغه إلى الناس (فتقرأه) مشتقّه من: اقرأ عليه سلامي أي بلغه إيّاه. ثم أتى بكلمة (مُكثٍ) من مكث أي لبث ورزُن وانتظر فلم يُعجّل.

وعليه يصبح معنى قوله تعالى: ﴿**وقرآناً فرقناه لتقرأ على النّاس على مُكثٍ**﴾. أي أننّا لم نُنزل هذا القرآن دفعة واحدة، بل نزّلناه مُنجماً مُنفصلاً بعضه عن بعض وبترتيب نزولٍ مغايرٍ لترتيب تلاوته. فلقد فعلنا ذلك لنُمكّنك يامحمد من أن ﴿**تقرأه على الناس على**

مُكث﴾ أي لتُبلّغ ماننُزله عليك من وحي على مُكثٍ ودون تعجّل، فيعين ذلك على كلّ مؤمن حفظه وعلى تدبُّر معانيه، إضافةً إلى مُعالجة ماتواجهه من حاجاتٍ طارئةٍ، وهذا هو معنى **﴿ونزّلناه تنزيلاً﴾**. وهكذا يكون الله تعالى قد وضّح لنا حكمة إنزال كتابه العزيز، الذي استغرق إنزاله ثلاث وعشرين عاماً.

ألا إنّ الله عزوجلّ أنهى عند هذه الآية الكريمة ماحاول أن يوضّحه بما يتعلّق بتاريخ بني إسرائيل ومصيرهم القادم المشؤوم. وما استلزم ذلك من تقديم دلائل وبيّنات تثبت بُطلان مزاعم اليهود وصدق محمد رسول الله وصدق نبوّته، وصدق ما أنزله الله تعالى عليه من وحيٍ قرآني. كذلك كشف جلّ شأنه عن خبايا نفوس هؤلاء اليهود وعمّا كانوا يمكرونه ويحرّضون عليه فحدّد بالتّالي مصيرهم الجهنّمي. ووعد بإهلاكهم والقضاء عليهم زمن بعثة الإسلام الثانية، وبعد جمعه إياهم لفيفاً في فلسطين. فلما أنهى الله تعالى ذلك كلّه بإلقاء حجّته القاطعة على بني إسرائيل توجّه بخطابه نحو رسوله الكريم آمراً:

الآيـة المـائـة وسـبعـة

﴿ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا، إنّ الذين أوتوا العلم من قبله إذا يُتلى عليهم يخرّون للأذقان سُجداً ﴾

أي بلّغ يامحمد بني إسرائيل الأشرار أن: **﴿آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾**. أي أنّ الله ربّي لايكُره أحداً على الإيمان به وبرسله وبكتبه وباليوم الآخر، فأنتم أحرار **﴿آمنوا بهذا القرآن أو لاتؤمنوا﴾**، فشأن هذا الأمر مرتبطٌ بمشيئتكم. لكن ينبغي أن تضعوا في حُسبانكم **﴿أنّ الذين أوتوا العلم من قبله﴾** وفي هذا إشارة إلى المؤمنين من أصحاب محمد رسول الله (ص) أولئك الذين اهتدوا بهَدي هذا الوحي القرآني، وأمسوا على يقين من صدقه وصدق محمد الذي أُنزل عليه، وحصدوا من ثمار هدايته حتى عاد يقينهم جازماً عن تجربة مع ربهم وتعامل. فضعوا في حسبانكم يابني اسرائيل أنّ هؤلاء الذين آمنوا وأوتوا اليقين الجازم بصدقه من قبل أن تتخذ بحقكم قرار وعد الآخرة الشّديد العقاب: **﴿إذا يُتلى عليهم يخرّون للأذقان سُجداً﴾**. أي أنّ هؤلاء إذا ماسعوا وعلموا بقرارنا هذا الذي اتّخذناه بحقكّم، لن يقفوا موقف اللاّ مبالاة الذي تقفونه. بل إنّ يقينهم بعلمنا اللا محدود وبقدراتنا التي لاتعرف الحدود، يؤثّر عليهم بتأثيرٍ ايجابيّ مختلفٍ عن موقفكم السّلبي، خصوصاً وأنهم تيقنّوا أننّا إذا أردنا شيئاً فنقول له كن فيكون.

وقد راح تعالى يصوّر هذا الأثر الإيجابيّ الذي يبدو على وجوه المؤمنين فصوّره بأسلوبٍ الاستعارة والكناية وقال: ﴿**يخرّون للأذقان سُجدّاً**﴾. ففعل ﴿**يخرّون**﴾ من خرّ لله ساجداً أي انكبّ على الأرض. واللام في (للأذقان) هي لام الانتهاء. والأذقان جمع ذقن. فالجبهة للسجود، ولاتمس ذقن المصلي الأرض حين يكون ساجداً.

فلو قال تعالى هنا ﴿**يخرّون ساجدين**﴾ لكنت أخذت بالمعنى المتبادر للذهن من قوله ﴿**يخرّون للأذقان**﴾ فهذا الأمر يشكّل قرينةً تؤكد أن ألفاظ (يخرّون للأذقان) قد استعملت كناية عن شديد الرعشة التي تملكت المؤمنين لسماع قرار وعد الآخرة المذكور.

فالله جلّ شأنه شاء أن يصوّر لبني اسرائيل نهايتهم بأسلوبٍ تصويريّ لعلّه يحرّك فيهم مشاعرهم، وإظهاراً من جانبه تعالى لواسع وعظمة رحمته بعباده والتي وسعت كل شيء.

والمؤسف أنّ المفسرين القدماء رحمهم الله تعالى والرازي منهم خاصة أورد في تفسيره الكبير ج١١ ص٦٩ أن الذين أوتوا العلم، المقصود بهم (هم أناسٌ من أهل الكتاب، حين سمعوا ماأُنزل على محمد (ص)، خرّوا سُجَّدوا. منهم زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وعبد الله بن سلام). فالذّي يخطّئ قوله هذا أنّ ورقة بن نوفل لم تكتب له الحياة حتى زمن نزول سورة الإسراء هذه.

ثم إنّ مايدحض ماذهب إليه ما أورده الرازي من قوله الذي نقلته آنفاً. هو ماتضمنّه قوله تعالى في الآية التي تلت هذه الآية الكريمة فالله جلّ شأنه أضاف يقول:

الآية المائة وثمانية

﴿ ويقولون سبحان ربّنا إن كان وعد ربّنا لمفعولاً ﴾

أي ويقول هؤلاء المتيّقنون بمدى سعة علم الله الغيبيّ وعظيم قُدُراته ﴿**سبحان ربّنا**﴾ أي أنّ ربّنا عزوجلّ تنزّه عن أن يُخلف الميعاد. ﴿**إنْ كان وعْدُ ربّنا لمفعولا**﴾.

فهو جلّ شأنه أتى في هذه الفقرة الأخيرة من الآية الكريمة بحرف (إنْ) المستعمل للتأكيد ولغير المستقبل قياساً لاقترانه بفعل (كان). كما أتى جل شأنه بكلمة (وعد) المعبّر به عن قرار وعد الآخرة هذا الوعيد المتعلّق بمصير بني اسرائيل. كذلك أتى بلام التّبليغ ليجرّ بها مسامع هؤلاء اليهود مُدخلاً إياها على اسم المفعول في (لمفعولا). وليصبح معنى قوله تعالى ﴿**إنْ كان**

وعْد ربّنا لمفعولاً﴾ أنّ زمرة المؤمنين من أصحاب محمد (ص) أمسوا على يقين جازم بالمصير الذي سيصير إليه بنو اسرائيل في نهاية المطاف إثر بعثة الإسلام الثانية.

ثمّ إنّه عندما يحلّ زمن بعثة الإسلام الثانية، ويكون اليهود قد عادوا إلى فلسطين بمعونة أمم المسيح الدّجال على حسب ماوضّحته أحاديث رسول الله (ص)، فالسؤال المطروح هنا: ماذا يتوجّبُ على هؤلاء المؤمنين من ثُلّة الآخرين المنبأ عن ظهورهم في سورة الجمعة: **﴿وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم﴾**.. ماذا يتوجّب عليهم أن يقوموا به تجاه المتغيّرات التي يعاصرونها؟ وقد راح جلّ شأنه يهديهم السّبيل ويقول بحقّهم:

الآيــة المــائــة وتســعــة
﴿ ويخرّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ﴾

فهو تعالى أجاب على هذا السؤال الطّارئ، فأتى جل شأنه بالواو العاطفة ليعطف مايتوجّب على المؤمنين فعله من ثلّة مؤمني البعثة الثانية للإسلام، وزيادةً عمّا كان فعلته ثلّة مؤمني البعثة الإسلامية الأولى، فأضاف يقول: **﴿ويخرّون للأذقان يبكون﴾** أي لايرتعشون لسماع قرار وعد الآخرة وحسب، بل سيزيدون على ذلك أنّهم (يبكون) أي يتملّكهم الفرح والسّعادة، فتسيل أدمع فرحهم على جذورهم ، مُتيقّنين أنّ ربّهم الذي حقق الشطر الأوّل من وعد الآخرة وجمع اليهود في فلسطين لفيفاً، لابدّ أن يكون قد جمعهم ليقضي عليهم نهائياً، ويحقّق بذلك عمّا قريب الشطر الثاني من وعد الآخرة المذكور.

ثم أتى جل شأنه بالواو العاطفة ليضيف قائلاً: **﴿ويزيدهم خشوعاً﴾**. أي أنّ فرحتهم هذه ستزيد من اطمئنان أفئدتهم لمستقبل الإسلام، فتزيدهم تذلّلاً في سجودهم بين يدي ربّهم عزوجلّ، وتشوُّقاً إلى رؤية وحضور زمن هذا الأجل الذي لاريب فيه.

و لم يكتف الله جل شأنه بإجابته المذكورة، بل وراح يُعلّم مؤمني البعثة الثانية للإسلام الأسلوب والطريقة التي ينبغي عليهم اتّباعها خلال دعائهم للتّعجيل بتحقّق الأجل الذي لاريب فيه. وعلى شاكلة مافعله مع رسوله الكريم بعد أن أنبأه عن فتح مكّة. فقد أمره أن يقوم بتأدية نافلة اللّيل يدعو ربّه فيها ليعجلّ بتحقيق مابشّره به. ومن مُنطلق مانبّه جل شانه إليه في قوله: **﴿مايعبأ بكم ربّي لولا دعاؤكم﴾**. من منطلق مشابهة قوانين الدعاء، مع قوانين النظام المائي الطبيعيّ.

أقول راح تعالى يعلّم هؤلاء المؤمنين من ثلّة الآخرين طريق التذّلل والدّعاء بين يديه عزوجلّ ليعجّل لهم ربّهم تحقيق مابشّرهم به في وعد الآخرة. فتوجّه بخطابه إلى رسوله الكريم يأمره أن يقوم بمهمّة هذا التعليم، وقال:

الآيــة المــائـــة وعشــرة

﴿ قل ادعو الله أو ادعو الرحمن، أياً ماتدعو فله الأسماء الحُسنى، ولاتجهر بصلاتك ولاتخافت بها، وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾

فاستهلّ الله جلّ شأنه الآية الكريمة آمراً رسوله الكريم (قل) أي بلّغ وعلّم مؤمني البعثة الثانية للإسلام خاصّة الطريقة التي ينبغي عليهم الالتزام بها خلال دعائهم وتذلّلهم بين يديّ ربّهم لأعجّل لهم تحقيق الشطر الثاني وهو " الأجل الذي لاريب فيه " هذا الذي نصّ عليه قرار وعد الآخرة والمتعلّق بمصير هؤلاء اليهود الذين جمعتهم في فلسطين لفيفاً. بلغّهم ذلك، وحُضّهم على حفظ أسمائي الحسنى ليدعوني بالاسم المناسب لما يدعونني من أجله في دعائهم، فلا يفرّقون بين أسم أعظم وهو لفظ الجلالة (الله)، وبين أسمائي الحسنى كالرّحمن مثلاً، فأيّاً ماتدعو فله الأسماء الحُسنى، ولاتفرّق بين هذا وذاك على شاكلة مايفعله اليهود الأشرار.

وكأنّه جل شأنه قد خاطب المؤمنين بأسلوب غير مباشر قائلاً: يامعشر المؤمنين الذين تملكّتهم رعشة وفرحة تحقّق الشّطر الأول من قرار وعد الآخرة، إن دعوتموني فادعوني بالإسم الملائم لطلبكم من أسمائي الحسنى كالرّحمن مثلاً. فأيّاً ماتدعو فله الأسماء الحُسنى، فهذه هي طريقة الدُّعاء المثمرة وهو الأسلوب الذي إن اتبعتموه تثمر أدعيتكم التي تدعونني من أجل تحقيقها.

وهنا وبعد أن يتعلّم هؤلاء المؤمنين أسلوب وطريقة الدّعاء بين يدي ربّهم. يعود يُشكل عليهم أمرٌ متعلقٌ بوتيرة الصّوت الذي تستلزمه أدعيتهم المستجابة. أيدعون بصوتٍ مرتفعٍ جهوريّ أم يدعون ربّهم بصوت خافتٍ خفيّ؟

وقد حلّ الله تعالى لهؤلاء المؤمنين هذا الإشكال وقال: **﴿ولاتجهر بصلاتك ولاتُخافت بها، وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾**. فالجهر بالصّوت اشتُق من جهر بصوته أي أعلنه وأعلاه. و (تُخافت) كلمة اشتقت من خَفَتَ صوته أي خفضه وأخفاه ولم يرفعه (محيط المحيط). وسبيلاً أي طريقاً.

أي إياك أيّها المؤمن الواقف بين يديّ تدعوني بأحد أسمائي الحسنى أن تعلن صوتك وتُعليه فتشوّش على من حولك من المؤمنين، كذلك إيّاك أن تخفي دُعاءك في قلبك فلا تحرك به لسانك. بل اتّخذ لك طريقاً وسطاً بين هذا الأمر وذاك أي ابتغ بين ذلك سبيلاً.

وهنا لابدّ من الملاحظة أنّ الله تعالى لم يقل ﴿**ولاتجهر في دعائك**﴾، بل قال ﴿**ولاتجهر بصلاتك**﴾. فما هي حكمة استبداله تعالى كلمة دعاء بكلمة صلاة، واستبداله حرف الفاء الجارّ بحرف الباء؟

ألا إنّ حكمة ذلك أنّ كلمة (صلاة) تعني لغةً الدّعاء. هذا وإنّ سورة البقرة كانت حثّت المؤمنين في الآيات الأوائل منها على الصّلاة جماعة. فهو تعالى وصف المتّقين هناك بقوله: ﴿**ويقيمون الصّلاة**﴾ أي يؤدّون صلواتهم جماعةً بعد الإقامة.

فهذا مايتعلّق بحكمة استبدال كلمة (صلاة) بدل كلمة (دعاء) وليصبح المعنى أن لاتجهر بصوتك أيّها المؤمن في صلا ة الجماعة وأنت تقوم بالدعاء من الله عزوجل وقد استبدل تعالى حرف الجرّ (في) بحرف الباء ليفضي معنى الجهر إلى كلمة الصّلاة من جهة. وليفيد تعدية الجهر إليها من جهة ثانية.

فعلى هذه الصّورة أنهى الله جل شأنه موضوع سورة الإسراء التّابع أصلاً لمضمون سورة الحجر وعلى حسب ماوضّحت ذلك في فنّ الاختزال حول سورة الحجر والمُستهلّة بالأحرف المُقطّعة ﴿**الر**﴾ والمختزلة من أنا الله أرى، أنا الله الذي لايغرب عن عينيّ أيّ شيء سواء أكان حدث في الزّمن الذي مضى أو حدث حاضراً أو سيحدث في المستقبل غير المنظور.

ثم إن الله جلّ شأنه، وعلى عادته، راح الآن يمهّد لموضوع سورة الكهف التي خصصّها للكلام عن تاريخ المسيحيين ومصيرهم، بعد أن كان قد خصّص سورة الإسراء هذه للكلام عن تاريخ اليهود ومصيرهم أقول راح تعالى يمهّد، وليُوجد ترابطاً موضوعياً بين السّورتين.

لذلك نلاحظه جل شأنه أنهى سورة الإسراء هذه بقوله تعالى:

الآيــة المــائــة وأحــد عشــر

﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريكٌ في الملك، ولم يكن له وليٌ من الذل، وكبّره تكبيراً ﴾

فقد أتى جلّ شأنه بالواو العاطفة، وبفعل (قل) أي ليلهج لسانك وفؤادك يامحمد أنت ومن معك من المؤمنين أن ﴿**الحمد لله**﴾ ذلك أنّ المقام هو مقام حمد الله عزوجلّ. وتعظيمه فهو جل شأنه أتى بكلمة (الحمد) لتفيد الشكّر والثناء والرضا بما أنزله الله تعالى من تعاليم في سورة الإسراء هذه وما اتّخذه فيها من مُقرّرات إلهية لصالح الإسلام وللقضاء على أعدائه. وهو تعالى وقد أتى بكلمة (الحمد) مُعرّفةً بالألف واللام اللّذان يفيدان الاستغراق هنا، فليفيد بكلمة الحمد جميع أنواع الشكر وجميع أنواع الثناء وحالة الرّضا والتسليم المُطلق لله عزوجلّ ثم إنّه تعالى أدخل لام الاستحقاق على اسم الجلالة (الله) لوقوع اللاّم بين معنى هو الحمد وبين ذاتٍ وهي ذات الله عزوجلّ. فكلمة (الله) إسم مُختصٌ بذات الخالق، وهو اسمٌ جامدٌ لايقبل الاشتقاق. هذا ويُشترط في الحمد لله أن يصدر عن علم، لاعن ظنّ. كما يشترط كون الصّفات المحمودة، صفات كمال، وهي الأسماء الحُسنى التي تتّصف بها ذات الله عزوجلّ (محيط المحيط).

والذي يقرأ هذا الأمر الإلهي الصادر إلى محمد رسول الله في آخر آيه من آيات سورة الإسراء، وهو ﴿**قل الحمد لله**﴾ وبمعنى ليلهج لسانك وفؤادك بالحمد لله. لابدّ أن يراوده سؤال: وهو ما مناسبة هذا الأمر الإلهي في هذا المقام؟

وتتجلّى بذلك لأعيننا معالم سرّ هذا الأمر الإلهي إذْ نحن عُدنا أدراجنا نستعرض ماتضمّنته سورة الإسراء هذه من معلومات، ومن قرارات إلهية مُتخّذةٍ لإنجاح مهمة هذا الرسول الكريم، ولإظهار صدق هذا الدّين الإسلاميّ الحنيف.

فالقرار الإلهي **الأوّل** تضمّنه الكشف الرّوحي الذي تضمّنته آية الإسراء والذي تقرّر فيه: أولاً فسخ الميثاق المعقود مع موسى بشأن أرض كنعان، بسبب هذه المخالفات المتكرّرة لشروط ميثاق الله مع نبيّه موسى من قبل بني اسرائيل. **ثانياً:** كما تقرّر في كشف الإسراء الروحي فتح بيت المقدس واستعادة أرض كنعان على ألاّ يعود لليهود أيّة علاقة بها بعد إنزال آية الإسراء. وقد تحقّق هذان البندان بكل وضوح وجلاء ففتحت فلسطين على أيدي الجيش الإسلامي، كما اشترط الخليفة الرّاشد عمر بن الخطّاب ألاّ يبق أيّ يهوديّ في القدس على حسب ماورد في معاهدة الصّلح المعروفة إضافة إلى نبوءة تشييد المسجد الأقصى في القدس، وقد شيّده المسلمون بعد الفتح الإسلامي زمن الأمويين.

ثالثاً ـ كما كان تقرّر في الكشف الرّوحي المذكور إظهار الإسلام على جميع الأديان. فقد تضمّن هذا البند الثالث من القرار الإشارة إلى البعثة الإسلام الثانية التي يعمد الله تعالى خلالها إلى القضاء على اليهود وعلى من يسندونهم من أعداء الإسلام نهائياً وذلك بعد أن يجمع اليهود في فلسطين لفيفاً ويُظهر الإسلام على الدّين كُلّه. فهذا تأويل إمامة محمد (ص) لجميع أنبياء الله تعالى في المسجد الأقصى وهو الأمر الذي تضمّنته روايات الإسراء المأثورة.

وقد تضمنت سورة الإسراء في آياتها الأواخر قرار «وعد الآخرة». وهو الوعيد المتعلّق بعودة اليهود إلى فلسطين زمن بعثة الإسلام الثانية لفيفاً من مُختلف الجنسيّات تهيئةً إياهم من جانب الله عزوجلّ للقضاء عليهم بصورةٍ نهائية، وتخليص العالم والإسلام والعرب خاصة من شرور تاريخ أتباع هذه الشجرة الخبيثة وهو تاريخٌ غير مشرّف.

هذا ولقد تخلّل النصّ على القرارين المذكورين عدّة قرارات أيضاً خاصّة أحدها إنهاء الدّور المكّي وبدء الدّور المدنيّ لتأسيس دولةٍ إسلاميةٍ، والعودة منها إلى مكه فاتحين. وقد نبّه الله جل شأنه خلال ذلك إلى أنّ يد اليهود الشّريرة كانت تشكل المحرّك الأساسي الذي دفع أهل مكّة لينقلبوا على ابنهم البارّ الصادق الأمين وهو محمد الرسول الكريم وخاتم النبيّين (ص). وبهذا الكشف التاريخي الذي كشفت عنه سورة الإسراء نكتشف سرّ إيمان أهل مكة بعد فتحها فقد كان العرب أصحاب شيَمٍ ومكارم أخلاق، وأكملتها بعثة ابنهم البّار محمد الصادق الأمين الذي تحنّث في غار حراء سنواتٍ طويلة وهو يجهد نفسه للتعرّف إلى ربه والتخلُّق بأسمائه الحسنى.

كذلك تخلّل هذه السّورة فريضة نافلة التهجّد التي فرضها تعالى على محمد رسول الله (ص)، وليدعو فيها بالأدعية التي علمه ليدعو بها، ليستجيب له أدعيته وليُبلغه المقام المحمود الذي يستحقّه في الدنيا والآخرة.

كذلك تخلّل هذه السّورة هذا الذي علّمه الله تعالى مؤمني بعثة الإسلام الثانية وهي الطريقة الواجب اتباعها في ادعيتهم ليستجيبها ولينصر الله تعالى الإسلام ويعيد له مجده التلّيد، وليخلّصهم من شرور اليهود وأمم المسيح الدّجال.

فإن استعرض القارئ جميع هذه الأمور التي أتيت على ذكرها من قراراتٍ إلهيّة مُتخّذه إلى أحكام وعلوم. فلا مناص أن يكتشف هذا القارئ سرّ وحكمة ومناسبة هذا الأمر الإلهي الموّجه إلى محمد (ص) في آخر آيةٍ من سورة الإسراء هذه وهو ﴿**قل الحمد لله**﴾ أي ليلهج

لسانك وفؤادك يامحمد أنت والذين آمنوا معه بتعظيم الله وشكره على ما اتّخذه من قرارات لصالح الإسلام، وليلهج لسانك بالثناء عليه لاستجابته جميع أدعيتكم وعليك بالرضى بجميع ما أنزله ربكم الذي أثبتت لكم من خلال تجاربكم الرّوحية أيضاً ضرورة الرضا والتسليم بكلّ ما أراده الله ربكّم واتخذه من قرارات.

ثم إنه لمّا كان في علم الله الغيبيّ، أنّ مسيرة الإسلام ستعترضها في المستقبل مشكلة عروج العالم المسيحي وظهوره وهيمنته على المسرح الدّولي، كذلك مشكلة عودة اليهود إلى فلسطين لفيفاً وبدعم من هذه الأمم المسيحية التي تُظهر في صدور قادتها غير ماتخفي، لذلك سُميّت بالمسيح الدّجال. وقد تقرّر إهلاكهم جميعاً في آخر المطاف. كما كان جل شأنه قد خصّص سورة الكهف للكلام عن تاريخ المسيحية ومصيرها. وعليه فقد استدعى علم الله الغيبّي هذا أن يضيف ويقول: ﴿**وقل الحمد لله الذي لم يتّخذ ولداً، ولم يكن له شريكٌ في المُلك، ولم يكن له وليٌّ من الذّل**﴾. فقد أضاف جل شأنه هذه الجملات بدلالاتها ليمهّد بها لموضوع سورة الكهف، والتي شرحت دلالاتها في كتابي (في ظلال دلالات سورة الكهف).

وهذه الجُملات المضافة لابدّ أن يلاحظ القارئ أنّ ألفاظها واضحة الدلالات إلا كلمتا وليّ والذّل، فالوليّ على حسب ماقاله ابن فارس اللغويّ المشهور، هو كلّ من وَلِيَ أمر أحد، فهو وليّه. كذلك يطلق الوليّ على الصديق وحافظ النّسب والنّاصر وابن العمّ والمعتِق ذكراً كان أو أنثى. كذلك يستعمل الولّي كاسم مفعول في حقّ الإنسان المطيع لأوامر خالقه فيُقال المؤمن وليّ الله تعالى (محيط المحيط).

أمّا كلمة «الذّل» فقد اشتُقّت من ذلّ الرجل أي هان ضد عزّ، فهو ذليل. فإن استعملت كلمة الذّل مصدراً، تفيد الرحمة والرّفق. كقوله تعالى: ﴿**واخفض لهما جناح الذُّل**﴾. ويصبح بالتالي معنى قوله تعالى ﴿**ولم يكن له وليٌّ من الذّل**﴾ أنّ الله تعالى لم يتخذ وليّاً له يعاونه ويُحالفه لذِلّةً به.

قال تعالى هذا على اعتبار أنّه كان من عادة العرب أنّه إذا تعاهد وتحالف بعضهم مع بعضهم الآخر يفعلون ذلك ليصبح من يعاهدونه ويحالفونه وليّاً لهم يُعينهم ويعاضدهم عند الحاجة إليه.

ثم إنّ القارئ يلاحظ أخيراً أنّ الله عزوجل راح فـأنهى هـذه الآيـة الأخـيرة مـن سـورة الإسراء بأن أتى بالواو العاطفة وأضاف آمراً رسوله الكريم بقولـه تعـالى: ﴿وكبـّره تكبـيراً﴾. فلماذا أنهى تعالى الآية بهذين اللّفظين ﴿وكبّره تكبيراً﴾؟

فعل الله تعالى هذا تنبيهاً لأذهان رسوله والمؤمنين إلى أنّ عقولهم مهما بلغت مـن القـوة، ومهما توفـّر لها من الأسباب، فلن يحيطوا علماً بعظمة الذات الإلهية المقدّسة وماتحمله من واسـع العلم والقـُدرات، وعلى حسب مادلـّت عليه مـُعطيات مضمون سورة الإسراء. لذلـك نلاحـظ المؤذن داعي الله يشرع بالأذان الله أكـبر الله أكـبر. كذلـك نسـتهلّ صلواتنـا المفروضـة وغـير المفروضة بكلمتي الله أكبر. ويـُكثر إمام صلوات الأعياء من ترديد الله أكبر الله أكبر.

لقد دفعنا الله عزوجلّ هنا في آخر آية من آيات سورة الإسراء لنردّد الله أكبر الله أكبر. ذلك أنـّه لايكتمل توحيد الله جلّ وعـلا إلاّ بالاعتقـاد أن ذات الله فـوق إدراكنـا وتصوّراتنـا. فالذات الإلهية المقدّسة أزليّة الوجود وسرمدية، ومـُـستغنيةٍ عمـّا سـواها، ومنزّهـة عـن التحـوّل والزّوال.

وأنا إذ أُنهي مافتحه الله عزوجلّ عليّ مـن علـوم سـورة الإسـراء. فـلا أملـك إلاّ حمـده وشكره والثناء عليه والرّضا بما أحاطني به علماً. فالله أكبر ولله الحمد.

يوم الجمعة الأول من شهر رمضان المبارك ١٤١٧ هجري

الموافق للعاشر من كانون الثاني ١٩٩٧ ميلادي

ســــليم الجــابي

الفهرس